جامعة البحرين

سِمات

S e m a t

المجلد الثاني - العدد الثاني
مـايـو
2014

مركز النشر العلمي
SCIENTIFIC PUBLISHING CENTER

شعار اسم سِمَات **بخط :** أحمد علي المناعي (البحرين)

لوحة غلاف العدد للفنان : محمود الملا (البحرين)

المدقق اللغوي : د. عبدالحميد المحادين

الإخراج : خاتون السيد سعيد

تصميم غلاف المجلة : ناصر مهدي

سِمَات

Semat

المجلد الثاني - العدد الثاني

مـايو

2014

للمراسلات

مركز النشر العلمي – جامعة البحرين

ص.ب: ٣٢٠٣٨

هاتف: ١٧٤٣٥١١٣ (٩٧٣+)

البريد الإلكتروني: afidouh@hotmail.com

مجلة علمية محكمة يصدرها **مركز النشر العلمي**
بجامعة البحرين ٣ مرات في السنة

رئيس التحرير

عبدالقادر فيدوح/ كلية الآداب – جامعة قطر

مساعدا رئيس التحرير

محمد عبدالرزاق عبدالغفار/ جامعة البحرين
ضياء الكعبي / جامعة البحرين

هيئة التحرير

محمد حسين إقبال جامعة حيدر آباد – الهند
منجد مصطفى بهجت الجامعة الإسلامية – ماليزيا
عبد الملك مرتاض جامعة وهران – الجزائر
عبد الله العشي جامعة باتنة – الجزائر
حسيب الكوشي جامعة الجديدة – المغرب
بن دوبة شريف الدين جامعة سعيدة – الجزائر
محمد مفتاح جامعة الرباط – المغرب
محمد الداهي جامعة محمد الخامس – المغرب
سعيد بنكراد جامعة محمد الخامس – المغرب
بيير ماريو جامعة تولوز – فرنسا
محمد الخبو جامعة صفاقس – تونس
محمد نجيب العمامي جامعة القاسم – تونس
شريف الجيار جامعة بني سويف – مصر
بوميديني بلقاسم جامعة معسكر – الجزائر
ستيفاني ميشينو جامعة لومان – فرنسا
جاك فونتاني جامعة ليموج– فرنسا
بوميديني جلالي جامعة سعيدة – الجزائر
محمد شوقي زين جامعة اكس مارسيل – فرنسا
عبدالقادر شارشار جامعة وهران – الجزائر

المجلد الثاني - العدد الثاني
مايو
2014

فهرس سِمَات
Semat

ما قبل البدء: لِمَ السيميائية؟
كلمة التحرير 11

في عمق سـمات

الموضوع السيميائي ولعبة المعنى
جوزيف كورتيس، ترجمة: نصرالدين بن غنيسة 141

العلم والسيميائية - مقاربات نظرية -
جمال الدين ڤوعيش 49

العلامة: بين اللسانيات والسميولوجيا
عبد الرحمن بن إبراهيم المهوس 121

في إجراء سـمات

مأزق السيميائية (قراءة في الحصيلة النقدية لجهازها المفهومي والإجرائي)
قادة عقاق 79

الاستدلال والتواصل غير اللغوي: الاستدلال التصويري نموذجا
سعيد بنتاجر 63

في تضافر سـمات

الايتوبيا الدلالة والآفاق
بن دوبة شريف الدين 13

كورا Chora : المفهوم والامتدادات
فاطمة عبد الله الوهيبي 35

في تجاور سـمات

التداولية قبل أوستين، واقع أم تهيؤ؟
بريجيت نرليش ودافيد د. كلارك، ترجمة، حافظ إسماعيلي 153

الجذور والصيغ
ترجمة وتقديم: مبارك حنون 113

المقياسية ودراسة الخطاب الكوميدي في «جنة الأحلام الزائفة»
لعيسى خلادي 179

اللغة البلوشية في البحرين
شريفة بن عمور 203

ماقبل البدء

لِمَ السيميائية؟

ذكرنا في تقديم العدد الأول من "**سمات**" على لسان هيدغر Martin Heidegger: "لم تبدأ البداية بعد، فهي لا تقبع خلفنا، لكنها تنتصب أمامنا"، تذكرنا ذلك؛ لأن ما وصلنا من مادة علمية في أثناء تحضير هذا العدد حفزنا إلى الاعتراف بأن "**سمات**" بدأت تجيب عن السؤال الموجه إليها باستمرار: لمَ السيميائية؟.

والحال، ما الذي يجعل "**سمات**" تخوض غمار ثقافة مَحفزات الوصول بالمعنى السيميائي؟ هل هو التفكير الواعي، والراغب في الدعوة إلى التجديد؟ أم اعتلال المعنى المباشر ـ المهيمن ـ وبداية تلاشيه في الغيبة، ومحاولة إدخاله في البعد، والتواري، هو ما جعل علم السيميائات يعزز مكانته في الساحة المعرفية؟

لعل مشروعية هذه الأسئلة في نظر "**سمات**" قائمة على السعي إلى تمكين المتلقي من حدس الرؤيا على نحو ما ورد في تضاعيف صفحاتها من موضوعات لا تسعى إلى التوغل في عقول الناس بقدر ما ترغب في أن تجعل من عملية الكشف قوة نابضة لتفعيل الحدس، وإعادة إنتاج المعنى.

اختارت "**سمات**" موقعها الخاص بها الذي بدأ يتأسس على رسم معنى الإنتاج الدلالي وفق الإمكانات المتاحة للتعبير عن الذات القلقة، والوعي الشقي بالوجود، ورصد أبعاد معاناته، ودرامية انكساراته؛ لذا رأت "**سمات**"، بخوضها معترك التجديد، أن الكتابة ـ في نظرها ـ كانت مجرد صوغ مكرر لما أنجز سابقا، ومن ثمّ فهي لم تتجاوز محاكاة النموذج الأصلي، على خلاف الوعي المعرفي الذي يبدو عليه التجديد للوصول إلى غاياته المستحدثة باستمرار.

ومن ثمّ، فإن مجمل ما قد يظهر تباعا من محتويات "**سمات**" سيكون نابعا من إعادة صوغ النص على مثال ما تستلزمه إعادة تشكيل الحياة اليومية، وما الإشارات المعبر عنها في النهج السيميائي، وما تراهن عليه "**سمات**"، إلا انعكاس لإعادة تكوين الوعي بما يحمله من معانٍ افتراضية تصل إلى غاياتها عبر طبيعة الإدراك الواعي.

رئيس التحرير

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

البحوث باللغة العربية

Studies in Arabic

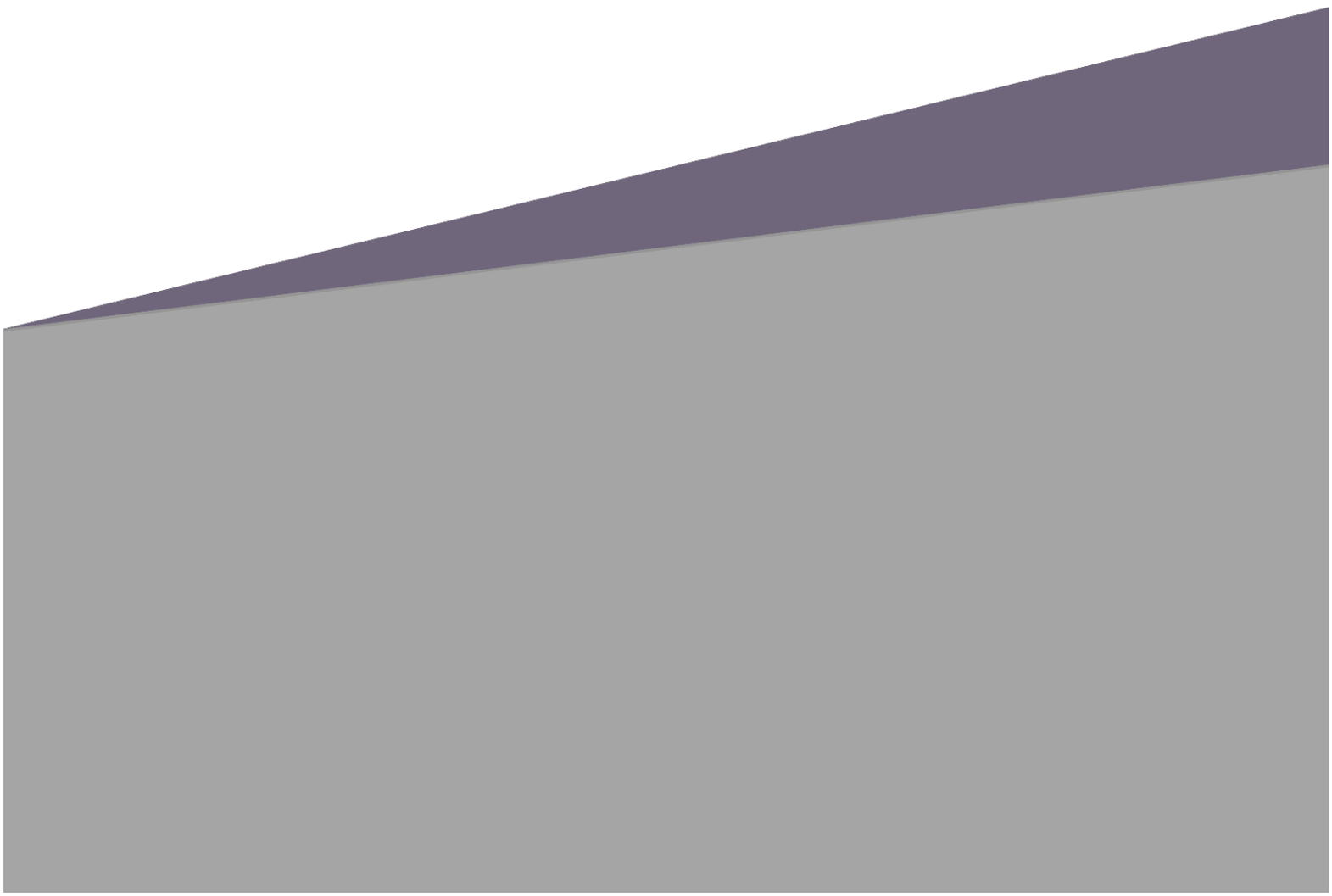

سِمات
Semat

الايتوبيا الدلالة والآفاقِّ

شريف الدين بن دوبه

جامعة سعيدة – الجزائر

bendouba.philos@yahoo.fr

Received: 28 June 2013,
Revised: 22 Dec. 2013, Accepted: 23 Jan. 2014
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

الايتوبيا الدلالة والآفاق

شريف الدين بن دوبه[1]
جامعة سعيدة - الجزائر

الملخّص

إذا كانت العلامة مجرد غلاف مادي للمعنى، والموت ضرورة حتمية تلاحق المنتوج المادي، بناء على المرونة الذهنية التي يتَّسم بها المعنى المحمول في العلامة، والايتوبيا أو الطوباوية. علامة اصطناعية أبدعها المفكر الانجليزي توماس مور، عنون بها روايته، التي أصبحت منذ سنة ١٥١٦ وثيقة تقعيدية لملمح النحت الموري. تشذ عن قاعدة الاندثار اللاحق بطبيعة العلامة، إذ لوحظ من خلال القراءات المتعددة للايتوبيا قابلية الكلمة للتأويل، لدرجة أصبحت فيها كلمة إيتوبيا مدرسة لفن جديد في الدراسات السيميائية، ولنمط جديد في الكتابة، وفضاء خصب لاستنطاق آفاق جديدة في عالم العلامة.

الكلمات المفتاحية: ايتوبيا طوبيا اودوتوبيا ديستوبيا، تأويل، كتابة منسية، فن العلامة، إمكانية، مشروع مجتمع، عدالة، استيلاب.

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

Utopia: Prospects and scope

Bendouba Charif Eddine
Saida university – Algeria

Abstract

If the sign is a mere physical cover for meaning, and death is an ultimate inevitability pursuing the physical product based on intellectual flexibility characterizing connotative meaning in the sign, the Utopia then is an artificial mark innovated by Thomas Moore the British thinker when he wrote his novel. Since he wrote the Utopia in 1516, it became a fundamental document for the Moorian style and feature, nonconforming to the rules of annihilation attributed to the nature of the mark. It was observed through various readings to the Utopia, that it is invariably interpretable to the extent the word "Utopia" has become a school of new art in semiotic studies and a new genre of writing and a wide and novel space to infer new scopes in the world of mark.

Keywords: Utopia, distopy Interpretation, Writing forgotten, The art of the mark, Possibility, Community project, Justice, alienation.

الايتوبيا الدلالة والآفاق

شريف الدين بن دوبه[1]
جامعة سعيدة - الجزائر

توطئة:

الفرق بين الفهم والتفسير في التعاطي البحثي مع المفاهيم أو الظواهر يحاكي الفرق بين عالم الطبيعة وعالم الانسان، والمترتب الذهني عن هذه العلائق القائمة بين الحدود الأربعة نسبية الدقة، وليس الغياب، فزئبقية المعاني الانسانية تمنح النسبية صبغة المشروعية، وطبيعة الألفاظ التي تكوّن صور التفكير تكون في غالب الاحوال قبورا للمعاني التي تحملها، إذ تجعل صيغ الأشكلة عنوانا للبحث فيها، ولكن الفعل العدمي الممارس من طرف العلامة حول المعنى لا يُلغي حتمية قيام العلامة، بل يضفي على انطولوجيتها السمة الضرورية في الوجود، وإن كانت دلالة الضرورية بين العلامة والمفهوم مسألة إشكالية بين فلاسفة اللغة.

يتفّق بنو البشر أن النحت أو الاصطلاح اللغوي من المؤشّرات السيكولوجية والاجتماعية على عبقرية العقل البشري، فملكة الترميز عنده علامة مائزة تسمو به على عالم الكائنات الدنيا، فالكون في غياب الرمز مجرد متاهة، كما أن مرجعية الإبداع النصّي تكمن في القدرة على البناء اللغوي، أو في خلق النص، لأن المادة اللغوية بشكل خاص، والفكرية بوجه أعمّ معطاة لجميع الأفراد الناطقين باللغة، ولكن التميُّز داخل المجال اللغوي يعود الى القدرة على الرسم اللغوي، والتفنن في إنشاء منظومة لغوية تسمح بتنميط المبدع في نسقه الخاص الذي يكوِّن هّويته أو وليدا شرعيا لتلك الشخصية، والمطلوب البحثي في هذه الدراسة تحرِّكه الرغبة في تسليط الضوء على صنف أدبي ارتبط وجوده باصطلاح إنساني فردي، وبلانهائية الإمتداد، إذ لم تقف دلالات الاصطلاح الجديد عند الحدود التي رسمها لها صاحبها وإن كان الايحاء الذي اختاره يندّ عن كل تحديد أوتأطير جغرافي، أوتاريخي، أومستقبلي، إنه مصطلح ايتوبيا.

وضع لفظ "ايتوبيا" القارئ أمام جملة من المفارقات الفكرية، أهمها الحضور في مجال الانسان وفي ميدان العلوم، واللذين يشكّلان من حيث الطبيعة حقلين متضادين، ففكرة النموذج والمثال ليست حكرا على الفلسفة أو الادب فقط بل تكون مطلبا منهجيا في جلّ العلوم، فعلم العمران Architecture مثلا تتأسّس في كثير من النظريات العمرانية على التصورات النظرية الايتوبية، فبحسب Bruno".. إن لكل بناء معماري قواعد للايطوبيات التي تعين المشاريع السابقةعلى تحقيقه والتي تنقلها عادة بعيدة عن النتيجة المبنية في الواقع."[2] فالارشيتوبيا Architopie كمبحث علمي تأسّس على ضرورة الايتوبيا، لأن المخيال والقدرة التصويرية عند عالم العمران مقياس للعبقرية داخل هذا الحقل، فهو الايتوبي نموذج معطى، ولازم في حركة المجتمع، واستيعاب الحركة في أفق الجماعة هو المطلب وليس العكس، أي أن يصبح الافق الذي يمثل بالنسبة للجماعة

١- أستاذ مساعد شعبة الفلسفة، العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة سعيدة.

٢- خوسيه ميغيل بويرطا، البنية الطوباوية لقصور الحمراء، مجلة العرب والفكر العالمي العدد: ١٩/ ٢٠ .١٩٩٢، ص٥.

قطبا للحركة هو الحركة، ويلمس هذا في اكتساب العادات الاجتماعية السمة السكونية في حين أن العادات في الحقيقة لا تمثل إلا أدوات اجتماعية في بلوغ النموذج المرتقب، وعندما تتحول الوسيلة الى غاية تصبح الأمة مجرّد شبح، يقول احد المختصين في هذا الحقل: "مجتمع دون ايتوبيا، مجتمع مهدد بالموت.." و"ايتوبيا الأمس هي اليوم الواقع"، والبحث العلمي في صورته الكلية يتحرك تبعا لمبدأ النموذج الذي يستقطبه، وفلسفة النموذج تشكّل روح اليوتوبيا، أمّا توظيف العلوم الانسانية لمفاهيم اليوتوبيا، فهي من الكثرة بمكان يجعل استحالة غيابها في فرع منها أمراً بدهيا، فبروز جنس أدبي يعرف بالأدب اليوتوبي دليل على قوة هذا الأصل اللغوي، كما أن أدب الرحلات الذي تمتدّ جذوره الى ماقبل ابتكار ايتوبيا يجد ايضا في ايتوبيا معيناً يُعزِّز به تصوراته ومخياله الفني او الفلسفي.

١. الايتوبيا:

يظهر من خلال بناء كلمة ايتوبيا الصوتي، واللفظي الطابع الغرائبي للفظ ايتوبيا على المؤسسة اللغوية العربية، على غرار كثير من الألفاظ مثل كلمة "فلسفة" وجميع أفراد عائلتها، والذين يجدون شجرة النسب ومرجعية الانتماء ممتدّة ومستمدّة من لغة وثقافة الإغريق، إذ إن تاريخ النحت الاصطلاحي للكلمة "ايتوبيا" يقترن باسم الفيلسوف الانجليزي "توماس مور" وبكتابه المعنون بـ" ايتوبيا" والذي ضمّنه رحلة بحار اسمه رافائيل هتلوداي لجزيرة اسمها ايتوبيا، تعيش في ظل نظام اجتماعي محكم التأسيس والتسييس.

المرجعية الايتيمولوجية التي اعتمدها "توماس مور" في تواضعية المصطلح إذن اغريقية بحته، فهي مركبة من ou وتعني no أي اللا، وtopos تعني أي مكان place، والكلمة تعني no place أو No where، وتصبح اليوتوبيا: ليست مكانا، أو اللامكان[٣]، ورغم أن البعض من المختصين في الدراسات اليوتوبية يعتقد أن لفظة ايتوبيا هي ترجمة للفظة اللاتينية "nusquama" المشتقة من Nusquam =le par– nulle والترجمة الحرفية للمصطلح تشير إلى أن دلالة الكلمة هي "اللامكان" أو لا مكان له "أو ما لا أين له" ومعناه المكان الذي لا وجود له في أي مكان"[٤].

أما "تييري باكو" فيذهب الى ان فكرة الايتوبيا عند توماس مور فتعود بالأصل الى ايرازموس، إذ نلمس في كتابه مدح الجنون éloge de la folie" المقابلة التي اقامها ايرازم بين الجنون والحكمة، فيقول له: "لقد فكّرت في اسمك: مورالذي يقترب كثيرا من دلالات الجنون، وان كان يبعد كثيرا عن شخصك"[٥].

تتعدد الترجمات العربية لكلمة utopie متعددة ومنها كلمة "طوبى" "الطوبى"، ونجد الأستاذ خليل أحمد خليل في ترجمته لكتاب Utopies et Les Utopistes للمؤلف تييري باكو Thierry Paquot يستخدم الكلمة "طوبيا والطوباويون"، كبديل لكلمة ايتوبيا رغم ان النص الذي يعتمد عليه مؤلِّف الكتاب يؤكّد الفرق بين الكلمتين "ايتوبيا" و"طوبيا": "(طوبيا، من اجل عزلتي كما سماه القدماء،... منافسة هي للمدينة التي صاحبها أفلاطون ..عليها ربما تفوقت لانني بمجرد حروف رسمت بها... كنت وحدي قد وضحتها.. فالطوبيا اسم يدين لي المرء به ولا جدال في ذلك. Eutopia أو"الطيب" الصالح eu باليونانية، والمكان Topos باليونانية، من هنا جاءت عبارة "بلد السعادة"، وبالتالي فإن ذلك البلد الذي لا وجود له على أية خارطة utopia قد يكون أفضل العوالم Eutopia.[٦]

التفرقة واضحة في النص الأصلي للكتاب، وما يدفع الى الغرابة أن الأستاذ خليل احمد خليل لم يلتزم فيه بالتفرقة التي يشير اليها مور في

٣-جميل صليبا، المعجم الفلسفي الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت،١٩٨٢، ص٢٤. (د، ط)

٤-عبدالعزيز لبيب، الايطوبيا والايطوبيات، مجلة فصول المجلد السابع العدد: الثالث والرابع سبتمبر١٩٨٧، ص:١٢٣.

5- Erasme, Eloge de la folie, trd: marie delcourt, flammarion, paris, 1987, p.8.

٦- تييري باكو، طوبيا والطوباويون، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفارابي بيروت، ط.١-٢٠٠٨، ص ١٧/١٦.

نص الكتاب، إذ نجده يترجم الكتاب الى طوبيا والطوباويين، والاصوب هو ايتوبيا والايتوبيين.

أما "خوسيه ميغيل ببويرطا فيجد أن كلمة طوباوية الاسلامية مناسبة في تعريب الكلمة، لأن دلالة كلمة ايتوبيا كمكان غير موجود، ونموذجي يتقاطع مع الأمكنة السعيدة، فهي أي الطوباوية: "تدل عند هم أيضا على الامكنة المتعة وعن اللاموجود او غير المدرك بالحواس[٧].

ويعتقد البعض من المتخصصين في اليوتوبيا أنها ترجمة غير مناسبة، لأن اليوتوبيا هي الأين الذي لا أين له أو مدينة غير موجودة في أي مكان، أمّا الطوبي فهي ارض السعادة، ويستند على وجوب التفرقة بين كلمة: utopia وكلمة eutopia [٨].

في كتاب قصة اليوتوبيا يذهب لويس ممفورد: (Lewis Memford) :The Story of Utopias الى تصنيفها الى يوتوبيا الهروب تترك العالم الخارجي كما هو، ويوتوبيا إعادة البناء تسعى إلى تغيير الواقع حتى يستطيع الفرد التعامل معه حسب أهدافه، فالأولى تدعو الفرد إلى بناء قلاع في الهواء والثانية تدعوه إلى أن يستشير مهندسا معماريا وبناءً حتى يتمكن من بناء منزل يحقق له حاجاته الأساسية.[٩]

وعليه فإن التعريفات التي تنظر إلى اليوتوبيا على أنها هروب وخيال تكون محكومو بمنظومة قيمية وايديولوجية مثل تعريف "بول فولكييه" الذي مانصه: "اليوتوبيا مشروع أو حلم بمجتمع أو الحلم بمستقبل خيالي ومرغوب فيه[١٠]، وتعريف عبدالمنعم الحفني: "مجرد فرضيات وتخيلات لا تمت بصلة إلى الواقع فعند اليوتوبيا هي المكان المتخيل الذي لا وجود له على أي أرض[١١].

كما نلمس نفس الرؤية في المعجم الفلسفي الذي أصدره مجمع اللغة العربية، اليوتوبيا "طوبياهي كل فكرة أو نظرية لا تتصل بالواقع أو لا يمكن تحقيقها أو مالا يعبِّر عن الواقع ويكون أشبه بالخيال".[١٢]

ويعرفها الأستاذ عبده الحلو بقوله: "إنهانسيج خيالي لا وجود له في عالم الحقيقة؛ الطوباوي من يتصف بجموح الخيال والبعد عن الواقع.[١٣]

أما هربرت ماركيوز ففي مفهومه لليوتوبيا يشير الى المقدمات التي تكمن وراء المشروع الايتوبي، والتي تكشف عن مشروعية الأمل الذي تطمح اليه: "لم يعد يفيد ما ليس ذا مكان في الكون التاريخي، بل أصبح يفيد ذلك الذي تمنعه قوة المجتمعات القائمة من رؤية النور، فاليوتوبيا تعبير عن المشروع الإنساني الذي يعاني الكبت والقسر الاجتماعي[١٤].

أما كارل مانهايم ١٨٩٣ عالم الاجتماع النمساوي الأصل، صاحب كتاب الايدولوجيا واليوتوبيا: "الحالة الفكرية الطوباوية، تكون عندما نخالف حالة الواقع الذي تظهر فيه وتتجاوزه، ولا نعتبرها كذلك، ولا نعتبرها كذلك إلا إذا نزعت مرورا بالعمل نحو تحطيم نظام الأوضاع القائمة المسيطر في هذا العهد تحطيما جزئيا أو كليا...[١٥].

الخلفية التي اعتمدت في التصنيف هي المشكلة وليست المسألة في اليوتوبيا، فاليوتوبيا بناء اجتماعي مثالي خال من العنف والقهر والتملك

٧- خوسيه ميغيل بويرطا، البنية الطوباوية لقصور الحمراء، مرجع سابق، ص:٥.

٨- عبدالعزيز لبيب، الايتوبيا والايتوبيات، مجلة فصول، العدد ٤-٣ المجلد السابع، ١٩٨٧، ص ١٢٤.

٩- محمد لبيب النجيمي، مقدمة في فلسفة التربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧، ص:٦١.

10-P. foulquié. Dictionnaire de la langue philosophique p. u.f.3eme édition 1978 ,paris PP-746-747

١١-عبدالمنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣ ٢٠٠٠، حرف الطاء.

١٢- مجموعة من المؤلفين، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٨٣، ص:١١٣ (د.ط)

١٣- عبده الحلو، معجم المصطلحات الفلسفية، المركز التربوي للبحوث والإنماء، لبنان، ط/١ ١٩٩٤، حرف الطاء.

١٤- هربارت ماركيوز، نحو ثورة جديدة، ترعبد اللطيف شرارة، دار العودة، لبنان ١٩٧١، ص: ١٨٠ (د.ط)

١٥-عبداللطيف عبادة، اجتماعية المعرفة الفلسفية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص:١١٠ (د،ط)

إلى درجة تجعل إمكانية تحقيقه على أرض الواقع صعبة، ويبقى تعلق إمكانية التحقق للمشاريع المثالية مأخذا على اليوتوبيا، في حين أن العيب هو في تقاعس الإنسان عن مواكبة المشروع، فاليوتوبيا صنف معلن ومصرّح به وهي منذ البداية صنف أدبي كما يقرِّر "ريكور" أماّ الإيديولوجية فهي غير معلنة بطبيعتها[١٦].

ولكن الارهاص الطوباوي لايقف عن التطلع رغم العوائق، والحواجز المقامة من طرف الانظمة الشمولية، فسعي الإنسان إلى وضع مشاريع مستقبلية وبناء مجتمعات يوتوبية، مثل يوتوبيا المجتمع الشيوعي، ويوتوبيا المجتمع الرأسمالي، ويوتوبيا العولمة.. مسألة مطلقة في الطبيعة البشرية، فاليوتوبيا حسب جورج أورويل هي الحلم بمجتمع عادل يبدو أنه ينتاب الخيال الإنساني ويعاوده باستمرار، على نحو لا يمكن اجتثاثه أو استئصاله في مختلف العصور، سواء سمي بملكوت السماء أو المجتمع اللاطبقي، أو العصر الذهبي الذي وجد ذاته مرة في الزمان السحيق، وانحرفنا أو تنكّبنا سبيله).

تقدّر عدد اليوتوبيات بحوالي ألف ونيف كتاب في اليوتوبيا والديستوبيا "distopie"، فهي على حد تعبير الأستاذ فاروق سعد تصاميم ذهنية مادية ومعنوية لمنشآت وأنظمة نموذجية، وقيم حضارية، مثالية، غايتها تحقيق الكفاية والعدالة والسلام والسعادة للمخلوقات، يبتكرها الفكر الإنساني ويحيط بها بأجواء من الخيال الجامح والغموض الساحر، والرمز المشوق موحيا بأن العالم الموصوف هو عالم واقعي موجود بالفعل[١٧].

إذن الغاية المحرّكة والمتخفية في النص الايتوبي هي البحث عن الحكمة، والمكان المثال أوالمطلوب في المكان الجديد هو إقامة الوجود الاجتماعي على الحكمة، المقابلة لعالم الجنون الذي يعيشه البشر في مكانهم الوهمي، والذي يتمّ من خلال رفض وتجاوز العقل الجمعي وآلياته في مخيال المكان، ووهمية المكان المبني من خلال الذهن أطروحة تبنّتها المدرسة اللامادية بريادة جورج بيركلي George Berkeley، إذ نلمس الصورة الاشكالية لمخيال المكان من مسائل الفلسفة التقليدية، فتصورات المكان هي الاصل والوثيقة المرجعية لكثير من الحقائق البشرية، والأمل عند توماس مور يكمن في بناء عالم جديد ايتوبيا كمدينة تجسّد الحكمة في مقابل الحكمة المجنونة التي تملك السلطة، بشتى صورها الضاغطة على الذات ذات الفرد وذات الجماعة، وتبقى الايتوبيا تطرح على مستوى البحث كثيرا من الإشكالات، الفلسفية والسياسية والدينية.. فهي تدفع الباحث الى إعادة ترتيب آليات القراءة، فهي فن وتأسيس للكتابة الرمزية.

٢. الايتوبيا وآفاق العنوان:

الفضاء التأويلي الذي تحمله النصوص يضع المتلقّي أمام متاهة فكرية يعيش فيها مع التصورات والأفكار أثناء القراءة لحظة تشظ على مستوى الفهم، ويعاين بعين التأمل مبدأ التّوازي الحاكم على كثير من بواطن النصوص، وقد كانت السمة والبعد اللانهائي لنسبة الاحتمالات التي يوضع الفهم فيها خلف كثير من المباحث الجديدة، والتي اقتضتها التعددية المنهجية، او المنهجية التداخلية المتعددة الاختصاصات La Méthode Pluridiscipline التي تنبع من عمق الدراسات الانسانية.

نظرية العنوان من اساليب الفكر الجديدة التي فتحت امام الباحث كثيرا من المغالق الفكرية التي كانت تحجب المعاني واللطائف الحقيقية عنه في المجال الموضوعي، ومجال الذات، وهي عبر دراساتها تهدف الى مساعدة القارئ في سبر واكتناه المعاني والدلالات المستبطنة داخل النص، فهو - أي العنوان - في نظريات النص الحديثة عتبة قرائية، وعنصرا من العناصر الموازية التي يسهم

١٦- بول ريكور، محاضرات في الايدولوجيا واليوتوبيا، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ ص:٣٦١.

١٧-فاروق سعد، مع الفارابي والمدن الفاضلة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص:٧٧.

في تلقي النصوص، وفهمها، وتأويلها داخل فعل قرائي شمولي، يفعِّل العلاقات الكائنة والممكنة بينهما.[١٨]

مكنت النتائج المستخلصة في ميدان نظرية العنوان في الفضاءات الفكرية، ومنها الدراسات القرأنية، والتي لا زالت تترنّح بين سلطة الماضي، أو مايصطلح عليه بالسلفية التراثية، وبين سلطة الحداثة الغربية، التي سلبت ببهرجها عقل الشرقي المطبوع على الافتتان بكل ماهو جميل سواء على مستوى الشكل أو المضمون، الباحث الموضوعي في مسائل التراث الاسلامي من تجاوز العوائق الذاتية والموضوعية، والمفروضة على عملية البحث. فبعدما كانت الدلالات الدقيقة لآي القرآن الكريم عصيّة على الاحاطة من طرف القارئ، ومحجوبة عنه على قاعدة التعلق المغروس في الجبِّلة الانسانية بالطبيعة المادية، او ما يصطلح عليه في السياق العقائدي بالحياة الدنيا، أصبحت من خلال نظرية العنوان ممكنة الإدراك، إذا أن إمكانية القراءة او الفهم لرمزية العناوين يكشف عن القدرة على اكتناه الرسائل التي تقدمها السلطة المتعالية، فعناوين السورتساعد القارئ على إماطة اللثام عن بعض لحاظ الآي الكريم، مع الاحتفاظ بالدلالة القطعية التي يحملها المعنى الظاهر في الآية "إلا الراسخون في العلم"، والتي تضع التأويل الانساني أمام النخبة الفكرية التي ارتضاها الله لحمل حكمته المتعالية محلّ مراجعة، وأمام محكّ التصادم والصراع التأويلي، والذي انحرف عن مساره الطبيعي الذي هو الاثراء، الى وضعيته الدنيا التي تأخذ عنوانا مميزا الاهو: "سفك الدماء"، وسنستأنس ببعض المحاولات الاجتماعية في استثمار نظرية العنوان.

اعتمد بعض الباحثين في الحقل الاجتماعي، خصوصا المهتمين بعلم الاجتماع الديني آليات نظرية العنوان المنهجية في دراسة القران الكريم، من خلال تفكيك معاني العناوين التي أخذتها السور القرآنية، وقد تم الاعتماد على معايير

علمية في التصنيف مثل وضع العناوين المتعلقة بقضايا طبيعية جامدة او حيّة مثل سورة الرعد او سورة النمل، ضمن مجموعة معينة، والعناوين المتعلقة بسير الانبياء في زمرة التاريخ، مثل سورة نوح "عليه السلام"، يوسف "عليه السلام"، الانبياء وكانت النتائج المستخلصة من خلال المقارنة والتحليل ان المسائل الطبيعية أخذت من السور القرانية مايقدر بـ ٣٢ سورة... كما أكّدت النتائج الاحصائية الطابع العلمي للقرآن الكريم، اما السور المتضمنة لمسائل العبادات والشعائر الدينية فتقدر بسورتين.[١٩] ومنه نستخلص أن المنحى العلمي والتفكري "التأملي) سنخية أصلية في الاسلام النموذجي والأصيل، وليس في الفكرالديني، ومشروع الاستاذ محمد أركون قائما على إماطة اللثام وحجاب الجهل عن هذه المسألة بالذات مسألة الوصل الدلالي بين الدين والفكر الديني .

نظرية العنوان تبدو ضرورة بحثية، ومنهجية في كشف الأبعاد والمرامي التي يتضمنها الكتاب، وغالبا ماتكون الرسائل المبعوثة مشفّرة، لأن أزمة الوعي عند المفكر تمارس كسلطة قسرية على قدرة الكتابة لديه، فيعمل الوعي الظاهري على مقاومة إغراءات الباطن المتكرِّرة بالتستّر، أوإخفاء الكثير من الرسائل، ولذا ستكون هذه الدراسة مجرّد محاولة في قراءة بعض الأبعاد التي تضمنّها كتاب "ايتوبيا" **لتوماس مور**، إذ تضعنا ايتوبيا أمام استشكال أولي يبدأ برمزية الدال، كمجموعة من الوحدات الصوتية، المحكومة بنظام صرفي ونحوي "فونيم وصرافم"، وبمدلول كمتصور ذهني ناتج عن وقع الفونيمات على طبلة الاذن، فهو انطولوجيا يفتقر الى هوية دال، أي الى استقلالية في البناء الصوتي للكلمة، فهو دال مركب من لفظتين ou وتعني اللا وtopos: المكان.

١٨- محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، منشورات الاختلاف، الجزائر الطبعة الاولى ٢٠١٢، ص ١٥.

١٩- علي شريعتي، الامة والامامة، ترجمة ابوعلي، مؤسسة الكتاب الثقافية، ص: ١٩.

نبدأ البحث في آفاق الجزء الاول من الاصطلاح ألا وهو اللا الذي يشير الى الرفض، والرغبة في التجاوز، إذ تعكس فلسفة الرفض التوجه النقدي، والذي يترجم أحيانا بفلسفة اللا La Philosopie du Non، والرفض المتضمن في العلامة "لا" هو فعل وممارسة، وليس تصوّرا سكونيا للعدمية، التي تمنح الكلمة بعدا انطولوجيا فـ "اللا" كعلامة تستبطن مجموعة من العناصر تكون أو تشكّل الطرف الاول في معادلة الرفض، وهي الفرد او الجماعة في سياقها العام أو الجماعة في الصورة المؤدلجة، والتي تكون كمؤسّسة رافضة تمارس فعل التعالي، أو الاستياء من وضع قد يكون موضوعيا أو ذاتيا، وهو مايكون ممثلا في الجزء الثاني من العلامة، والذي هوالمكان "topos".

أخذ الرفض عبر مسار الفكرالانساني صورا متعددة ومتباينة، والموقف الديني كمخاض فكري على قاعدة افتراض اجتماعية الدين يقوم على لحظة الرفض التي يعايشها الانسان في واقعه السكوني، والذي يكون بطبيعته السكونية تلك جزءا من ماهيته، وعائقا أمام طبيعته أيضا، لأن السنخية الانسانية تتأرجح بين السكون وبين الحركة نحو الافق المستقبلي، والمنظومات المعرفية التي عرفتها البشرية من دين، وتفكير ديني الى نظريات فلسفية، وعلمية تبدأ كلها من لحظة الرفض والتجاوز، او من كلمة " لا" فتاريخ الفلسفة بدأ بقول: كلمة لا للمألوف لا للمعتقدات او الحقائق المبنية، فالحركة نحو الافق مع "اللا" وليس مع "الـ نعم"، لأن الموقف الثاني استسلامي بالروح والماهية، فاللحظة السقراطية في تاريخ الفلسفة تمثيل لمشروع ايطوبي سعى فيه سقراط الى إعادة بناء الحلم الانساني، أو المطلوب من الوجود خلال الوجود، فالحقيقة داخل الفرد، وليست تلك الحقيقة الجاهزة المؤسّسة من طرف السلطة الموضوعية وكذلك الحال بالنسبة في المشروع الديني، حيث نجد المشروع المحمدي من خلال النقد والتجاوز بسير نحو عالم ايتوبي على أرض الواقع، قبل العالم الاخروي، أما الخلط بين الايتوبيا الارضية في الاسلام، والايتوبيا الملكوتية، ليس إلا نتاجا لالتباسات فكرية ولغوية وقع فيها رواد الفكر الاسلامي، فالقول بعجز المؤمن عن التشبه او الاقتراب سلوكيا من الرسول محمد "ص" ليس إلا تكريسا بقبول الواقع السلوكي والاخلاقي الرديء الذي لا زلنا نستحم فيه يوميا، فإمكانية تحقيق ايتوبيا ارضية مسألة بديهية، لأن في انكارها انكار للجميع المشاريع الدينية.

٣. الايتوبيا والمكان:

التعاطي الفلسفي مع المكان كمكّون لفظي ثان في الكلمة يضعه امام تجاذبات متباينة من حيث الطبيعة، ومن حيث الغاية فالمفهوم الذي يحمل عليه المكان في الفيزياء يغاير الدلالة الممنوحة له في حقل الرياضيات، فهو في الحقل الأول يملك أبعادا حسية محددة: طول، عرض، ارتفاع، بروز. والسنخية الطبيعية مائز للتصور عن الاستعمال الذي يأخذه المفهوم في الرياضيات، فهو مكان مجرد ومنتوج ذهني يبدعه العقل، بمنح تمثلات ذهنية خطوط، مستقيمات.. لاتمت الى الواقع الحسي بأيّة صلة، وفي الحين نفسه تنطبق بشكل عجيب وغريب على هذا الواقع إذا جاز الاستئناس بعبارة البرت اينشتين.

أما المكان الاجتماعي، أو مايمكن التعبير عنه بالمخيال الرهطي للمكان، الذي هو بالأصل نتاج للمقصود من المكان في فلسفة الايتوبيا، كمجموعة من التصورات، والأنظمة المعرفية المتوارثة التي كانت من حيث المبدأ مواكبة لطبيعتها المتغيرة، والارتكان الى التسليم بها عند الجماعة يؤسّس لمطلقية هذه الأحكام، فالنظرة الى المكان والى المتمكّن أساس التصادم بين بني البشر، من حيث تجذير الارتباط العاطفي مع المكان، والفلسفات السياسية تضع المكان الظاهر كركن مادي رئيس في تأسيس المجتمع المدني للدولة، كما يكون باطن المكان كثروة اقتصادية منطلق الصراع بين الدول، وموضوعة استراتيجية في استيلاب الشعوب أو الامم، وعليه نجد أن الايتوبيا المورية، محاولة نقدية للموروث الثقافي الذي كان سائدا في مجتمعه بشكل عام، ولفلسفة المكان بوجه أخص، وقصة توماس مور مع

الملك هنري الثامن، والتي كانت سببا لإعدامه تؤكّد هذه النزعة الرافضة للموروث السائد.

المكان في الاطروحة المورية بناء ذهني وعقلي في آن واحد، والفرق المقصود بينهما يظهر في تقاطع الذهني مع الوهمي أحيانا، أمّا العقلي فغالبا مايكون ساميا على القوة الوهمية، وإن كان الحضور العاطفي في ماهو عقلي ظاهرا في كثير من الفنون اللغوية مثل الأدب، فالمكان إنتاج الحكمة لعالم حكيم من طرف حكيم، كما يمكن قراءة الآفاق التي تستبطنها الايتوبيا كاصطلاح وكلون أدبي جديد على قاعدة ارتباطها بفكرة اكتشاف العالم الجديد، فأدب الرحلات وإن كان قديما على ظاهرة اكتشاف العالم الجديد، فتصوّر المكان الايتوبي على شكل جزيرة يتضمن محاكاة للجنين الذي يعيش في عالم الرحم، فهو ببراءته أصل الحياة، ومرجع الحياة السعيدة، فالادب الايتوبي يضع المكان النموذج خارج المعطيات المكانية والامكانية التي يقدّمها المعيش، فهو إبداع وتأسيس نظري وفلسفي، وليس معطى الواقع، فالتعالي على العادات والارتباطات الاجتماعية مع المكان، ضرورة للارتقاء، وللحصول على مكان السعادة الاوتوبيا eutopia، والذي يتم من خلال الايتوبيا Utopie.

نجد في الكتاب الاول من ايتوبيا لتوماس مور الاشارة الى أهمية الحضور الفلسفي في الممارسة السياسية يقول مور: "يبدو لي انك ستفعل ماهو جدير بهذه الروح الكريمة الفلسفية التي تتسم بها إذا دبرت حياتك بحيث تضع مقدرتك في خدمة الصالح العام، حتى ولوكان في ذلك مايضيرك شخصيا بعض الشيء، وهذا مالايمكن ان تحققه بهذا القدرالا إذا كنت مستشارا لملك عظيم."[٢٠]

الأمل في الفلسفة كمرجعية نظرية، وكأداة إجرائية في تغييرالوضع المعيش، من المسائل التقليدية في الانساق الفلسفية التقليدية، والمشروع الافلاطوني نموذج عالمي لهذه الدعوة، والسير توماس مور يلمح في الكتاب الاول من رواية ايتوبيا لأصالة افلاطون، وللصعوبات التي اعترضت افلاطون، والتي كلفته حريته، وأخطر شيء في نظر أفلاطون هو المخيال، إذ يشير في الرسالة السابعة اثناء اقامته في سراقوسه، حينما اراد معرفة تاثير الفلسفة في قلب دنيس، فوجد ان الحاكم لطاغية كان قد الّف لنفسه نوعا من الافلاطونية المليئة بافكار مفهومة بشكل سيء: "علمت ان دنيس الف بنفسه مكتوبا مما سمعه من فمي".

٤. كيف نقرأ الايتوبيا؟

يضعنا السؤال أمام لحظة مراجعة لجميع القراءات التي أخضعت لها الإيتوبيا، فهي عند المدرسة الاشتراكية مشروع سياسي حالم وحامل لمشروع مجتمع فاضل ونموذجي، وبديل للظروف الاجتماعية السيئة، وتأسيس نظري لوهم الرأسمالية، فهي فضاء التحرر من كل مظاهر الاستيلاب، وتقعيد لأطروحة الفلسفة الماركسية، فتوماس مور أب الاشتراكية الطوباوية التي تمثل المرحلة الابتدائية للنظرية الاشتراكية، ولذا نجد الحزب الشيوعي الحاكم في الاتحاد السوفياتي يقيم تذكارا رمزيا لتوماس مور، وفي المقابل نجد اليوتوبيا عند كثير من الباحثين كليانية متسترة، ومضمرة.

يبدو أن أغلب هذه المواقف، أوالقراءات تنطلق من محطة ذاتية قيمية، تسقط فيها ارهاصاتها، وحمولتها الثقافية على النص الايتوبي، حبث يجد الباحث في طبيعة النصّ الإنساني الأدلوجة ظاهرة أو مضمرة سياسية كانت أو إجتماعية داخل القراءة اليوتوبية، وتصنيف نماذج القراءات التي أخضعت لها الايتوبيا الى قراءات واقعية وقراءات مجازية لا يجانب الصواب، إذ نلمس في القراءة الواقعية للايتوبيا المورية اسقاطا للادلوجة على النص، حيث حجز السوفيات مكانا لتوماس مور في مدفن عظماء الثورة وسجّل اسمه على نصب تذكاري في الساحة الحمراء بموسكو، وهي نموذج حي لقراءة واقعية أسقط فيها الفكر تصوراته ورؤيته الكونية على هذا النمط الادبي، أما القراءة

٢٠- توماس مو، يوتوبيا، ترجمة انجيل بطرس سمعان، الهيبئة المصرية العامة للكتاب، مص، ط: ٢ / ١٩٨٧، ص:٩٨.

الواقعية الثانية فتظهر في تطويب توماس مور من طرف الكاثوليك في عام ١٨٨٦، وجعله قديسا في عام ١٩٣٥، وستكون قراءتنا للنص الايتوبي مجرد توصيف، واستنطاق للنص من خلال مسح تاريخي للمسار الجينيالوجي لفكرة الايتوبيا.

٥. أنواع الايتوبيات:

قراءة الايتوبيا من خلال تصنيفها الى ايتوبيات Utopies، أو الى ايتوبيين Utopistes يطرح الكثير من المسائل الخلافية حول جنس النص الايتوبي، فقراءتها من خلال الأجناس الأدبية، تضعنا أمام تجاوز ايتوبي لسلطة المكان والزمان، فالتداخل والتخارج الموجود بين بعض الايتوبيات يطرح تساؤلا أمام قدرة الايتوبيا على ممارسة هذا التجاوز، فما نلمسه في ادب الرحلات الذي عرفته جميع المجتمعات، والثقافات إحالته الى عصر التقنية الذي اكتسح فكر الانسان وثقافته مع عصر النهضة، وكذلك الحال نجده عند الايتوبيات الاجتماعية او المدنية، أي الباحثة عن نموذج تطبيقي للعدالة بعيدا عن المخيال والخيال، التي تحاكي جميعها جمهورية افلاطون، فالديمقراطية، والفضاء العمومي تعبير عن ايتوبيا جديدة أفرزتها مفارقات العصر النقني.

والتباين في القراءات يؤكّد هذه الصعوبة، فالبعض يضع الايتوبيات في صنف الايديولوجيات القاتلة، والشمولية، والتي تغيب فيها الحرية الانسانية، في حين يجد فيها البعض المنبع الرئيس للنزعة الانسانية، وسنحاول قراءتها من خلال نوعية المضامين، وطبيعة المشاريع التي تأسست عليها، وهي:

١. اليوتوبيات الدينية:

وهي أقدم اليوتوبيات ظهورا إذ تقوم على الربط بين الوسيلة والغاية والالتزام بالشريعة هو الوسيلة الإلهية التي يبلغ الإنسان بها الجنة، فهي عالم يوتوبي يسعى إليه كل المتدينين مثل كتاب الفيدا الهندوسي والأفيستا الزرادشتي .. وحتى الديانات السماوية تضع عالما اليوتوبيا في قائمة المطالب والغايات الأخلاقية، وفي قائمة الحوافز والدوافع نحو الالتزام الأخلاقي والشرعي. وستكون لنا وقفة مع بعض اليوتوبيات الدينية مثل مدينة الله للقديس اوغسطين، واالمدينة الفاضلة عند الفارابي.

مدينة الله:

القراءة الأولية لعنوان الكتاب توحي بالمحتوى، فمدينة الله تصور يقرن التجمعات السياسيّة بالمفاهيم اللاهوتية، كما أن مدينة الله عبارة تكررت في العهد القديم والعهد الجديد، وليست تسمية جديدة، ففي العهد القديم وردت عبارة مدينة الله "..نهرٌ سواقيه تفرِّح مدينة الله، مقدسَ مساكن العلي ..الله في وسطها ولن تتزعزع)[٢١]

وفي سفر طوبيا من العهد القديم نجد في الإصحاح ١٢ هذه العبارة: "يا أورشليم مدينة الله إن الرب أدبك بأعمال يديك ..) أما في العهد الجديد فقد وردت في "رسالة بولس الرسول الى العبرانيين الإصحاح ١٢): "بل قد أتيتم الى جبل صهيون، وإلى مدينة الله الحي أورشليم السماوية...)[٢٢].

فمدينة الله تعبير عن الرؤيا المسيحية لحركة التاريخ، وهذا مايؤكده كانتور حينما يقول "فلسفة التاريخ المسيحية تمثلت في كتاب مدينة الله لأوغسطين بشكل أساسي، وربما يكون هو أكبر عمل مؤثر في تاريخ الفكر المسيحي باستثناء الكتاب المقدس .)[٢٣].

من هنا يتبين لنا أهمية الكتاب في الفكر المسيحي، فالدافع الى التأليف كان البحث عن سبب مسيحي لسقوط الإمبراطورية الرومانية، ولكن حاسته التاريخية كما يصطلح عليها المؤرخ كانتور دفعته الى دراسة التدوين التاريخي عند اليونان والرومان، ثم وجد نفسه ملزما على نقد هذه الأساليب التدوينية للتاريخ .. والنظرة

٢١- العهد القديم، سفر المزامير الاصحاح ٤٦.

٢٢-العهد الجديد، جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى القديم، بيروت، ١٩٦٤، ص:٣٦٧.

٢٣- نورمان كانتو، التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، الطبعة الخامسة ١٩٩٧، ص:١١٧.

الأوغسطينية لفلسفة التاريخ تقوم على رفض النظرة الدورية لحركة التاريخ وعدم القبول بإمكانية تكرار الحوادث التاريخية، "فتجسد المسيح أي حياته على الأرض كانت حادثا فريدا غير قابل للتكرار أبدا في التاريخ ..)[٢٤]

فكتاب مدينة الله لايُعبِّر عن وجهة نظر دينية للكون والحياة بل هو نظرة فلسفية تأسيسية للرؤيا التوحيدية المسيحية للكون وللفرد وللتاريخ .

يؤسس مدينته اوفلسفة الطوباوية على فلسفة الحب، والذي بشر به السيد المسيح عليه السلام، يقول:» حبان صنعا مدينتين،حب الذات حتى احتقار الله صنع المدينة الأرضية، وحب الله حتى احتقار الذات صنعا المدينة الإلهية.. فالأولى تبحث عن المجد لدى الناس، في حين أنه بالنسبة للثانية فإن الله هو شاهد على ضميرها، وهو مبدأ فخرها."[٢٥]

فالحب ليس نجسا في طبيعته بل بالعرض، إذ يصبح أخلاقيا وضروريا إذا كان متعلق الحب موضوعيا وأخلاقيا، وتقديم الغير على الذات هو حب للإنسان وليس نكرانا للذات، يقول القديس أوغسطين: "..نرى زعماءها زعماء مدينة الله الموجهين ينذرون أنفسهم للمحبة..)

فالمواطن المسيحي إذن يؤمن في داخله أنه مدعو لأن يكون فردا أو عنصرا في مجتمع أكثر اتساعا من المجتمع البشري الذي ينتمي إليه بالفعل، وهذا المجتمع هو مجتمع العدول "مجنمع الفضيلة" أو

الأشخاص العادلين الذين يتمتعون بسعادة أبدية، والذين يتألف منهم ملكوت السموات أو مدينة الله، والقيم الأخلاقية التي تبنى عليا المواطنة، هي العمل وفق القانون "القاعدة الإلهية).

فالأخلاقي ليس ما يُقرِّره المجتمع أو الفرد أو الدولة بل الله هو الذي يمنح المشروعية الأخلاقية للفعل،فتحديد القيم وتأسيسها يخضع لمقياس القرب أو الابتعاد عن الله وأعتقد أن إشكالية أساس القيم الأخلاقية التي احتدم الصراع والجدل الكلامي حولها في جميع الثقافات، خصوصا الذين يعتقدون بنقلية أوسمعية القيم يجدون عند القديس أوغسطين الكثير من الحجج .. يقول: "إن الفضائل التي تعتقد النفس بامتلاكها وبفضلها تسيطر على الجسد وعلى الرذائل، هذه الفضائل هي في الواقع رذائل إذا ما ابتعدت النفس عن الله، ففي الواقع هي فضائل بحد ذاتها، إلا أن الغرور الذي يصيب النفس بابتعادها عن الله يحولها من فضائل الى رذائل ..)

ومن بين الفضائل الأخلاقية فضيلة السلام القيمة التي يطلبها المواطن في المدينة ومن المجتمع المدني تقوم على نوعية وشكل العلاقة مع الله.. "تعيس هو الشعب الذي يبتعد عن الله؛ فهو يحب السلام ولا مجال لرفضه، لكن هذا الشعب لا يملك السلام النهائي لأنه أساء استعمال هذا السلام... أما بالنسبة لسلامنا نحن على الأرض مع الله بالإيمان، وسيصبح في الأبدية معه بالرؤيا..)

ويمكن القول أن القديس أوغسطين يستحق عن جدارة أن يصنّف ضمن آباء الكنيسة، فعن طريقه انتقل الفكر القديم الى العصور الوسطى ؛ فقد كانت كتاباته منبعا زاخرا من الفكر نهل منه فيما بعد الكتاب الكاثوليكيون والبروتستانت [٢٦].

والغريب في الأمر أن كتابات هذا المفكِّر وظفت في عدة أوجه متباينة، فمنهم من يصنّفه ضمن أعمدة الفكر المسيحي ومنهم من يعتبره منظرا للاضطهاد، وهذه الدلالات المتغايرة عبر عنها الأستاذ توفيق الطويل بقوله: "ومن كتاباته في البر والتقوى والقضاء والقدر والأعمال الخيرية وغيرها، استمد البروتستانت أعظم أسلحتهم قوة وصلابة، وفي تزمته النظري عرف المذهب الكاثوليكي أخص مميزاته.. وقد أخفى المتزمتون

٢٤. المرجع نفسه، ص:١٢١.

25-Saint augustin; la cite de dieu, Édition du seuil, Paris, 1994, p191.

٢٦- جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الجزء الثاني، ترجمة: حسن جلال العروسي، دار المعارف، مصر، ٩٦٩١، ص:٢٧٥ (د.ط).

من أتباعهما تعصبهم وراء اسم هذا القديس العظيم .."[٢٧]

مدينة الفارابي الفاضلة:

السمة العامة التي تطبع مدينة الفارابي الطوباوية بعدها المدني، والمتعلق بالهيكلية والخطة التنظيمية التي اقترحها في إدارة المدينة، أما الملمح الذي أعتمدناه في ادراج الطوباوية الفارابية ضمن اليوتوبيات الدينية، هو اعتقاده في وجوب ارتباط السلطة الزمنية بالسلطة الروحية، والتي تظهر فيه القرابة الفكرية بين التصور الفلسفي عنده، واعتقاد المدرسة الامامية في السياسة، والتي تقع في مقابل مدرسة الصحابة مدرسة اهل السنة والجماعة.

يظهر البناء الهرمي للمواطنين عند الفارابي في المقاربة التي وضعها الفارابي بين بنية الجسد وبنية الدولة والتي يقول فيها: "والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح، الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان "والمقصود بها الحياة)، وعلى حفظها عليه، وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة الفطرة والقوى، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب، وأعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس..))

تتميز مدينة الفارابي الطوباوية ببنية وتراتبية تفاضلية في طبقات المواطنين، تتحدد وفقا للوظائف التي ليست محددة خارج طاقات، وقابليات المواطن، فقدرة المواطن هي التي تحدد الوظيفة و، وليست الهيئة المسيرة هي التي تحدد، وأعتقد أن الفارابي يستحضر الآية الكريمة: لا يُكَلِّفُ اللّه نَفْسًا إِلاّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ..))[٢٨]

فالشارع يتقيّد بالعدل والحكمة في توزيع الوظائف والمهام، وفي هذا النص نلمس هذه التراتبية: ""وكما أن العضو الرئيس في البدن هو بالطبع أكمل أعضائه، وأتمّها في نفسه وفيما يخصُّه، وله من كل ما يشارك فيه عضو آخر أفضله، ودونه أيضا أعضاء أخرى رئيسة لما دونها، ورياستها دون رياسة الأول، وهي تحت رياسة الأول تَرأس وتُرأس، كذلك رئيس المدينة هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصه، وله من كل ما شارك فيه غيره أفضله. ودونه قوم مرؤوسون منه ويرأسون آخرين"

البنية التراتبية لمواطني المدينة عند الفارابي لا تحميها الإثنية أو الطائفية المذهبية، بل القدرة والقابلية والفعالية فهي تقوم على منظومة معرفية و قيْمية، فالقاعدة المعرفية التي تشكل إيديولوجية الدولة، أو المدينة في الاصطلاح الحديث ينبغي أن تكون واحدة، ولكن مادامت الطبيعة أسّست للتفاوت، فالمعرفة أيضا متفاوتة، فهناك "الحكماء الذين يعرفون طبيعة الأشياء بالأدلة البرهانية وعن طريق استبصاراتهم الخاصة، وأتباع هؤلاء الذين يعرفون عن طريق براهين الفلاسفة ويقبلون بها، وبقية المواطنين الذي يعرفون عن طريق التشبيهات اعتمادا على منزلتهم كمواطنين[٢٩].

فهذه الدولة وإن كانت تتقاطع مع الدول التوتالتارية "الأنظمة الكلية) في البنية الهرمية، فإنها تختلف عنها في أساسها الأخلاقي، فمهمّة الحاكم أو "المهنة الملكية على حد تعبير الفارابي أو ماشاء الإنسان أن يسميها بدل اسم الملك، والسياسة هي فعل هذه المهنة، وذلك أن تفعل الأفعال التي بها تمكن تلك السير وتلك الملكات في المدينة، والأمة وتحفظ عليهم وإنما تلتئم هذه المهنة بمعرفة جميع الأفعال التي بها يتأتى التمكين أولا والحفظ بعد ذلك ."[٣٠]

٢٧- توفيق الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص:٧١.

٢٨- سورة البقرة، الآية ٢٨٦

٢٩- ليو شتراوس، تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول، ترجمة محمود سيد احمد المجلس الأعلى للثقافة مصر، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، ص:٣١.

٣٠- ابو نصر الفارابي، كتاب الملة، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩١، ص:٥٤.

فالغاية من الدولة تحقيق السعادة في الحياة الدنيا والأخرى، وأعتقد أن الفارابي هو أول من تعرّض للسعادة كقيمة في بعدها الأخروي أي بعد نهاية الحياة، في حين نجد أن جون لوك بعده يقول: "إن سلطة الدولة لا تتعلق إلا بالخيرات المدنية، وأنها مقصورة على رعاية شؤون هذه الدنيا، وأنه لا يحقّ لها أن تمسّ أي شيء يتعلق بالحياة الآخرة).

فالغاية من الدولة هي الالتزام بمسؤوليتها المدنية والقانونية إزاء الحقوق الطبيعية والوضعية للمواطن، وبمسؤوليتها الأخلاقية اتجاه آخرة المواطن، فمسؤولية الدولة عند الفارابي اتجاه المواطنين لا تقف عند حد الدنيا فقط بل تتجاوزها إلى مسؤوليتها عن مستقبل المواطن في مرحلة ما بعد الموت، وأعتقد أن الفكر السياسي الحديث والقديم لم يتعرض لهذه المسألة.

أما علاقة الإيديولوجية بالمواطنة، فليست بالأمر الجديد في نسق الفارابي، حيث نلمس أن وحدة المحتوى المعرفي تساهم في توحيد التوجّه لدى جميع المواطنين، وهي من مهام الرئيس التربوية في المدينة، فالفارابي على حد تعبير الأستاذ محمد عبد المعز نصر أقرب إلى أصحاب الإيديولوجيات اليمينية واليسارية في عصرنا الحاضر ممن يؤكّدون وجوب ملء رؤوس المواطنين ملئا إيديولوجيا متشابها، حتى يكون التجاوب كاملا بين الزعيم وشعبه، وتكون الاستجابة أقرب إلى الآلية بين أوامر القائد وطاعة المواطنين[٣١]

يحدد الفارابي المحتوى المعرفي للإيديولوجية في مبادئ أولها: الرؤية الانطولوجية للكون، ثم الوعي السياسي بدستور الدولة المنظم لأنساقها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتنفيذية، وفحوى النص يبين ذلك: "فأما الأشياء المشتركة التي ينبغي أن يعلمها أهل المدينة الفاضلة فهي أشياء، أوّلها معرفة السبب الأول وجميع مايوصف به.... ثم الرئيس الأول وكيف يكون الوحي، ثم الرؤساء الذين ينبغي أن يخلفونه إذا لم يكن موجودا في وقت من الأوقات، ثم المدينة الفاضلة وأهلها والسعادة التي تصير بها أنفسهم، والمدن المضادة لها وما تؤول إليه أنفسهم بعد الموت..[٣٢]

ويؤكّد الفارابي على الأساس الأخلاقي للأيديولوجية التي ينبغي أن تكون واحدة موحّدة، فيقول في كتاب السياسة المدنية: "ويحتاج في كل واحد من أهل المدينة الفاضلة إلى أن يعرف مبادئ الموجودات القصوى ومراتبها، والسعادة، والرئاسة الأولى التي للمدينة الفاضلة ومراتب رئاستها .ثم من بعد ذلك الأفعال المحدودة التي إذا فعلت نيلت بها السعادة، وأن لا يقتصر على أن تعلم هذه الأفعال دون أن تعمل، ويؤخذ أهل المدينة بفعلها))، من هنا يتبين أن الأيديولوجية التي يدعو الفارابي لتلقينها للمواطنين ليست إيديولوجية نمطية أو نسقية تفرض بالإكراه على المواطن، بل هي إيديولوجية مبنية على الحجة والبرهان لا على قول القائل الذي هو إنسان والمضروب في جبِلّته بضروب الخلل والنقصان على حد تعبير الحسن ابن الهيثم.

٢. ايتوبيا العلم:

العلم قوة، عبارة أسّس بها فرانسيس بيكون، ملامح عصر جديد يتسم بالتجاوز، والرغبة في تحطيم كل منظومة لاهوتية أو ميتافيزيقية، تعمل على إعاقة الارتقاء، والتعاطي الإرادي مع ملكات العقل، وقد أحسن بيكون في توصيف هذه العوائق بمنظومة الأصنام أو الأوهام التي تحجب الحقيقة عن الحسّ المشترك، وعن مدعي المعرفة، والتي هي:

أوهام الكهف: ترجع بالأساس إلى مكونات الفرد البيولوجية كمزاجه وطبعه والى المكتسبات الثقافية وآرائه، ورغباته الذاتية التي تحول دون إدراكه الحقيقة، فيسجن نفسه داخلها بينما

٣١- مجموعة مؤلفين، أبو نصر الفارابي في الذكرى الألفية لوفاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص:٢٥٤.

٣٢- أبو نصر الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تعليق ألبير نصري نادر، دار المشرق، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٨، ص:١٤٦.

يطلب منه عكس ذلك تماما، والمطلوب من الإنسان، لأجل تفادي هذه الميول المغرضة، أن ينمي قدراته الذهنية على إخضاع آرائه وأمانيه للنقد الموضوعي، و احترام الأشياء كما توجد في الواقع. يقول العالم الانجليزي توماس هكسلي: "إن مهمتي هي تدريب أماني على التكيف مع الواقع، لا محاولة تنسيق الوقائع حسب هذه الأماني، وعلى الإنسان أن يجلس بين يدي الواقع كطفل صغير، وأن يكون على استعداد للتخلي عن جميع الأفكار السابقة وأن يتبع الطبيعة بتواضع حينما تقوده، وإلا فلن يتعلّم شيئا"[٣٣].

وهام السوق: تنشأ هذه الأخطاء والخداع عن الاستعمال الفردي والسيئ للألفاظ التي يستعملها كل منهم بطريقته، "وسميت بأوهام السوق لأن الناس متى اجتمعت كما تجتمع في الأسواق، لا تملك أداة واحدة مشتركة لتبادل الأفكار"[٣٤].

وهذا ما عبّر عنه برغسون عندما أشار إلى أن اللغة ليست دائما أداة طيّعة وصادقة في نقل أفكارنا، فيقول: "ولكن في أغلب الأحيان، إننا لا ندرك من حالتنا النفسية إلا انتشارها الخارجي، إننا لا ندرك من أحاسيسنا إلا مظهرها اللاشخصي، المظهر الذي سجله الكلام، مرة واحدة وأخيرة، لأنه تقريبا، هو ذاته، في نفس الظروف، بالنسبة إلى كل الناس، و هكذا، و حتى في ذاتنا الفردية، تهرب منا ذاتيتنا"[٣٥]. فاللغة التي تعتبر عادة أداة اتصال و تواصل وإبانة عن الأشياء،كثيرا ما تكون عائقا أمام ذلك.

أوهام المسرح: تنشأ مما تتخذه النظريات والمذاهب الفلسفية والآراء المتوارثة عن الفلاسفة من مقام ونفوذ، فيتلقاها الناس عن الفلاسفة أو عن أصحابها كما يتلقى المشاهدون في المسرح أقوال الممثلين و كأنها تنزل عليهم من عل، وهم يتلقونها ويتقبلونها دون أي فحص أو نقد أو برهان"[٣٦]. وهكذا فليست الأوهام مجرد أخطاء أو مزالق يقع فيها الناس دون قصد أو شعور، بل هي أصلية في العقل، داخلة في تشكيله، و جزء من تركيبه.

أوهام القبيلة: تعود «للنقص الطبيعي الموجود في العقل الإنساني ذاته، أي في تركيبه الناقص المشوه لطبيعة الأشياء و ألوانها"[٣٧]. أي أن العقل يتوهّم معرفة الظواهر و إدراكها مباشرة و لأول وهلة يقع نظره عليها، فيعتبر الانطباع الأولي الذي انطبع في ذهنه هو التفسير الحقيقي، بينما هو في الأصل مجرد انطباع حسي أولي خادع.

قدِّم بيكون مشروعه المدني، بتأسيس أرضية علمية لمجتمع تقني تتجاوز فيه الأوهام في كتابه "اطلنطس الجديدة" ايتوبيا فرانسيس بيكون، الحلم بتأسيس المجمع أو الهيئة العلمية العالمية، المؤسسة التي تتكفّل بمسألة البحث العلمي، والمشاريع التقنية الهادفة الى الارتقاء بملكات الانسان، والانتقال بها من عالم الامكان الى عالم المكان، وقد أقام بيكون المؤسسة في مدينة بن سالم، التي يعمل علماؤها على الجدّ في اقتناص، وصيد المعارف، وتضم هيئة علمية تعمل على البحث العلمي، وتفعيل الاختراع، لأن الحياة النموذجية لاتتحقّق إلا بالعلم والتقنية، فالنزوع الى الاستقرار، والبحث عن السعادة، أصل فطري في الطبيعة الانسانية، وليس وضعية ثانوية، فالانسان الصانع وجد قبل الانسان الحكيم، لان الكمال الانساني الحاصل بواسطة التقنية لا يحتاج الى إثبات، وإن كانت المساوئ المترتبة عن توظيف التقنية لا تعدولاتحصى، ولكن مرجعية السلب الذي الحق بالتقنية تعود الى طغيان الذات بحمولتها الغرائزية في استثمارها،

٣٣- و.ا.ب. بيفريدج، فن البحث العلمي، ترجمة زكريا فهمي، دار أقرأ، بيروت، ط٥، ١٩٦٨، ص:٨٩.

٣٤- محمود فهمي زيدان، الاستقراء والمنهج العلمي، دار الجامعات المصرية الإسكندرية، ١٩٧٧، ص ٦٤.

٣٥- هنري برغسون، الضحك، ترجمة علي مقلد، مرجع سابق، ص ١٠٢.

36- Bertrand vergely, le dico de la philosophie, ED, Milan Toulouse, 1998, p.79.

٣٧- حبيب الشاروني، فلسفة فرنسيس بيكون، مطبعة النجاح الجديدة، (المغرب) ط١ /١٩٨١ ص ٥٥.

وأمثولة "بروميثيوس Prométhé" تستبطن رغبة الانسان في الحصول على التقنية لتحقيق السعادة المنشودة، لأن اكتشاف النار لحظة تحوّل وانتقال من مستوى البدائية الى مقام التحضّر الانساني، فأهمّ خاصية مميزة للمكان المعيش هي النقصان، أما المكان المتخيّل فهو عالم يتّسم بالكمال، والمعبر الذي ينقل المكان من عالم النقصان الى عالم الكمال هو التقنية التي جسّدها، ومثّلها الانسان بتضحية بروميثيوس، الرمز والملاك الأعلى الذي يضع المصلحة الانسانية فوق كل اعتبار.

٣. ايتوبيا التقنية:

التقنية كمطلب حضاري، وإنساني مخاض، وتجسيد فعلي لعملية التفلسف، وقد كان غاليلي المرجع الرئيس لجلّ النظريات الفلسفية التي تهدف الى تجسيد حلم السعادة الارضي للبشرية من خلال التقنية، وأهم الايتوبيات التقنية يوتوبيا شارل فوريه ويوتوبيا "مدينة الشمس" للراهب توماز و كامبانيلا، والذي يجعل من الشمس مركزا رئيسا لفلسفة المكان، والمحرك البديل لمركزية الأرض، فكانت اليوتبيات التقنية تعبيراً عن سذاجة نظرية المكان التقليدية.

تقوم فلسفة كامبانيلا على ثلاثة مبادئ أولا اعتبار الفلسفة أداة التجديد للضمير الإنساني، بكل دلالاتها الأخلاقية والدينية، ثانيا الوجود السياسي يتمركز حول ثلاثية فلسفية هي السلطة، الحب والحكمة، ثالثا الدولة المثالية هي تلك المدينة التي يمكن أن توصف بأنها جمهورية،يسيطر فيها مبدأ النوعية على جميع عناصر الوجود الاجتماعي،فهو على حد تعبير الأستاذة عطيات أبو السعود من أوائل المناهضين لفلسفة أرسطو، وللعلم المدرسي.. الذي ساد الفكر الأوروبي في العصر الوسيط، كما أخذ بالنظام التراتبي للكون والموجودات الذي كان سائدا في العصور الوسطى..[٣٨].

ويمكن القول أن العوامل الكامنة وراء كتابة "مدينة الشمس" هي العوامل السياسيّة إذ أن معاناته وشعوره بالاستلاب، وغياب حق الحرية في المجتمع السياسي أو المدني، كانت من وراء التفكير في الكتاب الذي كان مشروع إصلاح سياسي، كما أن انتقاده لأرسطو جعل من فعله جريمة لا تغتفر في عرف الكنيسة آنذاك، فاتهم من خلالها بالزندقة والهرطقة، كما أنه شارك في المؤامرة لطرد المحتلين الأسبان، أما العوامل الدينية فهي إيمانه واعتقاده القوي في الخوارق والتنجيم الذي هو نوع معرفي غير مقبول من طرف المؤسسات الدينية لحد الساعة،كما أن التأثر بالمفكر أو المنجّم نوستراداموس ١٥٦٦/١٥٠٣ يبدو جليًّا في عقيدته وفي تصوراته السياسيّة في كتاب مدينة الشمس وما يمكننا قوله أن الاعتقاد بأفكار حرة تجاوزية للواقع السائد تشكل مشكلة فالمعاناة الفكرية والوجدانية التي يعيشها المبدع الحر في عصر الظلامية، لا يمكن إدراكها بنفس التجربة التي كان يعايشها صاحبها.

٤. الايتوبيا المدنية:

المشروع الذي تتبناه اليوتوبيات التقنية هو الرقي، والعمل على رفع المستوى الإنساني، فرديا وجماعيا، وعليه كانت المشاريع اليوتوبية المدنية نموذجاً رئيسياً في المشروع الطوباوي، إذ نلاحظ التقاطع بينها في المسألة، والفرق بينها يكمن في قول البعض بأولوية التغيير المدني في مشاريعهم السياسية والفلسفية، وما يميّز الايتوبيا الاجتماعية أو المدنية بشكل عام الاعتقاد بأن مصدر الفساد المدني كامن في الغلط الفكري، وفي سيادة الأهواء على ملكة العقل، فالانحراف الفكري مرجع الادارة السيئة، والمجانبة لقيم الانسانية، فكهف الحياة المعاشة بكل حيثياته لايستطيع الارتقاء الى رواق الحكمة الفلسفية المتعالية، فالأتيوبيات المدنية تقدِّم حلولا خارج التاريخ الانساني، ومستقلا كلية عن تاريخ الانسانية، لأن التاريخ هو تاريخ أخطاء، وهذا ما نلمس مثيلا له عند الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار، ولكن الإسقاط الذي قدمه باشلار كان الحقل العلمي، أمّا الطوباويون فكانت الحياة المدنية فضاء لهذه الأخطاء، ولذا نلحظ

٣٨- عطيات أبو السعود، الامل واليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ، ص:٣٨٦.

داخل التصور الطوباوي تخيل أمكنة متخيلة جزر أبكار، ونائية لم يلمسها الانسان بيده، ولا بفكره، كما ارتبطت التصورات الطوباوية بلحظات الانحطاط، والابتعاد عن القيم داخل الحضارات، فكلما انتاب التفكك قيما جديدة وعجزت قيم جديدة ناشئة عن السيادة، مثلت المدينة الفاضلة لمخيلة الناس، مجموعات كانوا أم أفرادا.

ايتوبيا افلاطون:

النظام النموذجي في الفلسفة الأفلاطونية هو النظام السوفوقراطي، النظام القائم على سيادة العقل والحكمة، والنظام المطلق الذي لا يخضع فيه الحاكم لغير منطق الفلسفة والحكمة، فالعبقرية السياسيّة وليدة الحكمة وهي أعلى من القانون.. "فحكومة العقلاء والفلاسفة فضلا عن سلطتها المطلقة والفردية. يجب أن تكون ذات سلطان كلي وشامل تهيمن على جزئيات وعموميات حياة الإنسان."[٣٩]

من الملاحظات التي نرغب في تقديمها هو أن أفلاطون كان مثالا للواقعية والموضوعية وحجتنا في ذلك نستهلها بتحليل مصادر الفكر الأفلاطوني، فأول المعطيات أنه قام بدراسة تشخيصية وتحليلية للدساتير "دراسة دستورية" ولأنظمة الحكم "دراسة سياسيّة"، والكتاب الثامن من الجمهورية يقر بواقعية المرجعية السياسيّة التي اعتمد عليها أفلاطون "فالنظم.. هي حكومة كريت، واسبرطة التي أجمع الناس على امتداحها، والثانية الحكومة الاوليغاركية، والتي هي ملأى بالمساوئ؛ والثالثة الديمقراطية، والرابعة هي الاستبداد، والحكومات الصغرى.. يمكن اعتبارها داخلة في سلك هذه الأربع كحلقات صغرى ...)[٤٠]، ويعتقد بعض الباحثين أن النظام الاجتماعي الذي قدّمه أفلاطون له أصول تاريخية[٤١].. فالديانة الهندية التي تقسّم الناس إلى أربع طبقات: طبقة الكهنة الذين خلقوا من رأس براهما، وطبقة الحراس والجنود الذين خلقوا من ذراعيه، وطبقة الحرفيين الذين خلقوا من ساقيه، وطبقة الأرقاء من قدميه،تقترب بعض الشيء من التقسيم الأفلاطوني، كما يظهر البعد العملي عند أفلاطون في تأسيسه للأكاديمية الذي تولى مهمة تربية الفلاسفة وتخريج الحكام منها،فلم يكن كما يعتقد البعض رجلا حالما بل فيلسوفا بحق ونتركه يعبر عن نفسه" والآن ألا توافقني على أن خطة دولتنا ودستورنا ليس محض أوهام وأنه إذا كان تحقيقها صعبا فهو ممكن؟)[٤٢].

تقوم العدالة في نظر أفلاطون في قيام المجتمع النموذجي، والذي يبنى على أساس الطبقية والتفاوت الاجتماعي، لأن النظرة الموضوعية والمنصفة تقرّ بالطبقية أو بالتراتبية داخل المجتمع فالاختلاف مسألة طبيعية لا ينكرها عاقل، وتصنيف أهل الحكمة والعقل مع عامة الناس خطر على العامة وليس على الحكماء، فتقديمهم مسألة ضرورية للصالح العام، فحاجة العامة إلى العلماء أحوج من حاجة العلماء للعامة، فالإنصاف يقتضي التفاوت، فالغاية من التفاوت هو الإتقان في الأداء الوظيفي، فهذه المدينة النموذج تقوم على مبدأ هو أن لكل شخص وظيفة واحدة، والجنود هم صناع حرية المدينة، أما الفلاسفة فهم صناع الفضيلة العامة كلها فالمواطنة "هي حرفة من نوع آخر، ولأن مكان الحرفة أو الفن ليس في الجسم..)[٤٣].

والتناظر القائم بين الدولة والفرد قائم في تصنيف الفئات الاجتماعية إلى ثلاث، فإذا كانت النفس البشرية تتركب من ثلاث عناصر العقل والشهوة والغضب والتي تقوم على نظرية

٣٩-طعيمة الجرف، المدينة الفاضلة بين المثالية والواقعية في الفلسفة اليونانية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨، ص:٧٦ (د،ط)

٤٠- أفلاطون، جمهورية أفلاطون، ترجمة حنا خباز، دار القلم، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٥ ص:٢٣٦

٤١- محمد سيد احمد المسير، المجتمع المثالي في الفكر الإسلامي، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ص:١٤٨ (د.ت)

٤٢- أفلاطون، جمهورية أفلاطون، مرجع سابق ص:١٥٥

٤٣- ليو ستراوس، تاريخ الفلسفة السياسية، ص:٧٠

أفلاطون في المعرفة التي تصنف إلى نوع خاص بالإحساس وهو يقابل "القوة الشهوية في النفس"، وآخر خاص بالتصور الصادق وهو يقابل النفس الغضبية، وثالث خاص بالعلم "القوة العاقلة "(٤٤)

والدولة تتركب أيضا من هذه الطبقات الثلاث طبقة الحكام الحكماء، طبقة الجند، طبقة العامة، وهذا التقسيم كما قلنا سابقا لا ينطلق من رؤية فوقية يحتقر فيها أفلاطون عامة الناس "طبقة المنتجين من زراع ورعاة وصناع" بل ينطلق من مبدأ تقسيم العمل بين أفرادها، فكل طبقة من هذه الطبقات ينبغي أن تؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل متحلّية بفضيلتها، فالدولة تشبه الجسد، فكل عضو مكلف بأداء وظيفة ما، والتكامل الوظيفي يقتضي أداء المهام بإتقان، ولذا لا ينبغي تدخل طبقة في صلاحيات أخرى لأن فساد الدولة يصبح حتمياً ولازماً "إذ من الخطر الوبيل على الدولة أن يتبادل النجار والحذاء حرفتيهما أو أن يتبادلاأدواتهما وأجورهما أو أن يصر شخص واحد على القيام بالحرفتين معا).

القصد الأفلاطوني لم يكن تبريرا للتفاوت الطبقي بل كان محاولة لتوزيع الكفاءات، والمهام داخل الدولة على أساس العدالة، فالعدالة هي أداء كل مواطن للواجب الذي يتناسب مع طبيعته ونجد نفس الموقف عند الأستاذ مصطفى النشار إذ يقول: "أعتقد أن أفلاطون لم يقصد وضع نظام طبقي متحجر كما قال نقّاده بقدر ما كان يحاول بناء دولته المثالية على أساس اقتصادي سليم متوازن يقوم على تبادل المنافع بين طبقات الدولة وأفرادها بحيث يحل هذا التبادل للمنافع محل الفردية الأنانية التي يريد كل فرد في إطارها أن يقوم بعمل كل شيء دون أن يتخصّص في شيء بعينه فيتقنه)(٤٥).

ايتوبيا توماس مور:

ولد السير توماس مور في لندن في السادس أو السابع من فبراير ١٤٧٨.. وكان أبوه جون مور قاضيا في المحكمة العليا، ودخل جامعة أكسفورد، وهو في الرابعة عشرة، حيث أتقن اللاتينية.. ثم درس القانون في لندن وتوطدت بينه وبين ارازمس Érasme عالم الإنسانيات الشهير الذي زار انجلترا، حيث ألقى محاضرات في لندن عن كتاب أوغسطين "مدينة الله"، وربما كانت البذور الأولى لما أودعه بعد ذلك من أفكار في كتابه "يوتوبيا"..) (٤٦)

وكان توماس مور محاميا بارزا،وعضوا في نقابة المحامين بلندن، وأستاذ حقوق، وعضو برلمان، وسفير شرّفه الملك هنري الثامن بأن أغدق عليه أعلى حظوة حين جعله في عام ١٥٢٩ رئيسا لقضاة إنجلترا، وذلك قبل أن ينتهي به الأمر لأن يقطع رأسه في عام ١٥٣٥ كما عرف بإخلاصه وتقواه، والتزامه بالقيم الأخلاقية.

يبدو لنا أن السعادة هي المطلب الخفي في كتاب يوتوبيا، والمشروع السياسي المثالي الذي عنون به كتابه، إذ نلحظ من العنوان ذلك، إذ يتألف من ثلاث جمل: الأولى السياسة المثلى للدولة، ووصف يوتوبيا، الثانية: حديث روفائيل هيتلوداي، الثالثة كما يرويه توماس مور مواطن، ورئيس أمن المدينة الشهيرة لندن الجملة الأولى تحدّد الغاية الأخلاقية من الدولة، فهي أداة ووسيلة لتحقيق وتجسيد القيم الأخلاقية، فالمثالي هو "المنسوب الى المثال، ويطلق على صورة الشيء الكاملة، أو على ما يحقق هذه الصورة تحقيقا تاما ..(٤٧)" أما الجملة الثانية فهي جملة تؤدي دور الوسيط بين المطلب والطالب، "ورافاييل هيتلوداي ترادف باليونانية ماهر في الهذر(٤٨).

٤٤- عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، المرجع نفسه ص:١٧٩.

٤٥- مصطفى النشار تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٠ ص:٢٦٩ (د.ط)

٤٦-عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة ج٢ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١ ١٩٨٤ ص:٤٨٣

٤٧-جميل صليبا، المعجم الفلسفي الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢ ص:٣٣٦ (د.ط)

٤٨- ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الرابع، المجلد السادس، ترجمة، عبدالحميد يونس، دار الجيل، بيروت، ص:١٠٦ (د.ط.ت)

والعبارة تبعا للترجمة: "حديث رافاييل هيتلوداي" فهي ترمز للأسلوب المستخدم في التعبير عن الغاية وهو الحكاية في صيغة الحوار أولا، وبصيغة السرد في الكتاب الثاني، فالحديث هو الخطاب والاسم كما يقول ول ديورانت معناه المهارة، والقدرة على الصناعة اللفظية، أما الجملة الثالثة – كما يرويه توماس مور المواطن، فتقديم مور لصفة واسم المواطن، قبل رئيس امن دائرة لندن يفيد البعد المواطني الذي كان يملكه مور، فهو فعلا نموذج المواطن الصالح، وبالتالي فإن القيم التي يقيم عليها المواطنة هي قيم المجتمع اليوتوبي الذي عاصمته امورات Amaurate فالمواطن الفاضل لا يملك إلا أن يتصور مجتمع "أفضل ومثالي" عبر الكلام، وإذا كانت المواطنة الحقيقية تتجسد في المشاركة السياسيّة، والحق في صنع القرار وعزل الحاكم إذا انحرف عن المسار المنوط به من قبل الناخبين، فإن هذه الدلالة واضحة وبينة في كتاب يوتوبيا لتوماس مور في عدة مواطن من الكتاب، ومنها: "ويشغل الحاكم منصبه طوال الحياة، ما لم يعزل إن أتهّم بالميل للطغيان، أما الرؤساء الأول فينتخبون سنوياً ولكنهم لا يستبدلون بغيرهم إلا لسبب قوي...[٤٩].

يملك الحاكم في مدينة "مور" القدرة والصلاحية في البقاء على السلطة مدى الحياة، فمدّة الحكم غير محدّدة دستوريا، نظرا لعدم أهميتها، فليس المهم أن يبقى الحاكم مدة أطول أو مدة أقصر، المهم الالتزام بالقيم الأخلاقية، وتجسيدها بين أفراد الشعب، والسعي الى الرقّي والارتقاء ؛والشعب يملك عبر ممثّليه الصلاحية في عزل الحاكم، وهذه القيمة تتصدّر السلّم القيمي لمبدأ المواطنة، فالطغيان أو الاستبداد كاف لعزله واستبداله، واللطيف في حديث مور أن الميل إلى الاستبداد كاف للعزل، ولا ينتظر الشعب ممارسة الطغيان من قبل الحاكم، كذلك اتهام مواطن من الجزيرة للحاكم أيضا كاف لعزله، وأعتقد أن مضمون هذه العبارة كاف للتدليل على تضمن الكتاب لفكرة وقيمة المواطنة، ومن بين اللحاظ السياسيّة، والأخلاقية التي تضمنها الكتاب أيضا المشاركة في القرار، والتسيير عبر الانتخاب، والنص التالي يكشف عن هذه القيمة: "تختار كل ثلاثين أسرة سنويا ممثلا أو رئيسا لها، كان يدعى بلغتهم القديمة سيفوجرانت، أما في اللغة الحديثة فيدعى فيلارك، ويقام على كل عشرة من الفيلارك والأسر التابعة لهم شخص كان يدعى قديما ترانيبور، أما الآن فيسمى بروتوفيلارك أو الرئيس الأول، وتنتخب الهيئة المؤلفة من الرؤساء أو السيفوجرانت، ويبلغ عددها مائتي شخص، بعد أن تقسم على اختيار الرجل الذي تراه أفضل المرشحين، وأكثرهم نفعا، بطريق الاقتراع السري، حاكما، على أن يكون أحد أربعة يرشحهم الشعب، بحيث يختار واحد من كل من الأحياء الأربعة للمدينة ليرشح للمجلس.)، ويبدو أن المشاركة للمواطنين في المسائل السياسيّة تجري سنويا، ولتحقيق العدالة بين سائر المواطنين تختار كل ثلاثين أسرة ممثلا عنه، حتى يساهم الجميع في القرار السياسي عبر الانتخاب والاختيار القائم على العدالة والأخلاقية، وآلية الانتخاب أو التمثيل تأخذ ترتيبات معقدة حتى تصل إلى الحاكم الأول، والمعيار الذي يقوم عليه اختيار الممثلين هو الفضيلة "بعد أن تقسم على اختيار الرجل الذي تراه أفضل المرشحين وأكثرهم نفعا)، فالأخلاق والالتزام بالقيم هو عنوان الممارسة السياسيّة، والبت في قضايا عامة دون علم الممثلين جريمة لا تغتفر: "أمّا مناقشة الأمور المتصّلة بالصالح العام خارج مجلس الشعب فيعدّ جريمة من الدرجة الأولى"، فالسلطة والسيادة ليست ملكا للحاكم بل ملكا للشعب، وهي ما سيصطلح عليه لاحقا جان جاك روسو بالإرادة العامة.

٤٩- توماس مور، المصدر نفسه، ص:١٣١

المراجع

الكتب المقدسة:

١. القرآن الكريم

٢.العهد الجديد، جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى القديم، بيروت، ١٩٦٤.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

١. ابو نصر الفارابي، كتاب الملة، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩١.

٢. أبو نصر الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تعليق ألبير نصري نادر. دار المشرق. الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٨.

٣. توماس مور، يوتوبيا، ترجمة انجيل بطرس سمعان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ط: ٢، ١٩٨٧.

المراجع:

١. الرومي جلال الدين، مثنوي، ترجمة عبدالسلام كفافي الجزء الأول، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الاولى ١٩٦٦.

٢. بول ريكور، محاضرات في الايدولوجيا واليوتوبيا، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٢.

٣. بازي "محمد"، العنوان في الثقافة العربية، منشورات الاختلاف، الجزائر الطبعة الاولى ٢٠١٢.

٤. توفيق الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة،الطبعة الأولى ١٩٩١.

٥. تييري باكو، طوبيا والطوباويون، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفارابي بيروت، ط.١-٢٠٠٨

٦. جورج سباين، تطور الفكر السياسي،الجزء الثاني، ترجمة: حسن جلال العروسي، دار المعارف، مصر ١٩٦٩.

٧. حبيب الشاروني، فلسفة فرنسيس بيكون، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء (المغرب) ط١/١٩٨١.

٨. شريعتي "علي" الامة والامامة، ترجمة ابوعلي، مؤسسة الكتاب الثقافية (د.ط.ت)

٩. عبداللطيف عبادة، اجتماعية المعرفة الفلسفية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤ (د.ط)

عطيات أبو السعود، الامل واليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ.

١٠. فاروق سعد، مع الفارابي والمدن الفاضلة، دار الشروق، القاهرة،الطبعة الأولى ١٩٨٢.

١١. ليو شتراوس، تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول، ترجمة محمود سيد احمد المجلس الأعلى للثقافة مصر، الطبعة الأولى ٢٠٠٥.

١٢. نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، الطبعة الخامسة ١٩٩٧.

١٣. هربارت ماركيوز، نحو ثورة جديدة، ترجمة عبداللطيف شرارة، دار العودة، لبنان ١٩٧١ (د.ط)

المعاجم والموسوعات:

١. البستاني "عبدالله" البستان معجم لغوي، الجزء الثاني المطبعة الأميركانية، بيروت،١٩٣٠،(د،ط)

٢. صليبا، "جميل" المعجم الفلسفي الجزء الثاني، دارالكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢ (د.ط)

٣. عبدالمنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠.

٤. مجموعة من المؤلفين، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣ (د.ط)

٥. عبده الحلو، معجم المصطلحات الفلسفية، المركز التربوي للبحوث والإنماء، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٤.

المجلات:

١. فصول – المجلد السابع العددان الثالث والرابع سبتمبر ١٩٨٧.

٢. العرب والفكر العالمي – العددان ١٩/٢٠ سنة ١٩٩٢.

المراجع بالفرنسية:

1. Bertrand vergely, le dico de la philosophie, ED, Milan Toulouse, 1998.
2. Erasme, Eloge de la folie, trd: marie delcourt, flammarion, paris, 1987.
3. P. foulquié Dictionnaire de la langue philosophique p.u.f.3eme édition, paris, 1978.
4. Saint augustin; la cite de dieu. Édition du seuil, Paris, 1994.

سِمات
Semat

كورا Chora :
المفهوم والامتدادات

أ . د. فاطمة عبد الله الوهيبي
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن
الرياض – السعودية
Rfeef2010@gmail.com

Received: 10 Jan 2014,
Revised: 22 Feb. 2014, Accepted: 23 Mar. 2014
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

كورا Chora:
المفهوم والامتدادات

أ . د. فاطمة عبد الله الوهيبي
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن
الرياض – السعودية

الملخّص

أتحدث في هذا البحث عن (كورا) بوصفها مفهومًا فلسفيًا استعمله أفلاطون لتحديد أنواع الوجود وكيفية تكونه. وأكشف عن ملامح الأنثوي والأمومي في هذا المفهوم وعلاقته بجانب من النصوص الهرمسية والأساطير. وأنتقل بعد ذلك للكشف عن امتداداته لدى جوليا كريستفا وجاك دريدا؛ حيث استفادت جوليا من (كورا) في الخلفية التي أسست عليها مصطلحي السيميائي والرمزي وما يرتبط بهما من تحليلات ونتائج. أما دريدا ففي مناقشاته لأفلاطون استفاد من (كورا) أثناء حديثه عن قضية التسمية والأثر والحضور والغياب والاختلاف.

الكلمات المفتاحية: كورا، الوعاء، الرحم، أمومي، الأثر، الاختلاف، الدمغة.

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

Chora:
The Concept and Extensions

Fatema A. Al-Wohaibi
Princess Nora bint Abdulrahman University
Saudi Arabia

Abstract

In this research, I shall talk about (Chora), as it is a philosophical concept used by Plato to determine the types of existence and how it came to be. I also uncover all the features of the feminine and the maternal in this concept along with its relationship to Hermesian texts and myths. Then, I reveal the concept's extensions through Julia Kristeva and Jacques Derrida; Julia benefited from (Chora) in the background upon which she established the terms; semiotic and symbolic, and their associated analyzes and results. Derrida benefited from (Chora) during his discussions of Plato; while speaking about the issue of naming, trace, presence and absence as well as difference.

Keywords: chora, receptacle, matrix, maternal, trace, difference, imprint.

كورا Chora:
المفهوم والامتدادات

أ . د. فاطمة عبد الله الوهيبي
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن
الرياض – السعودية

المفهوم والامتدادات، استخدم أفلاطون (Plato) كلمة كورا (Chor)[١] في محاورة طيماوس (Timaeus) وهي المحاورة التي انشغل فيها بتحديد الوجود وأقسام تشكله وتكونه. وبعد أن فصّل القول في نوعي الوجود: النموذج الأصل والنسخة المقلدة عنه [٢] انصرف إلى الحديث عن نوع ثالث يصعب تعليله، حيث إنه – كما قال –غير مرئي بوضوح ويسميه الوعاء يقول: "إننا أوجدنا سابقًا صنفين من التقسيم، ويجب أن نكشف النقاب عن نوع ثالث، هذا النوع الذي يكون تعليله صعبًا ويُرى بضعف. إن النوع الجديد من الوجود هو الوعاء، وهو متعهد كل الولادات إلى حد ما."[٣]

وهذا الوعاء ذو طابع أمومي كما نرى، ولكنه متوار وسري؛ يقول عنه أيضًا: "لهذا السبب فإن الأم ووعاء[٤] كل الأشياء المخلوقة والمرئية، وفي أية طريقة محسوسة، لا تكون لتدعى التراب أو الهواء أو النار أو الماء، بل يكون هذا الوعاء مخلوقًا غير مرئي ولا شكل له، يتلقى كل الأشياء، ويشارك بطريقة سرية ما فيما يتعلق بالمدرك بالعقل، ويكون المخلوق الأكثر إبهامًا."[٥]

١- ومن الواضح أن كورا / الوعاء لها سمات محددة على رأسها :

١- هي مؤنث أمومي.

٢- هي وعاء لكل الأشياء المخلوقة والمرئية.

٣- لا يمكن نسبتها إلى أي العناصر الأربعة منفردًا.

٤-هي وعاء غير مرئي.

٥- هي وعاء لا شكل له، لكنه يتلقى كل الأشياء.

١- ويترجم أحيانًا خورا إذا كان رسمها khora كما في الفرنسية. تحاشيت استعمال كلمة مصطلح للإشارة إلى كورا، واستعملت كلمة مفهوم بدلاً من مصطلح، وذلك لأن كورا ليست شائعة أو معروفة حتى لكثير من المختصين، كما أن اتساع دائرتها المفهومية أيضًا، كما سيرى القارئ، دعاني للحذر من تسميتها مصطلحًا. وأسميها مفهومًا بناء على ما استقر عليه الباحثون في علم المصطلح، وتحديدهم لمعنى كلمة مفهوم، إذ حسب توصية المنظمة الدولية للتقييس رقم ١٠٨٧يأتي تعريف المفهوم على النحو التالي: «المفهوم أي وحدة فكرية يعبر عنها بمصطلح أو رمز حرفي أو أي رمز آخر.» ينظر: علي القاسمي، مقالة علم المصطلح بين علم المنطق وعلم اللغة مجلة اللسان العربي تصدر في الرباط عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عدد ٠٣ يوليو ١٩٨٨م) ص ٨٨ وذلك استنادًا إلى: (Geneve: ISO، ١٩٦٩) oSI، vocabulary of Terminology ثم عدل على هذا التعريف المصطلحيون الكنديون ليصبح التعريف كما يلي: « المفهوم تمثيل فكري لشيء ما (محسوس أو مجرد) أو لصنف من الأشياء لها سمات مشتركة، ويعبر عنها بمصطلح أو رمز. «ينظر المصدر السابق ص ٨٨.

٢- ذلك مرتبط بنظرية أفلاطون المعرفية الإبستمولوجية القائمة على فكرة الأصل والمثل المتعالية.

٣- أفلاطون، المحاورات الكاملة. نقلها إلى العربية شوقي داوود تمراز (بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع ط ١٩٩٤م) المجلد الخامس ص ٣٨٩.

٤- وتبدو الواو قبل كلمة وعاء في الجملة (فإن الأم ووعاء...) وكأنها زائدة ومع أنها هكذا في النص الأصلي لأفلاطون إلا أن ترجمة الجملة بالعربية هكذا قد تربك القارىء، والمقصود أنه بوصفها الأم وبوصفها الوعاء أيضًا.

٥ -المحاورات الكاملة، محاورة طيماوس مج ٥/ ص ٣٩٠. وقد أعاد أفلاطون الفكرة نفسها في موضع آخر من المحاورة فقال: « فإن الأم والوعاء لكل الأشياء المخلوقة... » مج ٥ / ص ٠٤٤

٦- هي وعاء له طابع سري خاصة فيما يتعلق بالمدرك العقلي.

٧- هي أكثر المخلوقات إبهامًا.

٢- كورا في أسطورة الأم الكبرى والنصوص الهرمسية:

أ- أسطورة الأم الكبرى:

هل يمكن أن يكون قد تسرب إلى أفلاطون شيء من الأساطير وهو يفكر في كورا؟ ألسنا نلمح في حديثه عن كورا الذي سماه المخلوق الأكثر إبهامًا، والذي جعله مخلوقًا غير مرئي ولا شكل له ويتلقى كل الأشياء، وهو متعهد لكل الولادات - ألسنا نلمح في كل هذه السمات وخاصة في سمتها الوعائية الأمومية ظلاً من أسطورة الأم الكبرى؟

سأركز مبدئيًا على الجانب الوعائي الأمومي الموجد تحديدًا من جملة سمات كورا المذكورة آنفًا. (وليلاحظ القارىء أن الرحم الأمومي الذي يحوي الجنين هو وعاء أو جرة أيضًا). وأود لفت الانتباه إلى أهمية مفهوم الاحتواء الكامن في مقولة الوعاء الذي يتخذ في الغالب صورة الجرة التي تحوي الماء[٦]، ولفت الانتباه كذلك إلى ما لهذه العلاقة الوجودية بين الماء من أهمية قائمة على الارتباط الوجودي المتبادل بين الوعاء والماء في الأسطورة.

تراوح أسطورة التكوين البابلية في الإشارة إلى الأم الأولى بين تسميتها بـ (تعامة) أو (هابور). وهابور هذه - وفقًا للأسطورة - هي خالقة الأشياء جميعًا. وتقدمها الأسطورة على أنها المياه البدئية، وأصل الكون، وأم الجيل الأول من الآلهة [٧].

والمياه البدئية هي الحالة الأولى التي تتداخل فيها الظلمة والمياه والسكون، وهي "الهيولى البدئية والمدار الأعظم الذي رمزت إليه ميثولوجيا الشعوب بشكل الحية التي تعض على ذيلها... دلالة الاكتمال الأزلي للمطلق قبل أن ينحل إلى مظاهر الكون المختلفة."[٨] وهي كذلك في الميثولوجيا المصرية والسومرية والفينيقية والتوراتية ، فكلها تناولت هذه الدائرة أو البيضة الكونية [٩].

وقد لا يكون ملمح تأثر أفلاطون بروح الأم الكبرى شديد الوضوح في طرحه الفلسفي لـ(كورا الأم الوعاء) لكن لننظر إلى بعض التشابهات مع الفكر الغنوصي الهرمسي فيما يلي:

ب- التماثل والتشابه مع الفكر الغنوصي الهرمسي:

تجد في الهرمسية رؤية إلى العالم بوصفه مكانًا لحضور الأشياء، ويمثل العالم رحمًا للأشياء، "وهكذا، فإن العالم مع أنه لم يولد، له في نفسه مبدأ كل ولادة، طالما أنه يقدم لكل شيء رحمًا خاصًا لحمله. إنه إذن مجموع صفات ومادة قابلة لأن تُخلق، رغم أنها لم تزل غير مخلوقة ... أما فيما يخص النفس فإنها تحرك أو تحكم كل الكائنات الخاصة في العالم، حسب الطبيعة التي عينها الله لها. والمادة، هيلية[١٠]، أو العالم، هي الوعاء، والحركة والتكرار لكل الأشياء التي يحكمها الله موزعًا في كل واحدة منها ما هو ضروري له، ومالئًا إياها بروح حسب خصائصها. شكل العالم هو شكل كرة مجوفة، لها في ذاتها سبب صنعتها أو شكلها الحركي بكليته، وإذا أريد باختيار نقطة من مساحتها رؤية العمق، لا يمكن رؤية شيء. إنها لا تبدو مرئية إلا بالأشكال

٦- لي بحث تحت الإعداد عن الجرة وتمثلاتها في الأسطورة والأدب.

٧ - فراس السواح، لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة (دمشق ، دار المنارة ط. الرابعة ١٩٩١م) ص ٣٥- ٩٥١

٨- المصدر السابق ص ١٥٨

٩ - المصدر السابق ص ١٥٧ - ١٧٤

١٠- المقصود بـ هيليه (الهيولى) يؤكد ذلك جملة وردت في أول هذا النص الهرمسي تقول: « كان يوجد الله وهايليه وذلك ما كان الإغريق يسميه المادة أو جوهر العالم.» و(الهيولى) في المصطلح الفلسفي لفظ مرادف للمادة «وقد ردّ أرسطو الأشياء إلى مبدأين: الصورة والهيولى. فكل شيء هو جزء من المادة الأولية اكتسب صفات معينة حددت طبيعته ووظيفته وهي صورته. والهيولى لا تكون أبدًا بغير صورة إلا في التحليل العقلي. والصورة لا تكون إلا في هيولى مع بعض الاستثناءات، كالله ، والنفس قبل حلولها في الجسد وبعد مفارقتها له. والهيولى مستعدة أن تكون أي شيء حسب الصورة التي تحل فيها، ويعبر عن هذا بأن الهيولى تكون أي شيء بالقوة، فإذا حلت بها صورة معينة أصبحت شيئًا معينًا بالفعل.» ينظر الموسوعة العربية الميسرة (القاهرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر نسخة طبق الأصل عن ط ١٩٦٥م) مادة هيولى.

الخاصة التي تبدو صورها منقوشة عليها؛ إنها تبدو في مثال مرسوم، لكنها في الواقع غير مرئية دائمًا بذاتها. لهذا فإن المركز، والجزء الأدنى من الكرة، وإن يكن هذا مكانًا يسمى في اليونانية غير مرئي aons، من الرؤية، لأنه لا يمكن رؤية مركز الكرة. كذلك تسمى الأنواع أو المظاهر أفكارًا لأنها هي أشكال اللا مرئي. إن قاع الكرة هذا يسميه الإغريق آديس لأنه غير مرئي."[١١]

ويمكننا أن نلاحظ أن هذا العالم الذي هو مبدأ لكل الولادات، وهو رحم لكل ما يوجد على الرغم من أنه لا شكل له وغير مرئي إلا أنه متضمن لمبدأ الحركة والتكرار والتناوب، وهذا العالم/ الوعاء له شكل لا يمكن رؤيته، ويتخذ شكل كرة مجوفة لا يمكن رؤية مركزها أيضًا، فهي أقرب إلى التصورات منها إلى ملموسية الشكل المرئي. إن هذه الصفات التي يوردها الفكر الهرمسي لهذا العالم/ المكان/ الوعاء تتطابق في عدد من السمات مع ما سماه أفلاطون كورا، لا سيما في مسألة كون الوعاء مكن كل الولادات، وكونه مع ذلك غير مرئي.

جـ - الجرة الإلهية:

إن فكرة الرحم الكوني الماثلة هنا في البعد الأمومي الحاضن لكل الولادات، والذي يمثل له أيضًا بالكرة المجوفة، مهمة، من حيث إن الفكر الهرمسي أيضًا يتحدث في نص آخر عن الجرة الإلهية، في سياق الحديث أيضًا عن الله الصانع، وفي هذا النص نتأمل هذه الكينونة غير المحسوسة وغير المرئية، والتي لا تنتمي لأي من العناصر الأربعة، ومع ذلك فكل الكائنات ناتج من بديع صنعها. يقول هرمس لابنه: "الصانع صنع العالم، ليس بيده، وإنما بكلمته... جسمه غير محسوس ولا مرئي، غير قابل للقياس ولا مبسوط، لا شبيه بأي جسم آخر. فهو ليس لا النار[١٢]، ولا الماء، ولا الهواء، ولا النفس، ولكن كل شيء يأتي منه... والإنسان يرجح على الحيوانات بالإدراك والذكاء.»[١٣]

وهنا يسأل الابن هرمس: لماذا لم يوزع الله الذكاء على الجميع؟ وأين وضع الله الذكاء في الإنسان؟ فيجيبه هرمس: إن الله ملأ به جرة كبيرة، وأمر رسولاً بحملها والمناداة في قلوب البشر قائلاً: "تعمدوا، إذا استطعتم، في الباطية[١٤] أنتم يا من تظنون أنكم ستعودون إلى من أرسلها، أنتم يا من تعلمون لماذا ولدتم." فالذين يستجيبون لهذه الدعوة ويتعمدون في العقل هم الذين يمتلكون الغنوص ويصبحون الملقنين بالعقل، الرجال الكاملين. والذين لا يفهمونه يملكون الإدراك لكن ليس العقل... ذلك هو يا تات[١٥] علم العقل: تأمل الأشياء الإلهية وإدراك الله. ذلك هو حسن صنيع الجرة الإلهية."[١٦]

وتتجلى هنا في هذا النص فكرة أساسية من أفكار الغنوصية، وهي فكرة الله الصانع. وتعد الفكرة الأساسية الثانية في الفكر الغنوصي؛ إذ "لما كانت الروح والمادة هما (المبدآن) الأعليان، فإن فكرة الخلق غير واردة في مذهب الغنوصيين. ولهذا لا يقولون بخالق للعالم، بل بصانع للعالم، وهي فكرة نجدها عند أفلاطون."[١٧]

ولعل الشذرات المتفرقة التي أمكن للقارئ

١١- هرمس المثلث العظمة أو النبي إدريس.ترجمة كاملة للكتب الهرمسية مع دراسة عن أصل هذه الكتب. ترجمة عبدالهادي عباس. دراسة لويس مينار (دمشق، دار الحصاد ط. الأولى ١٩٩٨م) ص ١٥٨-١٥٩-١٦٠.

١٢- هكذا ورد النص المترجم وسلامة الجملة تقتضي: ليس النار ولا الماء.

١٣- المصدر السابق ص ٩٨.

١٤ - الباطية هي الجرة.

١٥ - هكذا يرد اسم ابن هرمس في هذه الترجمة، والنطق السائد في كثير من المصادر (طوط) بدلاً من (تات) فطوط هو الإله المصري القديم Thot، وقد ظهر اسم طوط في الميثولوجيا المصرية القديمة بوصفه الكاتب للإله أوزيريس، ومن تلك الوظيفة بوصفه كاتبًا نُسب إليه اختراع الكتابة. وفي الأدبيات العربية الهرمسية فقد قُدم هرمس، لا ابنه، بوصفه النبي إدريس الذي ينسب إليه علم الكتابة والصنعة.

١٦- المصدر السابق ص ٩٨ - ٩٩.

١٧- عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط الأولى ١٩٨٤م) والكلمة بين معقوفتين من تصويبي.

ملاحظتها حول عدد من التماثلات بين سمات العالم والجرة الإلهية عند الغنوصيين وبين سمات كورا لافتة وبقوة، فإذا ما وضعنا في الاعتبار وجود فكرة الصانع أيضًا عند أفلاطون أمكننا أيضًا أن ننتبه إلى بعض أفكار أفلاطون في نظريته الإبستمولوجية ونظريته في عالم المثل والتصورات وخاصة مجازه المشهور الكهف وشمس الوجود وحدود الإدراك البشري في معرفة علاقة الوقائع والحقائق - أقول إذا لاحظنا ذلك أمكننا أن نجد تشابهًا أيضًا بينها وبين فكرة الجرة الإلهية والعقل وفكرة الكهف وشمس الوجود، وهذا ما يوثق أيضًا في النهاية علاقة هذه الشذرات بحديثه عن كورا الذي جاء في سياق تصنيفاته الفلسفية لأنواع الوجود؛ وأحسب أننا هنا أمام ترسب واضح لكورا بين أفلاطون والهرمسية، وتحديدًا في فكرة العالم/الوعاء في الغنوصية.

٣- كورا عند جوليا كريستيفا (Juli Kristeva):

ويبدو مما تقدم أن الوعاء الأمومي/كورا عند أفلاطون نوع من الوجود ذو علاقة وثيقة بالتصورات، ولكن قراء أفلاطون المحدثين يطورون فكرة التصورات هذه، فجوليا كريستيفا تجعل الوعاء الأمومي أثناء دراستها اللغوية المستفيدة من التحليل النفسي أمرًا سابقًا ومتعاليًا. فهي ترى أن اللغة بالنسبة إلى المحلل هي المكان، مكان المتكلم الوحيد، بوصفها نظامًا من الإشارات يبدو مزيدًا كل مرة، ويضم كل التجارب النفسية ومختلف أنواع الإدراكات.[١٨]

وترى أن كورا Chora "وعاء أمومي سابق للاسم وللأب، حتى إن اسم المقطع الصوتي لا يناسبه[١٩]. فلنصحح إذًا موقف سيغال: ليس إلى شيء وإنما إلى ما قبل تصور الشيء، ليس إلى الأنا وإنما إلى لا - أيضًا - الأنا، يرجع من خلال هذا النسق السيميوتيكى المؤلف من دال صافٍ مكثف للمؤثر ومواز لانتقال إلى الفعل. عندما يحصل مثل هذا الاستعمال لما قبل تصور الشيء وللغة التي تناسبه عند الفرد الناضج لا يتعلق الأمر عندها بنكوص بسيط، وإنما بإعادة تنظيم خاص للعلاقة الثلاثية التي تساند موقف الفرد ووظيفة الرمز على حد سواء."[٢٠]

وتستفيد جوليا كريستيفا في دراستها اللغوية من مصطلح كورا في الخلفية التي تؤسس عليها لمصطلحيها: السيميائي والرمزي[٢١]. فالرمزي عند كريستيفا مشدود إلى علاقة الدال بالمدلول. وبما أن علاقة الدال بالمدلول اعتباطية كما يقرر علماء اللغة وعلى رأسهم سوسير، الذي اقترح فكرة التحفيز ليتسنى ضم كلمة ما إلى تصور ما أو بعبارة أخرى ضم دال ما إلى مدلول معين. ولكن جوليا تقترح "أن الجانب التحفيزي لهذه العلاقة يكمن في الدوافع اللاشعورية والعمليات الأولية (الإزاحة والتكثيف) التي تعضد الترابط الاعتباطي لدال معين بمدلول معين. وهذا الاقتران للعمليات الأولية (الإزاحة) و(التكثيف) بـ (الكناية) و(الاستعارة) قد بينه جاك لاكان في قراءته لياكوبسون وفرويد... فكل من الاستعارة والكناية تعملان في اللغة بوصفهما عنصرين رمزيين. وبناء على ذلك، فإن ارتباط الدال بالمدلول بطريقة من هذه الطرائق ينزع الأهلية عن التفسير الاعتباطي الصرف. كما أنهما يظهران الجوانب التركيبية والدلالية من اللغة، تلك الجوانب التي تدعوها كرستيفا الرمزي."[٢٢]

والرمزي عند جوليا هو نتاج للعلاقة بالآخر،

١٨- جوليا كريستيفا، اسم موت أو حياة، ترجمة صبحي البستاني، مجلة الفكر العربي المعاصر عدد ٣٢ سنة ١٩٨٣م، ص ٧٢.

١٩- المصدر السابق ص ٧٣.

٢٠ - المصدر السابق ص ٧٣.

٢١ - ينظر الفصل المعنون بالسيميائي والرمزي من كتاب جوليا كريستيفا (ثورة اللغة الشعرية)، ينظر:

Julia Kristeva, Revolution in poetic language, Translated by Margaret Waller (New York: Columbia .University Press, 1984) P.24 -41

وخاصة القسم رقم ٢ من الفصل المشار إليه أعلاه والمعنون بـ:

The Semiotic Chora ordering the Drives .

٢٢- ج. هيو سلفرمان، نصيات ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح (بيروت، المركز الثقافي العربي ط. الأولى ٢٠٠٢م) ص ٢٥٧.

وهو نتاج اجتماعي يبرز الكيفية التي يرتبط بها الناس ببعضهم كما تحددها الاختلافات البيولوجية والوراثية.[٢٣]

والرمزي يعمل وفق بنى الخطاب المحددة والمقننة سلفًا. ولذلك فالرمزي شكل تعنتي وشكل سلطوي ويعمل وفق قانون الأب.[٢٤] "فقبل أن يظهر قانون الأب كانت الأم تضطلع بالوظيفة القضيبية، وعندما أصبحت الوظيفة وظيفة رمزية فقدت الأم منزلتها الخاصة. أما قبل ذلك" فإن جسدها المفعم، ذلك الوعاء الضامن للحاجات، يشغل مكان جميع المظاهر والمسرات النرجسية، ومن ثم الخيالية... كانت هي القضيب "ومع ذلك فمع اكتشاف الإخصاء فقدت الأم منزلتها الخاصة: بمعنى أن الذات جُردت من اعتمادها على الأم،" وإدراك هذا الافتقار جعل من الوظيفة القضيبية وظيفة رمزية. "[٢٥]

وتفصّل جوليا كريستيفا هذه الفروقات بين السيميائي والرمزي مستندة إلى العمليات الأولية القائمة على قانوني الإزاحة والتكثيف. وحسب جوليا فإن كورا تكونها الدوافع وكوابحها، وهي مفعمة بحركتها الذاتية المنظمة. [٢٦]

وهذا المفهوم أساسي لدى جوليا فهو يميز بوضوح "كلاً غير محدد تشكله الدوافع وكوابحها بحركية ذاتية زاخرة بالحركة قدر ما هي منظمة؛ إن هذه الكورا تعين ما هو متحرك، وتعين تعبيرًا مشروطًا تشكله الحركات وكوابحها المتناوبة. والكورا بوصفها تعبيرات متقطعة (على نحو إيقاعي منتظم) تحظى بأهمية تفوق أهمية احتمالية المطابقة والمكانية والزمانية. وعلاوة على ذلك تقرر كرستيفا أن الكورا هي نمط تدليلي لم تلفظ فيه العلامة اللسانية بعد، بوصفها غيابًا للموضوع، وبوصفها تمييزًا بين الحقيقي والرمزي. ومن هنا فإن الكورا أهم من العلاقة القائمة بين الدال والمدلول، أو أنها تعضد هذه العلاقة. ومع الكورا السيميائية لا يكون الاختلاف والهوية حاضرين بعد... إن إحدى سمات العلامة هي أن المدلول لا يعين ضرورة موضوعًا حاضرًا. والكورا تسبق هذا المعنى القائل إن الموضوع غائب. فالتمييز ليس جزءًا من الوظيفة السيميائية، لأن ذلك يمثل مسألة رمزية بنفسه. "[٢٧]

وبناء على ما تفصله جوليا من فروقات بين السيميائي والرمزي يتضح أنه مثلما أن العلامة والتركيب سمتان للوظيفة الرمزية فإن سمات "التدفق والطاقة والموسيقية والأمومة والقابلية على التلقي -باختصار اللغة الشعرية - يمكن أن تُنسب إلى السيميائي."[٢٨] ومع ذلك ترى جوليا أنه على الرغم من أن أفلاطون عرّف كورا عبر فكرة الوعاء وعبر فكرة الأمومية المغذية والعاضدة إلا أنها ترى أنها تفتقد السمة الألوهية أو القدسية[٢٩]

وقد لاحظ سلفرمان في مقارنته بين جوليا وميرلوبونتي أن ثمة تطابقًا بين تفسير كريستيفا للعلاقات القائمة بين السيميائي والرمزي وبين ما يسميه ميرلوبونتي اللغة المحضة واللغة غير المباشرة. فاللغة غير المباشرة هي المسؤولة عن النمط الخلاق والثوري، وهو ما يطابق الجانب السيميائي عند جوليا، الذي لا يؤطره القانون الأبوي الرمزي ولا مجموعة القواعد الدلالية السائدة في اللغة المقررة سلفًا. وهذا ما يربط الشعرية والإبداعية عمومًا بالجانب الأنثوي الأمومي[٣٠]. وكل هذا -كما نرى - ذو علاقة وثيقة بمفهوم كورا الوعاء الأمومي الشامل الخلاق.

٤- كورا عند دريدا (Jacques Derrida):

اهتم دريدا بمحاورة تيماوس (طيماوس) التي

23- Julia Kristeva , Revolution in poetic language, p29

٢٤- سلفرمان، نصيات، ص ٢٥٧-٢٥٨

٢٥ - المصدر السابق ص ٢٥٨

26- Julia Kristeva, Revolution in poetic language, p 25.

٢٧- سلفرمان، نصيات، ص ٢٥٩.

٢٨ - المصدر السابق ٢٦٠

29- Julia Kristeva, Revolution in poetic language, p 26

٣٠- سلفرمان، نصيات ص ٠٦٢-١٦٢

ورد فيها الحديث عن (كورا) في سياق اهتمامه بأفلاطون ومناوراته وتحليلاته التفكيكية لأفكاره في عدد من كتبه ، خاصة في كتاب (صيدلية أفلاطون) وفي كتابه (في الاسم). ففي (صيدلية أفلاطون) نثر عددًا من الأفكار الواردة في هذه المحاورة في تضاعيف فصول هذا الكتاب. أما في كتاب (في الاسم) المقسم إلى ثلاثة أجزاء فقد خص دريدا كورا بقسم مهم من هذا الكتاب[٣١]، حيث تناول كورا من زاوية مقارباته وقراءاته المعروفة للفكر الغربي عامة، ولأفلاطون خاصة، ويظهر في هذا القسم من كتابه جملة أفكاره ومصطلحاته ومفاهيمه المتشابكة مع بعضها وعلاقتها بمسألة التسمية.[٣٢]

وقد أشار دريدا إلى موقع (كورا) في دراساته بوصفها جزءًا مهمًا في جهازه المعرفي لمناقشة قضية الاسم. يقول: "تعتبر كل محاولة من المحاولات الثلاث: انفعالات، ما عدا الاسم، خورا Khora مؤلفًا مستقلاً. وقد تقرأ كما هي. فإذا ارتئي أن تنشر معًا فإن سلسلة من ذات القيمة thematique توحدها بالرغم من الأصل المتميز لكل منها، إنها تؤلف ضربًا من قضية حول الاسم تتكون من ثلاثة فصول أو ثلاثة أزمنة، ثلاثة تصورات أيضًا."[٣٣]

هكذا يضع دريدا كورا ضمن سلسلة اهتماماته، فكورا تدور في فلك قضية الاسم. ولكنها – أي كورا – عنده – كما سنرى – ذات علاقة بفكرة الأثر الأصلي. يقول "خورا: محاولة هي الأقدم من المحاولات الثلاث، والمختلف مع ذلك من حيث الـ (طبيعة) أو (حامل الأثر) الأصلي، حسب تصورنا. إنها تحدد فقط مأزقًا مثاليًا للنص الأفلاطوني."[٣٤]

وقد ركز دريدا كثيرًا من اهتمامه على محاورة تيماوس من بين نتاج أفلاطون، وركز في تيماوس تحديدًا على الجزء المتعلق بـ (كورا). ويظهر ذلك بشكل جلي في كتابه (صيدلية أفلاطون)؛ إذ يجد القارىء في مواضع مختلفة من هذا الكتاب تتبعًا للأفكار التي أثارها أفلاطون حول (كورا). كما يجد حفرًا عميقًا حول تلك الأفكار والأسئلة التي تثيرها (كورا) لدى دريدا. فمثلاً في القسم الأخير من (صيدلية أفلاطون) المعنون بـ (اللعب من الفارماكون إلى الحرف، ومن العماء إلى الزيادة) يبدأ دريدا هذا الفصل بمفردة اللعب ، ويلعب هو بدوره لعبه التقويضي المعروف حفرًا وتعميقًا فلسفيًا حولها. ثم يتوقف عند قضية الصوت والكتابة والحروف، وأثناء ذلك يتناول (كورا) ويستفيد من ملامحها التي حددها أفلاطون (تلك التي فصلت الحديث عنها في مطلع بحثي هذا) ليصل إلى استنتاجاته التفكيكية حول الصوت والكتابة والاختلاف والنقش والأثر. يقول: «لا شك أن محاورة "الطيماوس" قد نبهتنا من قبل: ففي جميع هذه المقارنات مع الكتابة ينبغي ألا نحمل الحروف على معناها الحرفي... ومع ذلك فنلاحظ في "الطيماوس" لا فحسب أن اللعب الرياضي (من الرياضيات) للتناسبات يحيل إلى لوغوس قادر على الاستغناء عن الصوت... بل أكثر

31- Jacques Derrida, On The Name, Translated by David Wood, John P. Leavey, JR. , and Ian Mcleod (Stanford University press, Stanford Califoornia, 1995)

يخصص دريدا القسم الأخير من كتابه (On The Name) لـ (كورا) ينظر الصفحات من ٩٨ إلى ٧٢١

٣٢- ينظر كتاب دريدا (On The Name في الاسم) الصفحات ما بين ٩٨ - ٧٢١.

٣٣- دريدا، انفعالات، ترجمة عزيز توما (سوريا، دار الحوار ط.الأولى ٢٠٠٥م) ص ١٣. وقد كانت المقالات الثلاث (في الاسم) و(كورا) و(انفعالات) مفرقة، وحين صدرت المقالات الثلاث في فرنسا في مجلد واحد بعنوان (في الاسم) حرر دريدا بضع صفحات وُضعت في مقدمة الكتاب، وهي الصفحات التي ترجم عزيز توما جزءًا منها وصدر بها ترجمته لـ (انفعالات) فبدت وكأنها مقدمة دريدا لكتاب انفعالات، وكان يحسن الإشارة إلى ذلك.

٣٤- المصدر السابق ص ٣٣ ويواصل المترجم ترجمته للجملة بقوله:

«... للنص الأفلاطوني. وتيمة Timee يسمي خورا Khora موضع، مكان، فسحة..» وقد استخدم المترجم كلمة تيمة وبجوارها المفردة الأجنبية Timee، وهو خطأ واضح؛ لأنك إذا رجعت لنص دريدا تجده يقول:

The Timaeus names Khora (locality, place» ,spacing,site)، this ... "فحسب نص دريدا لا وجود لتيمة وإنما هناك تيماوس إشارة إلى محاورة تيماوس، ينظر كتاب دريدا

, Jacques Derrida, on the Name , p. xv

من هذا أن إدخال الآخر والمزيج... وإشكالية العلة التائهة والموضع. النوع الثالث غير القابل للاختزال . وازدواجية النماذج... هذا كله يلزم... بتحديد أصل العالم كأثر trace، أي انخطاط الصور والرسوم الخيالية في البوتقة، في الوعاء. بوتقة ووعاء غير قائمين في أي مكان، وليسا ممنوحين أبدًا في صورة الحضور أو في حضور الصورة، إذ كلاهما يفترضان من قبل الانتقاش في الأم."[٣٥]

هاهو دريدا يلتقط أبرز ملامح (كورا) لدى أفلاطون كورا/البوتقة أو الوعاء، وهي كذلك الرحم (matrix) والأم، الرحم الحاضن للمادة المنتقشة فيه. و دريدا في هذا المقطع المقتبس يلعب على دلالة المفردة (matrix) كونها تعني أيضًا القالب المطبعي، وهو ما يربط فكر أفلاطون في هذه المسألة بتيمة الأم.[٣٦]

ويمضي دريدا أبعد وأعمق في استلال الدلالات من فكرة الانتقاش أو الطبع والدمغ، فيركز نظره على فكرة المحل أو الموضع في هذا الرحم الحاوي. يقول: "إن "الموضع" و"المحل"، ما تظهر الأشياء "فيه" وتتجلى "فوقه"، "الوعاء"، "البوتقة"، "الأم"، "الحاضنة"، هذه الصيغ جميعًا إنما تدفع إلى التفكير بالفضاء حاوي الأشياء. لكن في موضع أبعد يتعلق الأمر بـ "حامل الدمغات" بـ "السواغ"، بالمادة المنزوعة الرائحة كليًا التي يثبت فيها العطارون الروائح ، بالذهب الذي يقدر (الجوهرجي)[٣٧] أن ينقش فوقه وفرة الصور المتباينة."[٣٨]

ومع أن دريدا معروف بتتبعه وتقويضه للفكر الغربي والفلسفة الغربية عودًا بها إلى أفلاطون، الذي تعرض له بعدد من المساءلات والتقويضات، إلا أننا سنلاحظ هنا احتفاظ كورا بكثير من السمات التي سكها لها أفلاطون. بل سنلاحظ كيف طورها دريدا وربطها بما سماه فيما بعد الأثر/الأصل، كما يمكن أن نلحظ علاقتها أيضًا بفكرة السر[٣٩]، وبمصطلح الاختلاف وغيره، إذ تتشابك المفاهيم لدى دريدا ويصعب فصلها.

يقول دريدا إن كورا هي مكان أو موقع الشيء الذي يفسح المجال لشيء للتخلق والوجود، كورا هو "هذا الـ شيء الذي لا يفسح المجال لشيء دون أن يمنح شيئًا على الاطلاق: لا النماذج المثالية للأشياء ولا النسخ التي يقيدها فيها خالق مثابر والفكرة واضحة أمام أنظاره. خورا، فاقد الحس، منيع إنما بلا قسوة، صعب الخضوع للبلاغة، خورا تثبط الهمة. هي نفسها التي تحطم جهود القناعة وكل من يحاول الاعتقاد أو يرغب في الحمل على الاعتقاد، على سبيل المثال، بالأشكال أو بالمجازات أو إغواءات الخطاب. خورا محاولة ليست محسوسة ولا واضحة، لا استعارة ولا تعيينًا حرفيًا، لا هذا ولا ذاك، بل هذا وذاك. تشارك ولا تشارك في مفردات مزدوجة. إنها أيضًا (حاملة) أو (حاضنة) تشبه، مع ذلك، اسمًا علمًا متميزًا، واسمًا شخصيًا، كذلك اسمًا أموميًا وبكريًا (ولهذا السبب نقول هنا دائمًا خورا وليس الخورا كما تقال دائمًا) بينما، مع ذلك، تحدد بصمت اللقب الذي نطلقه عليها، وتصمد فيما وراء كل شكل أمومي وأنثوي أو لاهوتي، وسط تجربة يتعلق الأمر فيها بالتفكير. هكذا وفي أعماق الصمت يبدو أن خورا تستدعي اسمها، غير أنها في الحقيقة لقب لاسم شخصي، ربما لم تعد حتى نمطًا أو حفظًا للكلام. ليست أكثر من هذا العمق بلا قعر الذي

---

٣٥ – دريدا ، صيدلية أفلاطون. ترجمة كاظم جهاد (تونس ، دار الجنوب ، سنة ١٩٩٨م) ص ٠٢١–١٢١ والكلمات في النص المقتبس المؤكد عليها باللون الأسود الغامق من عمل دريدا نفسه.

٣٦ – يقول كاظم جهاد: "تدل matrice على المصهر والبوتقة، وعلى الرحم أيضًا فهي تعني كل ما هو حاو للشيء أو متضمن عليه. ومن هنا تطلق المفردة أيضًا على القوالب المطبعية للكتاب، إنها نسخته الأم. وما يلمح إليه دريدا هو بالطبع اندراج فكر أفلاطون في موضوعة الأم وبنيتها.» ينظر حاشية ج ص ١٢١ من (صيدلية أفلاطون).

٣٧ – وردت في النص (الجوهري) وقد عدلتها لأن السياق يقتضي جوهرجي (لذي يعمل بالمجوهرات) لأن ترجمتها بالجوهري ملبسة في سياق فلسفي يصرف الفهم إلى فكرة الجوهر مقابل العرض.

٣٨ – صيدلية أفلاطون ، ص١٢١

٣٩ – يقول دريدا: «والسر سيبقى متواريًا صامتًا محصنًا مثل الـ kora» انفعالات ص ٠٧

يبشر بالليل بعد نهار. في حالة خورا، ليس هناك تيولوجيا [٤٠] سلبية ولا فكر الخير، ولا فكر الأوحد أو فكر الله خارج الكائن. هذه التجربة الخارقة واللا متوقعة هي أيضًا من بين باقي الأبعاد سياسية، وهي تكشف النقاب عن فكر من غير أن (تعد) [٤١] به، وعن محنة السياسي. عندما تظاهر سقراط بتوجيه الخطاب إلى الآخرين والتحدث عن السياسة... وهو يمضي... بدأ يشبه خورا بنفسه، ويمثلها في خيال سيمضي دائمًا بصورة خفية، ويتصورها، هي، خورا غير قابلة للمس والإدراك والحدوث، قريبة جدًا بعيدة للغاية، وهي التي تتلقى كل شيء في ما وراء التبادل وفي ما وراء العطية. إنها مثل الواجب والضرورة بلا دَيْن [٤٢]." [٤٣]

فهاهي (كورا) ما تزال تحتفظ بكونها الشيء المهيء لإمكانية الوجود، وبكونها موضعًا لتشكل الأشياء، وبكونها غير محسوسة ولا مرئية أو واضحة، وبكونها أمومية وحاضنة، ومرتبطة بكل ما يتعلق بالمدرك العقلي مثلما وصفها أفلاطون. وهي هنا حسب إضافات دريدا ذات ارتباط بقضية الاسم، ولكنها أيضًا ليست أكثر من العمق الذي بلا نهاية. إنها متأرجحة، فهي ليست هذا ولا ذاك ، وهي الاثنان معًا في الوقت نفسه. وهي لذلك ترتبط بما يسميه في مواضع أخرى بالأثر الأصل. وإشارته في مطلع الحديث إلى ذلك تكاد تكون الأوضح في هذا الربط، وإن كان حديثه عن الأثر/الأصل في مواضع أخرى لا يكشف فيه دريدا عن هذه العلاقة، لكن معظم حديثه عن سمات الأثر الأصل يتلاقى في مفاصل مهمة مع السمات المذكورة أعلاه لـ (كورا).

والأثر/الأصل Trace عند دريدا هو أدنى أو أصغر مستويات البنية الضرورية لإيجاد أي اختلاف؛ إذ المعرفة تقوم كنتيجة للعلاقة البنيوية التي تنجم عن التضاد. والأثر الأصل هو الإمكانية التكوينية للتلاعب المتبادل بين أطراف التضاد. وهو الإمكانية التكوينية لما يعرف عادة بالاختلاف [٤٤]. والأثر الأصل هو الذي يحدد عمومية هذا الاختلاف "أي هو الاسم الذي يحدد عمومية الإمكانية الضرورية لكل اسم. ولما كان الأثر (في الفكر الميتافيزيقي) يعدّ ثانويًا ومشتقًا من أصل ومضادًا له؛ أي مضاد لمفهوم الحضور الكامل، فإن الأثر الذي يسمي الاختلاف بينهما كان لابد أن يكون اختلافًا قارًا في هوية (الحضور الكامل)... ولهذا سيكون الأثر الأصل قد شق مسبقًا لحظة الحضور الكامل." [٤٥]

ولكن الغياب هو التمثيل الوحيد الممكن للأثر الأصل؛ لأنه يتكون نتيجة لإمكانية واحتمالية هذا الانمحاء، إذ الأثر كما يقول دريدا: "ممحاة الذاتية وممحاة حضور المرء ذاته، ويتكون... بالاعتماد على تهديد أو وجل اختفائه المؤكد لا محالة." [٤٦] وهذا الغياب الحتمي للأثر يقابل الغياب ولا مرئية الوجود المسمى كورا كما نلحظ.

وبما أن الأثر الأصل هو أدنى متطلبات البنية لأي اختلاف فهو أول المحددات بين المفردات والمصطلحات أو الكينونات، وهكذا "فإن الأثر الأصل يوحد في آن حركة مزدوجة: حركة المرجعية... وحركة انحراف الذات وتحويلتها عبر الآخر. إن الأثر لابد أن يفهم على أنه ثنية الانعكاس أو الانكسار الراجع وغير القابل للاختزال... ومع عمومية بنية المرجعية هذه تصبح هذه البنية هي

٤٠ – (Theology) علم اللاهوت أو البحث في الإلهيات «واللفظ اليوناني ثيولوجيا معناه الأصلي الاشتقاقي القول في الله. لكن معناه تطور كثيرًا «ينظر عبدالرحمن بدوي، ملحق موسوعة الفلسفة (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط. الأولى ١٩٩٦م) مادة الإلهيات.

٤١ – وردت في النص المترجم هكذا: «من غير أن توعد به «وقد عدلتها في النص أعلاه بين معقوفتين.

٤٢– كلمة دين بين معقوفتين مضبوطة بالشكل من عملي، وكان المأمول أن يضبطها المترجم فهي من الدين إذ هي في نص دريدا (debt).

٤٣– دريدا، انفعالات ص ٣٣-٤٣.

٤٤– ينظر ما كتبه د.ميجان الرويلي في مادة الأثر/ الأصل ضمن كتابه المشترك مع د. البازعي دليل الناقد الأدبي (بيروت، المركز الثقافي العربي ط. الثالثة سنة ٢٠٠٢م) ص ٢١١

٤٥– المصدر السابق ص ٣١١

٤٦– المصدر السابق ص ٣١١

الحد الذي يمنع تطابق المرجع مع ما يرجع إليه تطابقًا تمامًا. وبهذه القدرة كبنية مرجعية عامة يكون الأثر الأصل هو بنية امتصاص الذات لعلامة الآخر... ولذلك لا يمكن أن يكون هناك أثر أصل نقي."[٤٧]

وكورا في الأساس هي ذلك النوع من الوجود الذي يمنح شيئًا شكله وفرصته للوجود حتى على حدود الاسم، ثم لا يكون هو نفسه ظاهرًا أو واضحًا. وهو أشبه بهذه البنية/الثنية التي تمنح شيئًا فرصته للانكشاف ثم تختفي.

لقد التقط دريدا من أفلاطون فكرة الدمغة أو حامل الدمغات التي مرت قبل قليل في اقتباس سابق[٤٨]، وفيها اتكاء واضح على تحديد أفلاطون لإحدى ملامح كورا إذ يجعل لها خاصية تشبه خاصية المادة المنزوعة الرائحة التي يثبت بها العطارون الرائحة، الفكرة الكامنة هنا ترتكز على هذه الإمكانية لتهيئة الفرصة للوجود أو الظهور. يقول أفلاطون في محاورة طيماوس وهو يوغل في وصفه لكورا: "دعني أثير الأسئلة الآن بشأن النار والعناصر الأخرى... وبما أن هذه العناصر تتغير على الدوام فلا يمكن لأي شخص أن يؤكد أن أيًّا منها يكون شيئًا واحدًا بدلاً من أن يكون الشيء الآخر. ويلزمنا أن نفهم الطبائع الثلاث لعملية التغيير... إن الطبيعة الأولى هي تلك التي تكون في عملية النشوء؛ والثانية تلك التي يأخذ النشوء فيها مكانه، والثالثة هي التي ينشأ منها الشيء الذي يكون صورة أو شبهًا ومنتجًا بشكل طبيعي. ويمكننا أن نشبه المبدأ المستقبل بالأم، والأصل والمصدر بالأب، والطبيعة المتوسطة بالطفل. ويمكننا أن نقول أبعد من ذلك، وهو أن النسخة إذا كانت لتتخذ كل شكل من أشكال التنوع ، فإن المادة التي تصاغ منها النسخة لن تكون معدة كما ينبغي حينئذ، ما لم تكن عديمة الصورة، ومتحررة من الأثر القوي لأي شكل من تلك الأشكال التي ستتلقاه من الخارج بعدئذ. لأن المادة إذا كانت مثل أي شكل من الأشكال الحادثة على نحو غير متوقع ، حينئذ كلما انطبعت على سطحها أي من الطبيعة المضادة أو المتباينة بشكل كلي فإنها ستقبل الانطباع بشكل سيء. وهكذا يجب أن يفعل صانعو العطورات وأولئك الراغبون بطبع الأشكال على المواد الطرية.لهذا السبب فإن الأم ووعاء كل الأشياء المخلوقة والمرئية وفي أي طريقة محسوسة لا تكون لتدعى التراب أو الهواء أو النار أو الماء بل يكون هذا الوعاء مخلوقًا غير مرئيّ ولا شكل له، يتلقى كل الأشياء، ويشارك بطريقة سرية ما فيما يتعلق بالمدرك بالعقل، ويكون المخلوق الأكثر إبهامًا."[٤٩]

وحيث إن طبيعة المفاهيم التي يطرحها دريدا يصعب فصلها عن بعضها، ولابد من فهمها متصاحبة مع بعضها، فإن فكرة الأثر ذات علاقة وثيقة بمصطلحه الآخر (الاختلاف). إن الأثر هو ما "يجعل حركة الدلالة ممكنة بشرط أن يرتبط كل حاضر أو ظاهر بشيء آخر غير نفسه، ويحتفظ بعلامة عنصر ماض تميز حضوره، كما يهيئ نفسه بتجويف (أي أثر) محدد يكون علامة علاقته بعنصر المستقبل. "[٥٠]

ومن خلال هذا التجويف (لاحظ الترسب لصورة الوعاء الخاص بكورا) يمكن لمفهوم الاختلاف كما يطرحه دريدا أن يكون محددًا لهذه العلاقة الزمنية بين الماضي والحاضر والمستقبل، إذ العلاقة ذاتها أساس الزمن ومفهومه.[٥١]

كما أن ترسبًا آخر غير سمة التجويف والوعائية يظهر في مفهوم الاختلاف هو سمة الإنتاجية والمكانية؛ فالاختلاف بوصفه حركة إنتاج لأشياء مختلفة تتصف بكونها حركة التمايز والتباين يرتبط بمفهوم المكانية، إذ "إنتاج هذا التمايز والاختلاف ينجم عن (بينية) مكانية تقابلية بين المتضادات... ولهذا فإن الاختلاف... يتحدد على أنه توزيع مكاني... إن المكانية، مثلها مثل مفاهيم

٤٧- المصدر السابق ص ٤١١-٥١١

٤٨- ينظر ص ١١ من هذا البحث.

٤٩- أفلاطون، المحاورات الكاملة، محاورة طيماوس مج ٥/ ٩٨٣-٠٩٣.

٥٠- دليل الناقد الأدبي مادة الاختلاف ص ٧١١

٥١- المصدر السابق ص ٧١١

التقويض الأخرى (الأثر الأصل مثلاً) لا هي زمان ولا هي مكان، لكنها هي التي تعطي المكان إمكانية وجوده. فالاختلاف... افتراض مسبق."[٥٢]

هكذا نلمح الترسب البعيد لمفهوم كورا، حيث الـ (كورا) إمكانية الوجود التي لا ترى ولا تمس، ولكنها حاضرة بوصفها افتراضًا مسبقًا له سمة المكانية وسمته الخالقه وسمته المرتبطة بالمدرك العقلي وبالتسمية. ومن هنا يمكن أن نلمح أن الاختلاف عند دريدا "هو إمكانية تسمية وإدراك الاختلاف العيني (الطبيعي)، والاختلاف هو دائمًا سابق على أي وجود طبيعي وخارج عنه، حتى يتسنى للوجود/الكينونة إمكانية الإدراك والمعرفة... ولهذا فإن الاختلاف أقدم وأسبق من الوجود. وهنا يكاد مفهوم الاختلاف يتطابق مع مفهوم الأثر الأصل."[٥٣]

٥٢- المصدر السابق ص ٧١١

٥٣- المصدر السابق ص ٩١١

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

١- أفلاطون، المحاورات الكاملة، نقلها إلى العربية شوقي داوود تمراز (بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع ط. ١٩٩٤م)

٢- بدوي، عبد الرحمن:

أ - موسوعة الفلسفة (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط الأولى ١٩٨٤م).

ب - ملحق موسوعة الفلسفة (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط الأولى ١٩٩٦م)

٣- دريدا:

أ - صيدلية أفلاطون، ترجمة كاظم جهاد (تونس، دار الجنوب، سنة ١٩٩٨م)

ب - انفعالات، ترجمة عزيز توما (سوريا، دار الحوار ط.الأولى ٢٠٠٥م)

٤- الرويلي، ميجان و سعد البازعي دليل الناقد الأدبي (بيروت، المركز الثقافي العربي ط.الثالثة سنة ٢٠٠٢م)

٥- سلفرمان، ج. هيو نصيات ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح (بيروت، المركز الثقافي العربي ط. الأولى ٢٠٠٢م) .

٦- السواح، فراس لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة (دمشق، دار المنارة ط. الرابعة ١٩٩٠م).

٧- مينار، لويس هرمس المثلث العظمة أو النبي إدريس، ترجمة كاملة للكتب الهرمسية مع دراسة عن أصل هذه الكتب. ترجمة عبدالهادي عباس. دراسة لويس مينار (دمشق، دار الحصاد. ط. الأولى ١٩٩٨م).

٨- الموسوعة العربية الميسرة (القاهرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر نسخة طبق الأصل عن ط ١٩٦٥م).

المراجع الأجنبية:

1- Derrida, Jacques on the Name, Translated by David Wood, John P. Leavey, JR., and Ian Mcleod (Stanford University press, Stanford Califoornia, 1995).

2- Kristeva, Julia

3- Revolution in poetic language, Translated by Margaret Waller (New York: Columbia University Press, 1984)

الدوريات:

كريستيفا، جوليا "اسم موت أو حياة" ترجمة صبحي البستاني (مجلة الفكر العربي المعاصر عدد ٢٣ سنة ١٩٨٣م).

العلم والسيميائية
–مقاربات نظرية–

أ. د. جمال الدين قوعيش

جامعة الجزائر – الجزائر

djamel_gouaich@yahoo.fr

Received: 10 Jan 2014,
Revised: 22 Feb. 2014, Accepted: 23 Mar. 2014
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

العلم والسيميائية
-مقاربات نظرية-

أ. د. جمال الدين ڤوعيش
جامعة الجزائر - الجزائر

الملخّص

ينطلق التصور العلمي من قاعدة سيميائية، تؤكد بأنّ الكون يمكن وصفه على أنّه مجموعة مجرات من العلامات العامة التي تتفرع إلى علامات خصوصية، فلا يمكن أن نزعم بأنّنا قادرون على الإحاطة بنشاطها وفيضها الدلالي. كما أنّ طبيعة الاتصال الملازمة لحقيقة الكون واتّساقه، مرتبط بالمنطلقات الابستيمولوجية التي تسمح بتجزئة الوقائع تبعا لانتظامها داخل النسق العام، الذي هو في تطور مستمر على نحو متأزم. لذلك، لا بد من التمييز بين أنماط الوجود، وذلك بإسقاط الخبرات الناتجة عن تطور العلم في اتّجاه الجماعة بوصفها تجربة تكون في خدمة العنصر البشري، على أساس أنّ العلم هو شكل من أشكال الحياة التي لا يمكن تمثلها وإدراكها إلاّ بواسطة النسق السيميائي.

الكلمات المفتاحية: السيميائية، العلم،المعرفة، النسق، الابستيمولوجيا، العلامة الكون، المدلول.

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

Science and sémiotique

Gouaich Djamel Eddine
University of Algiers – Algiers

Abstract

The scientific conception proceeds from a semiotic basis stating that the Universe can be described as a set of galaxies of general signs which branch out in particular ones, so we cannot pretend that we are able to determine its activities and its semantic flux. As a result, the nature of communication related to the Universe and its coherence has a connection with the epistemological foundations which allow to divide the realities according to their coherence within the general system, which evolves continuously in a crisis of state. For this reason, there must be a distinction between the types of existence by projecting the experiences resulting from the development of science towards the community, as an experience which will serve humanity seeing that science is a form of life that we cannot assimilate or perceive only through a semiotic system.

Keywords: semiotics, science, knowledge, layout epistemology, sign, universe, signified.

العلم والسيميائية
-مقاربات نظرية-

أ. د. جمال الدين ڤوعيش
جامعة الجزائر - الجزائر

مقدمة:

إنّ ما اعتبر منذ مدة طويلة من الزمن قضايا علمية مبرهنة، كان دائما وفيما يظهر في حاجة لازمة إلى "قضايا معتقدة" مهما تمّ الاصطلاح على نحو هذا الاعتقاد بالإيمان، أو اليقين الأول أو الحدس أو الحس المشترك. لذلك، كان الأمر متوقفا على بيان المكوّن الاعتقادي في الممارسة العلمية. ويمكن الاقتراح على هذا الجانب بنظام الاعتقاد (أي النظام الذي تؤلفه مجموعة قضايا متعددة). يكتسي هذا المفهوم أهمية منهاجية خاصة، ذلك أنّه عند طرح مسألة تعقل شيء ما، فنحن نطرح بالنتيجة المسألة السوسيومعرفية والسوسيولوجية لصيغة التعقل التي يتم من خلالها تفكّر شيء. والسؤال الذي ستعنى السيميائية بـ"الاجابة" عنه كان: كيف يمكن للممارسة العلمية أن تكون اختبارية ووضعية ورياضية، وأن تستبطن، في الوقت ذاته، أيّ مضمون اعتقادي، أيّ بعد لامعرفي ولامنطقي؟

إنّ كل ممارسة علمية تنغلق عند التدقيق على نظامين اثنين، على أنّهما يوجدان دائما في درجة عالية من التداخل، إنّهما نظام التعقل ونظام الاعتقاد. والقصد من تداخلهما الإشارة إلى ممازجة العنصر الاعتقادي لكل فعل معرفي، إذ أنّه في الفعل المعرفي، فإنّ المعرفة ليست هي كلية الفعل، حيث أنّ الموضوع المعلوم وإذا لم يكن تجريدا خالصا، فإنّ المعلوم لن يكون موازنة فعلية للواقع. بهذا المعنى سيكون للفظة "اعتقاد" أن يشار بها إلى كل ما هو في أقوالنا المتيقنة عمليا أو حتى تأمليا مقتضيا، لدى الذات كما لدى الموضوع، عنصرا مكمّلا ولصيقا بالتمثل العقلي، ولكنّ العنصر الاعتقادي ليس مفروزا على نحو مباشر. فإنّ تمسّكنا بنوع من الحقائق العلمية "الخالصة"؛ أي تلك المجردة عن كل صلة اعتقادية والمنزهة عن كل أبعاد "ما فوق العلمية"، فنحن لن نكون بعيدين عن دائرة الوهم أو التجاوز.

إنّ المعرفة العلمية تضمر دائما وأبدا ملحقات العاطفة والهدف، وقد تكون حقائق العلم ليس كذلك، لأنّها محاطة من كل جانب بقيود غير مكتشفة، كما أنّ استخدامنا للنظريات العلمية يخضع للمفاهيم الميتافيزيقية المبهمة. هذه المعرفة المتناسقة التي تدعى في صلب المفهوم بـ"العلم" تظهر باجتماع نظامين من التجربة يتألف الأول من التمييز المباشر الفوري بين الملاحظات الخاصة، بينما الثاني فهو يتألف من طرائقنا العامة في إدراك الكون.

فالقضية التي سنناقشها بالأساس، أنّه لا يمكن أن يتم أيّ تفكير بمعزل عن العلامات، من منطلق أنّ التفكير عن طريق العلامات جدير باستكشافه عبر الوقائع الخارجية، وأنّ هذه الوقائع هي التي تضفي المشروعية على إدراك الفكر والتعرف إليه، لأنّ ما لا يدرك لا وجود له. ومنه، فالتفكير العلمي وغير العلمي هو ذو طبيعة سيميائية واقعية بالضرورة، بل يعتقد أنّ كل تفكير هو بمثابة علامة، وأنّ الأفكار والقضايا العلمية هي فعلا موضوع بحث سيميوطيقي خالص.

١- ماهية العلم:

إنّ كلمة "**علم**" في "لسان العرب" لابن منظور هي من صفات اللّه عزّ وجل:وهو الخلاّق العليم، وقال:"عالم الغيب والشهادة"، وقال: "علاّم الغيوب" فهو اللّه العالم بما كان وما يكون ولمّا يكن بعد قبل أن يكون، لم يزل عالما ولا يزال عالما بما كان وما يكون، ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء. وعليم، فعيل: من أبنية المبالغة. ويجوز أن يقال للإنسان الذي علّمه اللّه علما من العلوم عليم. والعلم: نقيض الجهل، وعلم علما وعلم هو نفسه، ورجل عالم وعليم من قوم علماء فيهما جميعا (...) والعالمون: أصناف الخلق. والعالم: الخلق كلّه، وقيل: هو ما احتواه بطن الفلك[١]. أمّا العلامة الجوهري فالعلم عنده هو: العلامة والعلم: الجبل (...) وعلم الرجل يعلم علما، إذا صار أعلم، وعلمت الشّيء أعلمه علما: عرفته. وعالمت الرجل فعلمته أعلمه بالضّم:غلبته بالعلم (...) ورجل علاّمة؛ أي عالم جدّا، والهاء للمبالغة، كأنّهم يريدون به داهية[٢]".

وهكذا يصبح العلم عند ابن منظور هو نقيض الجهل، ومن يتميّز به هو الإنسان المفضّل الذي يمتلك أسرار باطن العالم الخفية، والتي يعجز الجاهل عن بلوغها.

وهو عند لالاند: أ- مرادف Savoi (...) ب- بالتوسّع (وبإفراط قليل) ما يوجّه السلوك على نحو مناسب، كما هو حال معرفة نيّرة وصحيحة(...). ج- مهارة تقنية (لا سيما في مادة الرّسم، الموسيقى، نظم الشّعر): معرفة المهنة أو الصنعة. د- مجموعة معارف وأبحاث على درجة كافية من الوحدة والعمومية، ومن شأنها أن تقود البشر الذين يتكرّسون لها إلى استنتاجات متناسقة، لا تنجم عن مواضعات ارتجالية ولا عن أذواق أو اهتمامات فردية تكون مشتركة بينها، بل تنجم عن علاقات موضوعية نكتشفها بالتدرج ونؤكّدها بمناهج تحقّق محددة.

إنّ كلا من النظم التي أتينا على تحديدها هو "علم"؛ وإنّ تعبير "العلم" بصيغة المفرد، (وأحيانا بحرف كبير"La Science") يدل: إمّا جملة العلوم المفهومة على هذا النحو: "تقدّمات العلم الحديث"- وإمّا، بالمجرد، على علم غير محدد، خصوصا من حيث اعتبار سلطانه وقيمته: "أثبت العلم أنّ النجوم هي شموس"- وإمّا، أخيرا على الموقف الفكري المشترك بينها: "لا يعرف العلم في دوره كائنا آخر، واقعا آخر سوى ذلك الذي يتضمّنه في معادلاته وصيغه".

هـ- بنحو أخص، في مقابل "الآداب" (والفلسفة باعتبارها جزءا من "الآداب" وكذلك في مقابل الحقوق والطب: الرياضيات، الفلك، الكيمياء والعلوم الموسومة ب- "العلوم الطبيعية").- إنّ هذا التقابل الذي كرّسه تنظيم الكليات في فرنسا لا يبدو قائما على أسباب يمكن تسويغها نظريا: "إنّ الفصل المستحيل والمؤسف بين الآداب والعلوم لا يعرّض مستقبل الفلسفة للخطر وحسب؛ بل يزيّف أيضا تاريخها ويجعل ماضيها بلا معنى، حيث يعزلها عن التنظيرات العلمية التي تجذّرت فيها على الدوام".

لقد اتّسمت كلمة علم (Scientia في اللاّتينية) طيلة أمد طويل بمعنى قويّ كاد يتلاشى في عصرنا مع تطور "العلوم". فقد استعمل أفلاطون هذه الكلمة بمعان شتّى؛ لكنّه في تصنيفه درجات المعرفة يطلقها على الدرجة الأرفع: فتدل على الفكر النظري، وتدل على المعرفة التامة.

عند أرسطو، يجري استعمال الكلمة بكيفية واسعة؛ فهو يسلّم بتنوّع في العلوم بمعنى قريب في بعض الجوانب من معنى الحديثين، معنى العلوم غير الكاملة كلّها؛ لكنّما العلم بمعناه الحق، ذلك الذي يكون علما على أحسن وجه. يقول أيضا بأنّه لا يكون هنالك علم إلاّ عندما لا نعلم سوى أنّ

١- ابن منظور: لسان العرب المحيط، قدّم له،عبدا لله العلايلي، إعداد وتصنيف: يوسف خيّاط ونديم مرعشلي، المجلّد الثاني،) من الزاي إلى الفاء)، دار لسان العرب، بيروت،١٩٧٠م، ص.ص.: ١٧٨-١٧٨.

٢- الجوهري: الصحاح في اللغة والعلوم، تقديم: عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف: يوسف خياط ونديم مرعشلي، المجلد الثاني،)من الزاي إلى الفاء(، دار لسان العرب، بيروت،١٩٧٤م، ص.: ١٥١.

الأشياء لا يمكنها أن تكون على نحو آخر؛ فالعلم يتعلّق بالضروري، الواجب والأزلي.

وكان المعنى القويّ لكلمة "Scientia" مألوفا في العصر الوسيط، وكان مهيمنا في فلسفة القرن السابع عشر.

في اللغة اللاهوتية، العلم هو اللّفظ الأكثر تداولا للدلالة على معرفة الله للعالم. إنّ هذا التعريف، الوارد غالبا، إنّما يسترجع صيغة رائجة في الفلسفة المدرسية تتعلّق هي في ذاتها بمقطع من الأخلاق. لكن مع كانط، بدأ ما كان يدعوه غوكلينوس يحتل المكانة الأولى. لا ريب أنّ كانط يعتبر دوما العلم حقا Eigenthiche (wissenschaft) ما يكون موضوع يقين واجب؛ لكنّه يعرّف العلم عموما بأنّه: كل مذهب يشكّل منظومة، أي كل مجموعة معارف منظّمة بحسب المبادئ. وإنّ هذا التعريف الأخير هو المأثور اليوم. وحين كرّس سبنسر هذا الفهم، إنّما عارض في صيغة شهيرة؛ المعرفة العامية، مع العلم والفلسفة: فالأولى هي المعرفة الموحّدة والثاني هو المعرفة الموحدة جزئيا؛ والأخيرة هي المعرفة الموحدة كليا. نعرف أنّ الكثيرين من معاصرينا يذهبون إلى أبعد من ذلك وأنّهم لا يرون في العلم السويّ منظومة ملاحظات تسمح بتصنيف الظواهر وتوقعها. من ثمّ، وبقصد تقريظي، يقال على منهج أكيد يمكن الوقوف به؛ ويقال على حقيقة يحكم لها بأنّها وطيدة الأركان، بأدلة صحيحة. -هذا المعنى مبالغ فيه قليلا، لكنّه مألوف جدا في اللّسان المعاصر "[٣].

يتّضح من تعريف لالاند للعلم - ونحن ذكرناه بإسهاب عن قصد-؛ أنّه يشبه النموذج الذي يوجّه سلوك الإنسان بغية اكتساب معرفة دقيقة ومهارة عالية تمكّناه من تخطّي الصعاب، والتحكّم في المعلومات المكتسبة، وبالتالي اكتساب معرفة عقلانية يستطيع بفضلها الولوج في خبايا الكون والطبيعة.

إنّنا نستطيع التمييز بين العلوم إمّا عن طريق مناهجها في العلوم الفرضية-الاستقرائية (الرياضيات) أو في العلوم التجريبية (فيزياء، كيمياء، بيوليجيا)، من الطبيعة، من الحياة، أو من علوم الإنسان (العلوم الإنسانية)، خاصة عند فلاسفة المثالية الألمانية: علم = الفلسفة المنجزة في نظام "[٤].

وفي الحديث عن الفلاسفة المثاليين الألمان، لا مناص من ذكر تعريف هيغل للعلم الذي يعتبره "المعرفة الذهنية للفكر الخالص. ونشاط هذا الفكر هو الذي يحدّد المعرفة، وأيّ عنصر غريب تدحضه هذه المعرفة التي تبلغ بذلك التساوي مع ذاتها. إنّ العلم هو مفهوم قائم بذاته ومبتكر لنفسه "[٥].

يمكن القول بعض عرضنا لكل هذه التعاريف حول مدلول كلمة "علم"، بأنّ غالبية الفلاسفة والمفكرين نظروا إليه على أنّه معرفة "صارمة" و"دقيقة" مستمدّة من الواقع، وقائمة على الملاحظات والتجارب؛ وبالتالي تصبح معرفة "مبرهنة" و"موضوعية"، لا يرقى إليها الشك.

إنّ وجهة النظر هذه، لا زالت شائعة إلى يومنا هذا، رغم أنّ جذورها تعود إلى أفلاطون (Platon) ٤٢٤/٤٢٣-٣٤٨/٣٤٧ ق.م. وأرسطو (Aristote) (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.)، بل إلى أجيال تسبقهما بزمن طويل (ونحن نقصد مساهمات طاليس وفيتاغورث)، لكن "لأفلاطون وأرسطو الفضل الكبير في إيضاح الملامح الرئيسية للعلم، فالعلم يؤكد على ملاحظة الحوادث الخاصة والتعميم الاستنتاجي ويضع الأشياء في تصنيفات واسعة حسب أنماط فعالياتها، وبعبارة أخرى، حسب

٣- أندريه لالاند: الموسوعة الفلسفية، المجلد الثالث؛ R-Z، تعريب: خليل أحمد خليل،تعهده وأشرف عليه حصرا: أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت/باريس،الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص.٩٤٢١ إلى ٦٥٢١.

4- Baraquin Jean-Nöella et Dugué Anne–Baudart: Dictionnaire de philosophie, Jacqueline Laffite-Joël Wilfert, Deuxième édition, Arnand Colin, Paris, (2000), p.: 266.

5- Hegel Georg Wilhelm Friedrich: Propédeutique philosophique, Traduite et présentée par Maurice de gandillac, Éditions Gonthier, Pays Bas, (1971), p.:177.

قوانين الطبيعة التي توضّحها تلك الأشياء"[٦].

ففي كتاب ‹الميتافيزيقا› تحدّث أرسطو بإسهاب عن قانون الجاذبية الأرضية - قبل ظهور نظرية نيوتن بمئات السنين-، وذلك بوصفه للأجسام التي تميل إلى الأسفل، وألسنة اللّهيب التي تصعد إلى الأعلى. كما قام "بتصنيف" مكوّنات الطبيعة المادية، معتمدا على ملاحظاته الاستنتاجية القابلة للتجدّد وذلك حسب تغيّرات مكوّنات الطبيعة نفسها.

إنّ كتابه ‹الميتافيزيقا› هو محاولة جادة لربط العلم بالفلسفة، فحسب اعتقاده "كل واحد يساعد الآخر، فواجب الفلسفة هو التوفيق بين الأفكار مثلما تظهر في الحقائق العلمية، ومهمّتها البحث في التعميمات التي تميّز الوقائع الكاملة للحقائق، والتي لا تكون الحقائق بدونها إلاّ تجريدا. أمّا العلم فدوره فهم الحقيقة الكامنة وراء الظواهر. وعليه، يقوم كل من الفلسفة والعلم بنقد وانتقاد بعضهما البعض؛ فعلى النظام الفلسفي أن يقدّم شرحا للحقائق الملموسة ويقوم العلم بالتجريد من ذلك الشرح. وقد وجدت الكثير من العلوم أسسها في الحقائق الملموسة التي تقدّمها الأنظمة الفلسية".

والابستيمولوجيا بصفتها "معرفة المعرفة" لا تتم إلاّ من خلال المعرفة ذاتها؛ أي من داخل بناءاتها المفهومية وأنساقها النظرية ولغاتها الرمزية، حيث يقول الفرنسي باشلار: هناك بالنسبة لأيّ مفهوم علمي خطأ يتوجب تصويبه، وقبل الشروع في أيّة معرفة موضوعية يتوجب تحليل العقل تحليلا سيكولوجيا، ليس فقط بشكل مجمل، وإنّما كذلك في مستوى كل المفاهيم الخاصة[٧].

فالابستيمولوجيا وفق هذا المنظور، تصبح انعكاس المعرفة على نفسها ولكن على مستوى المفاهيم والمخططات التفسيرية والنظريات والأنساق الصورية فقط. حيث أنّه ليس من مهام المشتغل بالحقل الابستيمولوجي، وهو يحلل خطابا فيزيائيا، أن يتساءل عن الطوائف الدينية أو الانتماءات الحضارية أو الطبقات الاجتماعية للفاعل المعرفي الذي يتدارسه (ونحن نقصد العالم الفيزيائي). بل حتى مصطلح الفاعل المعرفي ليس ممّا يلتفت إليه بإلحاح. وقد يكون السبب أنّ مثل هذه الاعتبارات تبقى خارج الصورة الأولية التي يتأسس بموجبها الموضوع المعرفي ضمن المقاربة الابستيمولوجية.

إنّ أسرار الطبيعة خفية؛ ومهما تحركت دائما، لا نستطيع - كما يرى الفرنسي پاسكال بلاز (Pascal Blaise) (١٦٢٣م-١٦٦٢م) – اكتشاف خباياها، فالزمن يكشف ذلك على ممر الأطوار، ورغم بقائها كما هي، لا زالت لم تُعرف أكثر. إنّ التجارب التي تلهمنا الذكاء تتزايد باستمرار، وبما أنّها "المبادئ الوحيدة" للمعرفة العلمية وأسسها، فالنتائج كذلك تتزايد(...) حتى أنّ مجموع الرجال بعد تعاقب القرون، أمكن اعتبارهم رجلا واحدا، باق ليتعلّم باستمرار[٨].

ولأنّ هدف العلم هو عدم المعرفة قبل المعرفة؛ فهو "يرفض" كل نظام قبلي، ليعتبر نفسه باباً مفتوحاً أمام "طبيعة جديدة": طبيعة مفتوحة بمعنى آخر، والتي هدفها يتمثل في أن لا نكون ما نعتقد، لكن نكون دائما ما كنّا نعتقد أن نكون. الانسان هو "مفسّر الطبيعة"، ومعرفته لها مرتبطة بملاحظاته عن طريق الأشياء أو الفكر. فكل من العلم والقدرة الإنسانية هدفهما واحد، لأنّ الجهل هو السبب الذي يمنع من التحقّق العلمي. فنحن لا نمتلك الطبيعة إلاّ بالخضوع لنواميسها.

كما أنّ كل الآثار الإنسانية الموجودة اليوم هي وليدة المصادفة و التجارب البسيطة أكثر منها للعلوم؛ لأنّ العلوم اليوم ما هي إلاّ ترابط

٦- وايتهايد ألفرد نورث: مغامرات الأفكار: عرض فلسفي رائع للأفكار والحضارات، ترجمة أنيس زكي حسن، مراجعة: محمود الأمين، الطبعة الثانية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م، ص.:٩٣٢.

٧ – غاستون باشلار: فلسفة الرفض، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٥م، ص.٦٢.

8- Pascal Blaise: Traité du vide, Garnier-Flammarion, Paris, (1985), p.p.: 60-61.

اكتشافات سابقة وليست وسائل اختراع ولا وسائط لآثار جديدة. فهي لا تقدّم شيئا للاختراعات والإبداعات، لأنّ "المنطق الحالي" لا يقدم شيئا لنشأة العلوم.

٢- السيميائية في تطوراتها المعاصرة:

السيمياء هي العلم الذي يدرس حياة العلامات، أيّا كان مصدرها، في إطار الحياة الاجتماعية، وقد جعل العالم اللساني السويسري ف. دوسوسير (F. de Sausure) (١٨٥٧م-١٩١٣م) هذا العلم مقتصرا على دراسة العلامات في دلالتها الاجتماعية، مّما يفهم به البشر بعضهم بعضا، باعتبار اللغة نظاما من العلامات. ثم تداخل مصطلح السيميولوجيا (Sémiologie) مع مصطلح آخر هو (Sémiotique)، فمصطلح "السيميولوجيا" يستعمله الأوروبيون، ومصطلح "السيميوطيقا" يستخدمه الأمريكان. ويوجد أيضا باللغة العربية مصطلح "السيمياء" و"السيميائية"، و"علم العلامات"، بمعنى علامة أو ملمح، وتوجد علامية الأدب، التي تسعى إلى تأسيس نظرية في كيفيات الخطاب باعتباره حدثا علاميا؛ أي سيميائيا، يتألف من نظام من العلامات الجمالية.

ومنه، فإنّ السيميائية لم تصبح علما قائما بذاته إلاّ بفضل المجهودات التي قدمها كثير من الدارسين أبرزهم الأمريكي شارل ساندرس بيرس (C. S. Peirce) (١٨٣٩م-١٩١٤م)، فهي في نظره، علم الإشارة الذي يشمل جميع العلوم الإنسانية والطبيعية الأخرى، حيث يذكر: "ليس باستطاعتي أن أدرس أيّ شيء في الكون، كالرياضيات والأخلاق والميتافيزياء والجاذبية الأرضية والديناميكية الحرارية والبصريات والكيمياء، وعلم التشريح المقارن وعلم الفلك وعلم النفس وعلم الصوتيات وعلم الاقتصاد وتاريخ العلم والكلام (...) والسكوت والرجال والنساء والنبيذ وعلم القياس والموازين، إلاّ على أنّه نظام سيميولوجي"[٩].

فإذا افترضنا أنّ السيميائية تعرف بوصفها مشروعا دلاليا قابلا للمعرفة، يمكن أن نتساءل في هذا السياق، عن طبيعة السناد الإشكالي الذي تتأسس وفقه المعرفة الدلالية. لنسلم في البداية بأنّه يستحيل إدراك ظاهرة ألسنية بعزلها عن نظام الدليل، الأمر الذي يقودنا إلى التقاط الدليل باعتباره عنصرا في صلب النظام و«موضوعا علائقيا يحتاج إلى بناء"[١٠].

ضمن هذا التصور المنهجي، تسعى السيميائية إلى الدراسة العلمية لأنظمة الدلالة التي تتفرع تبعا لتجلياتها التعبيرية إلى أقسام ثلاثة: يشمل القسم الأول أنظمة الدلالة التي تستعمل اللغة الطبيعية كموضوع لتجلياتها: الأدب ومختلف أنواع الخطاب (ديني، أسطوري، فولكلوري، تاريخي، قانوني،... إلخ). وتندرج ضمن القسم الثاني الأنظمة غير الألسنية كالرسم والهندسة والموسيقى، ويعتبر القسم الثالث تأليفيا يحيل موضوعه على أنظمة الدلالة التي تجمع في تجلياتها بين المظهرين اللغوي وغير اللغوي كالمسرح والسينما والأوبيرا...إلخ[١١].

استنادا إلى هذا التعريف تعنى السيميائية المعاصرة بوصف شكل المضمون وصفا ينبني على المسلمات التالية:

- يشكّل النص كيانا دلاليا قائما بذاته، لا تحتاج في وصفه إلى معلومات خارجية عنه، سواءا تعلقت بحياة الكاتب أو الظروف المحيطة به والأحداث المروية. ينحصر موضوع السيميائية في وصف الأشكال الداخلية لدلالات النص، ويكفي لكي نتحقق من هذه المسلمة، أن نعود إلى تجاربنا الخاصة مع قراءة النصوص السردية، فهي تدلل على أنّ الدلالات التي تستقر في ذهننا، ونحن ننهي قراءة القصة التي تحيل مباشرة على مضامينها

٩ - بيير غيرو: علم السيميولوجيا، ترجمة عياشي، دار طلاس، سوريا، ط.١، ١٩٨٨م، ص. ص. ٠١-١١.

10- Coquet J. C: l'école de Paris, in sémiotique, Hachette université, Paris, 1982, p.p. 6-7.

١١- يطلق على القسم الأول: اسم السيميائية الفعلية (Sémiotique verbale)، ويلحق القسم الثاني بالسيميائية غير الفعلية (Sémiotique non-verbale) ويتصل القسم الثالث بالسيميائية التأليفية.

ولا إلى الاعتبارات الخارجية عنها.

- وتعتبر المسلمة الثانية امتدادا للأولى، فهي تخص الوحدات الدالة لمضمون النص التي لا تحدد بماهيتها وإنّما بعلاقاتها الضدية ببقية الوحدات في صلب نظام النص، تدرك هذه العلاقات في لعبة الخلافات التي تنشأ بين الوحدات النصية. ويستلزم إدراك دلالات النص الوقوف عند الاختلافات المستقرة على الصعيد النظمي في مضامينه. وتتحدد، على هذا الأساس، الوحدات وقيمتها الدلالية انطلاقا من العلاقات، وفي إطار البنية.

- تتأطر تجليات هذه الوحدات، على صعيد النص السردي، بمستويات عديدة، يرتبط بعضها ببعض وفق نسق متجانس ومتكامل. وعليه، ينبغي أن نحقق الحد الأقصى من التلاحم بين وحدات كل مستوى، ذلك أنّ فهم الحكاية "لا يكون فقط بمتابعة سرد القصة وإنّما بالتعرف أيضا إلى (الطوابق) القائمة فيها، وبإسقاط التسلسلات الأفقية للخيط السردي على محور يبدو ضمنيا في شكل عمودي. إنّ قراءة (سماع) حكاية لا تتم فقط بالمرور من كلمة إلى أخرى، بل بالانتقال من مستوى إلى مستوى آخر"[١٢].

وبناءا على ما تقدم، توجد ثلاث مستويات في المقاربة السيميائية، يمكن أن يوصف من خلالها النص السردي: المستوى السردي، المستوى الخطابي والمستوى المنطقي الدلالي.

ويمثل المستويين السردي والخطابي البنية السطحية للنص ندرك على مستواها أوضاع القوى الفاعلية في البناء السردي والحالات والتحويلات التي تطرأ عليها والمسارات الصورية المقترنة بها. ويمثل الصعيد المنطقي الدلالي البنية العميقة للنص التي تضمّن الدورة العادية لدلالته.

إنّ الإشكال المطروح الآن، لا يرجع إلى غياب المعنى غير اللساني، فهو موجود، بل إلى استحالة التعبير عنه بغير الألفاظ اللسانية، التي تبدو على الرغم من ذلك، غير قادرة على تحديد ما يختص به المعنى غير اللساني. إنّ السيميائية المنطلقة من الكلام يجب أن تتخلّى عن دراسة المشكل المركزي في كل نظام سيميائي، وهو مشكل المعنى، ذلك أنّها لن تهتم سوى بالمعنى اللساني الذي تضعه مكان موضوعها الحقيقي. ولم يتم إبعاد سيميائية الأنظمة غير اللسانية على مستوى موضوعها (الذي هو موجود حقيقة)، بل على مستوى خطابها[١٣].

لهذا السبب، وقع "تغيير" غير محسوس في الدراسات السيميائية المعاصرة، فعوض أن نعبر، دون جدوى، بالكلام عن العلاقة الدلالية، نهتم بالعلاقة الرمزية؛ أي بالعلاقة الثانوية التي تربط بين الكيانات المتجانسة مجانسة غير ضرورية (والتي يستحيل وصفها خارجها) مثل ما يفعل الدليل، ولكن بطريقة مبررة، حيث تقوم هكذا بإبراز الآليات الموجودة في مجتمع ما.

إنّ مجال الرمز، المخصص عادة إلى علم الأناسة وتاريخ الأديان وعلم النفس أو التحليل النفسي، يصبح هكذا موضوع السيميائية. أمّا فائدة اللسانيات، في وضعها الحالي على الأقل، تبدو هنا إشكالية: إنّ الميدانين موضوعات مختلفة، وحتى وإن التقيا في مادة واحدة (اللغة مثلا)، فإنّ كلا منهما ينظر إليها برؤية مختلفة. ذلك أنّ اللغة غنية بالإجراءات الرمزية، ولكن هذه الإجراءات لا تنتمي إلى الميكانيزم اللساني الخاص[١٤]. ويبدو دمج القوانين غير الرمزية كالموسيقى مثلا، ضمن موضوع السيميائية أقل تبريرا ممّا سبق، إذ أنّ العلاقة الرمزية (وعلاقة طرف ثالث هو العلاقة الدلالية) ذات خصوصية كافية لضرورة دراستها بصفة مستقلة.

12- Rolland Barthes: L'Aventure sémiologique, Éditions du Seuil, Paris, 1985, p.11.

13- Todorov T.: Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Éditions du Seuil, Paris, 1972, p.112.

14- Ibidem, p.113.

٣- المقاربة السيميائية للعلم:

إنّ العلم هو تحويل الظواهر إلى مفاهيم والتعبير عن نتائجه عن طريق العلامات، التي تغدو دلائل عندما يستخدم الاستدلال في استنباط الأحكام والبحث عن حلول للمشكلات التي تتصل بطرائق التعبير العلمي وأشكاله؛ أكثر ممّا هو تصور الأشياء فحسب، على غرار ما يعرفه المنطق التقليدي. ولا غرو أن تضطلع السيميائيات بوظيفة الأورغانون بما كان يطالب به المنطق سابقا، إلاّ أنّه من جهة أخرى وفي الحدود التي لا يكون فيها كل علم تجريبي بجميع الاعتبارات إلاّ "محاولة لاكتشاف المعطيات التي يمكن استخدامها كدلائل جديرة بالثقة"[١٥].

وعليه، فإنّ السيميائيات بوصفها مذهبا وعلما للعلامات التي تستكشفها بعض العلوم التجريبية يمكنها أن تحوز عن جدارة صفة العلم لهذه العلامات، وتنال ثقته. أنّ هذا العلم حسب ما ورد في شرح إيساغوجي[١٦] (Isagogè) يبحث فيه عن الأغراض الذاتية للتصورات والتصديقات تحقيقاً للمسلكية التي تسلّم الباحثين إلى مدارك المجهولات والوقوف على حقائق المعقولات.

وانطلاقا ممّا أسس له كل من بيرس وبارث، وغيرهما من منظري السيميائيات راهنا، يمكن الاعتقاد بأنّ السيميائيات بوصفها "مرادفة للمنطق" هي فلسفة جديدة للعلم واللغة والتقنية. لتصبح إشكالية المعنى بؤرة التفكير السيميائي التي كلّت عقول فلاسفة اللغة والعلامة، فلم يقووا على إحصاء مناحيها إحصاءا شافيا كافيا، ولعلّ الحكمة كامنة في مثل هذا التصور الفلسفي الخديج لعالم المعنى قديما وحديثا، على أساس أنّ العلاقة بين المعنى والعلامة تكوّن مدارات السيميائيات على اختلاف اتّجاهاتها وتنوع مذاهبها.

إنّ بناء الموضوع العلمي ضمن المقاربة السيميائية سيخضع في تكوينه لمقدار المسافة وزاوية النظر التي يتم اعتباره من جهتها. أي أنّ سيميائية الموضوع العلمي تنجم عن تأكيد عناصر محددة في المادة العامة للواقع المبحوث (الواقع العلمي). وعلى رأس العناصر التي تؤكدها السيميائية نجد عنصر الدلالية (Signifiance). على أنّ الدلالية هنا أبعد ما تكون عن عنصر بسيط، بل هي على العكس تماما عنصر بالغ التعقيد. لأنّه أولا، يوجد النشاط العلمي ذاته، الذي هو بالأصالة، نشاط توليد دلالة (نسقية)، وهذا يكفي ليعطيه كامل مسوغاته الوجودية. وثانيا، فإنّ توليد الدلالة المعرفية الضيقة هو إعادة إنتاج دلالة أوسع أعقد، تتمثل في الدلالة التي تؤلف نسيجها سائر المعاني الثقافية المحيطة والنافذة، والتي نزعم أنّها وبالضرورة من طبيعة قيمية. وقد ذهب الروسي ستيبانوف إلى القول بأنّ علم العلامات هو علم الأنظمة الدالة في الطبيعة والمجتمع[١٧]، فإنّ أي نسق معرفي مهما بلغت تجريديته لا يخرج في آخر التحليل وفي أوله عن كونه «واقعة دالة». الأمر الذي يهيئه لكي يتيسر كموضوع سيميائي، لأنّ السيميائية ليست شيئا آخر إلاّ علم الوقائع الدالة. وتكون العلامة هي ما يتوسّل به إلى الدلالة. لكن يبقى حاضرا معنا أنّ أيّ نسق معرفي/ علمي يتّسم بازدواجية التكوين. لذلك سيكون عندنا بعدان، على الأقل، بعد معرفي/تقني داخلي ضيّق، وبعد دلالي-ثقافي خارجي واسع، يتم بموجبه النظر إلى الممارسة الابستيمية بأكملها، بمعنى أن تكون ممارسة اجتماعية ثقافية تاريخية معقدة. ومن ثمّة، لا بد لها أن تتلقى أو تنفعل بكامل زخم وثقل الشروط المحيطة والمحايثة والمحددة للنسق الاجتماعي العام.

١٥- مارسيلود أسكال: الاتّجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحميداني وآخرون، دار إفريقيا للشرق، المغرب، ١٩٩٨م، ص.٤٣.

١٦- كتاب إيساغوجي يعتبر أشهر كتب علم المنطق، كتبه الفيلسوف اليوناني «فرفريوس» في السنوات المتتالية ٨٦٢-٩٧٢م. واعتبر المرجع لعلم المنطق لعدة قرون، وتعني كلمة إيساغوجي "المدخل" باللغة اليونانية.

١٧- ينظر مقال أمينة رشيد: السيميوطيقا في الوعي المعرفي المعاصر، ضمن: مدخل إلى السيميوطيقا، منشورات عيون، المغرب، ١٩٨٧م، ج.٢، ص.١٦.

لقد سعت الابستيمولوجيا التقليدية إلى استدبار البعد الثاني قاصرة مساءلتها على البعد الأول. نقول "الابستيمولوجيا التقليدية"، أمّا في أحدث الدراسات الابستيمولوجية فهي لا تفصل بحزم بين تساكن البعدين وتشاطرهما، على نحو ينظر فيه إلى العلم على أنّه "يؤسس ذاته ويعاود تأسيسها، محددا في ذلك، دائرة نشاطه بواسطة خطابات إيديولوجية، ثم هو أيضا وإلى ذلك، يؤسس ذاته تبعا لجملة المعطيات الحاصلة من انتقاء الأشياء التي تلائم الموضوع المقصود بناؤه. فتلك الدائرة وهذا الانتقاء محاطا كلاهما وبالقدر ذات بما خارج وداخل بالنسبة للموضوع"[١٨].

وإنّ الذي سيعنيه هذا، أنّ التحليل السيميائي للشروط الثقافية (التاريخية، الاجتماعية...) للإنتاج أو الممارسة العلمية، لا يقصد منه أن يلغي التحليل العلمي أي الابستيمولوجي للمعرفة، والعلمية منها على وجه الخصوص. ومنه، فإنّ السيميائية الثقافية المشتغلة بتحليل المنظومات الثقافية وما تفرزه من تعبيرات وآثار يمكن لها أن نثري أركان المنطق والابستيمولوجيا، دون أن يفرض ذلك بالضرورة إزاحة لهما عن علمهما في الإبانة عن الشروط الفعلية للمعرفة[١٩].

يمكن التوصل إلى نتيجة مفادها، أنّ السيميائية أوسع حدودا وأبعد مدى كفاعلية نقدية، ممّا يؤهلها أن تحوي المقاربة الابستيمولوجية، بل تستثمرها، وحتى أنّها تتجاوزها. بل يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك، في الاعتقاد بأنّ الابستيمولوجيا (كمعرفة للمعرفة) تكشف لنا، عبر التحليل، عن جانب خفي منها، هو جانب المناورة؛ أي المناورة ضد كل استعادة موضعية منهجية شارطة للفعل العلمي. وكأنّ الابستيمولوجيا (أو على الأقل علماؤها) تعطي الانطباع أنّنا بإزاء العلم، نكون أمام "واقعة" منفصلة عن كل شروط خارجية عنها، فهو بالتالي (أي العلم) لا يخضع إلاّ لآلياته الداخلية النسقية والصورية المغلقة. وهذا هو الانطباع المقصود، هو بالذات ما تتأسس السيميائية على طرف نقيض منه.

وبناء على ما سبق عرضه، يمكن القول بأنّ السيميائية تنحو إلى أن تكون "همزة وصل" مزدوجة الاتّجاه ودائبة الحركة بين البعدين: الابستيمولوجي (العلمي) والسوسيومعرفي. لكن ليس معنى ذلك أنّ السيميائية لا تحوز في ذاتها على أيّ منطقة خاصة بها، بل القضية تكمن في أنّ مجموعة المناطق البحثية في سائر موضوعات الظاهرة الإنسانية، وعلى تعدد وتنوع قطاعاتها النظرية وتباين منهاجياتها وأهدافها تؤلف في حال تداخلها واتحادها كلية "المقاربة السيميائية الكبرى"، وربما أمكن القول أنّ السيميائية تظهر بالأولى كمحل لتقاطع العلوم[٢٠]. على أنّها نقطة تقاطع ثرية وخصبة ليس للابستيمولوجيا وعلم الاجتماع المعرفي وحسب، بل لمختلف حقول الدراسة في علوم الإنسان والمجتمع، طالما أنّ جملة الوقائع التي تشتغل عليها هذه العلوم يستوعبها ولا بد المنظور الدلالي. الأمر الذي جعل السيميائية وفي كل تطوراتها القاصدة إلى محاولة تأسيس مقاربة علمية في ميدان الوقائع الإنسانية والاجتماعية، قد ظهرت أقرب إلى منهاج أو إلى مباحثة تستقصى عن المنطق الخفي في الممارسات الاجتماعية الدالة، ومن ثمّة أقرب إلى ابتناء الأنساق وتحولاتها السائدة لتنوع وتعدد المادة الدالة[٢١].

فإذا كان ينظر إلى العلم والمعرفة على أنّهما نوعا من "نظام العالم الطبيعي" ومعناه، أمّا الشفرات الاجتماعية فهي نظام المجتمع ومعناه، تصبح المقاربة السيميائية هي اشتغال على أنظمة

18- Fernand Dumont: Les idéologies, P.UF., Paris, 1974, p.97.

19- Mouloud N.: Langage et structure (essai de logique et de sémiologie), Payot, Lausanne-Suisse, 1969, p.208.

20- Julia Kristiva: La sémiologie: science et/ ou critique de la science, in: Théorie d'ensemble (collectif), Seuil, Paris, 1968, p.82.

21- Julia Kristiva: Sémiologie, in: Encyclopedia universalis, Paris, 1974, vol.14, p.862.

علامات بما هي استضمار لأنظمة معان، في منظومة أشد تعقيدا، حيث يتوارى بعضها فوق بعض، وحيث يحيل بعضها على بعض. وهو الأمر الذي يجعلنا نلاحظ أنّ المعاني، ونظرا للوضع التراسبي الذي تنتظم فيه، فإنّ بعضها يشتغل إزاء البعض كعلامات. وهو منظور يقترب من وجهة نظر بيرس الذي يضع العلامة أساس للعالم بأسره، إذ أنّ العلامة هي نقطة الانطلاق التي ينبني عليها تعريف كل عنصر على حدة، وهي أيضا المبدأ الذي يحكم تفسير مجموعات العناصر سواء أكانت هذه المجموعات مجردة أو ملموسة[٢٢].

في هذه الحالة، لا يمكن الاكتفاء بالتصور التقليدي المتداول عن العلامة الذي يقتصر على العلامات "الملموسة" حيث تمثل العلامة اللغوية نموذجها الاستثنائي. لذا كان من الواجب علميا التعاطي كذلك مع العلامات "المجردة" (اللاملموسة)، نحو الأنغام، الأذواق وأنماط التفكير...، لتنشط السيميائية على نحو جديد، فحيث يربط العالم بين النظريات يقوم السيميوطيقي بالربط بين العلامات.، كون أنّ النظرية نفسها تتحول إلى دال، ويتحول المدلول في المنظور السيميائي إلى دال، ومنه إلى علامة.

الخاتمة:

إذا كان العلم، ومع كونه "أدق" الأنماط المعرفية، لا يخلو بأيّة حال من أن ينفتح في جهات منه، أو أنّه ربما قد يحيل، من خلال مكوّناته على محددات ليست بالضرورة من طبيعة عليمة خالصة، فأحرى أن يصدق هذا على غالبية الأنماط المعرفية.

إنّ التحليل العلمي هو بخلاف عمليات تفسير العلامات التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوانات؛ إذ يمكن للربان الأميين والمزارعين الذين لا يتوافرون على نظريات علمية أن يفسروا علامات أحوال الطقس تفسيرا منتظما ومتناسقا؛ وكذلك الحيوانات غير العاقلة هي فاعلة و"قادرة" على فهم العلامات، فالحصان مثلا، تحت ضربات السياط يندفع نحو الأمام، ويبدأ في الكر والفر، لكنّه لا يكوّن تفكيرا علميا-منطقيا من المقدمة شيئا من قبيل إذا سمع صوت السوط فإنّه ينبغي أن يركض. ويمكن سياقة أمثلة مغايرة بخصوص مفهوم العلامة وعلاقتها بالقضية وبالبرهان، فعن طريق القياس المرأة التي في ثديها حليب (مقدمة كبرى) تشير إلى أنّها قد حبلت (قياس أكبر). ولعلّ التحليل السيميائي للوحدات الدلالية اصطنع هذا المفهوم القائم على التعداد المعقد للعلامات أو الخاص، ففي علم الرياضيات لا يمكن أن نهتدي إلى رسم منحنيات المعادلات ما لم نعرف المعادلة تعريفا كاملا، وسنجد بأنّ تطور العلوم فرض على مناهجها لغة تتجنب الغموض الذي نلفيه في اللغات الطبيعية، فلا وجود لتعريف علمي واضح ودقيق لمفهوم القوة (La force) مثل الصيغة: ق= ك ج. هكذا يكون التعريف خطابا يعدد المميزات تعدادا عاما.

لا يمكن طلب الحقيقة من مطابقة المفاهيم للوقائع الموضوعية، ولهذا فإنّ الموضوعات الفكرية التي تتسم بطابع التجريد غالبا ما توصف بـ"المعاني الكليات"، التي تتألف من عدد متناه من الظواهر التي "يوحد" بينها التجانس، ولكن هذه المفاهيم الكلية ليست أشياءا مادية، إذ لا وجود لها إلاّ في الوعي، ولا تتمتع بالوجود الواقعي والموضوعي. ومنها تنشأ الأحكام الكلية التي تتأسس عليها كل معرفة علمية لما تتوافر عليه من قدرات إدراكية. على أساس أنّ ليس كل الموضوعات قابلة للإدراك الحسي الكلّي والتام، وبعضها الآخر يمكن إدراكه لاحقا بمجرد توافر الأبعاد الموضوعية لإدراكه.

آن الأوان لكي تضطلع السيميائيات بوظيفة مزدوجة، لكونها تتمتع بأهمية مركزية في القيام بتوحيد العلوم. فبما أنّ كل معرفة علمية لا يمكن التعبير عن نتائجها إلاّ بالعلامات، وأنّ السيميائيات في جوهرها لغة قادرة على وصف

٢٢- إيميل بنفنست: سيميولوجيا اللغة (ضمن مدخل إلى السيميوطيقا)، ترجمة سيزا قاسم، منشورات عيون، المغرب، ٧٨٩١م، ج.٢، ص.٠١.

كل الأنساق السيميائية الدالة، وتستطيع أن تقدم حلولا للأشكال التعبيرية للخطاب العلمي، ولهذا توصف بأنّها بمثابة "الأورغانون" الذي راهن عليه المنطق، ومن ثمّ تتّضح لدينا مطابقة السيميائيات للمنطق بمفهومه المعاصر.

لهذا، بات من الأمر الضروري، الاستناد إلى السيميائيات كمشروع موحد للحقول العلمية على اختلافها، ونزعة توحيد العلم جاءت استجابة لدعوى "الفهم العلمي للعالم"، فنتائج العلوم يتم التعبير عنها ضمن صياغات سيميائية قوامها القدرة على امتلاك لغة واصفة بإمكانها ان تمتد إلى جميع الأنساق السيميائية الدالة لكي تسهم في وضع بعض الحلول لمشكلاتها العلمية وفق "الأورغانون السيميائي" الذي يفترض بداهة إعادة تجديد العلم وتخصيب شبكته المفهومية وآلياته الإجرائية.

المراجع

أ- المراجع باللغة العربية:

١- إبن منظور: لسان العرب المحيط، قدّم له،عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف: يوسف خيّاط ونديم مرعشلي، المجلّد الثاني، (من الزاي إلى الفاء)، دار لسان العرب، بيروت،١٩٧٠م.

٢- إيميل بنفنست: سيميولوجيا اللغة (ضمن مدخل إلى السيميوطيقا)، ترجمة سيزا قاسم، منشورات عيون، المغرب، ١٩٨٧م، ج.٢.

٣- أمينة رشيد: السيميوطيقا في الوعي المعرفي المعاصر، ضمن: مدخل إلى السيميوطيقا، منشورات عيون، المغرب، ج.٢.، ١٩٨٧م.

٤- أندريه لالاند: المجلد الثالث؛R-Z، تعريب: خليل أحمد خليل، تعهده وأشرف عليه حصرا: أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت/باريس، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٥- بيير غيرو: علم السيميولوجيا، تر. عياشي منذر، دار طلاس، سوريا، ط.١، ١٩٨٨م

٦- الجوهري: الصحاح في اللغة والعلوم، تقديم: عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف: يوسف خياط ونديم مرعشلي، المجلد الثاني،(من الزاي إلى الفاء)، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٤م.

٧- وايتهايد لفرد نورث: مغامرات الأفكار: عرض فلسفي رائع للأفكار والحضارات، ترجمة أنيس زكي حسن، مراجعة: محمود الأمين، الطبعة الثانية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م.

٨-مارسيلود أسكال: الاتّجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحميداني وآخرون، دار إفريقيا للشرق، المغرب، ١٩٨٩م.

٩- غاستون باشلار: فلسفة الرفض، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٥م.

ب- المراجع باللغة الأجنبية:

1-Aristote: La métaphysique, Traduit par: Tricot (Jules). Tome 1, J. Vrin, Paris, 1966.

2-Baraquin Jean-Nöella Dugué–Anne Baudart-Jacqueline Laffite-Joël Wilfert: Dictionnaire de philosophie, Deuxième édition, Arnand Colin, Paris, (2000).

3-Coquet J. C.: l'école de Paris, in sémiotique, Hachette université, Paris, 1982.

4-Ferdinand Dumont: Les idéologies, P.UF., Paris, 1974.

5- Hegel (Georg Wilhelm Friedrich): Propédeutique philosophique, Traduite et présentée par Maurice de gandillac, Éditions Gonthier, Pays Bas, (1971).

6- Julia Kristiva: La sémiologie: science et/ou critique de la science, in: Théorie d'ensemble (collectif), Seuil, Paris, 1968.

7-Julia Kristiva: Sémiologie, in: Encyclopedia universalis, Paris, 1974, vol.14.

8-Mouloud, N.: Langage et structure (essai de logique et de sémiologie), Payot, Lausanne-Suisse, 1969.

9- Pascal Blaise: Traité du vide, Garnier-Flammarion, Paris, (1985).

10-Rolland Barthes: L`Aventure sémiologique, Éditions du Seuil, Paris, 1985, p.11.

11- Todorov T. et Ducrot.: Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Éditions du Seuil, Paris, 1972.

سِمات
S e m a t

الاستدلال والتواصل غير اللغوي:
الاستدلال التصويري نموذجا

سعيد بنتاجر
جامعة الرباط – المغرب
said.bentajar@gmail.com

Received: 8 July 2013,
Revised: 22 Dec. 2013, Accepted: 23 Jan. 2014
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

الاستدلال والتواصل غير اللغوي:
الاستدلال التصويري نموذجا

سعيد بنتاجر
جامعة الرباط – المغرب

الملخّص

يتناول هذا البحث مصطلح "الاستدلال التصويري" للدلالة على المصطلح الانجليزي "Visual Argument" بدل "الاستدلال الصوري" من أجل تجنب اللبس في لفظ "الصوري" الذي أصطلح إطلاقه على المنهج المنطقي الذي يهتم بصور الاستدلال لا بمضمونه، ويدل عليه المصطلح الانجليزي (Formal). وهو اصطلاح مؤقت في انتظار تأكيده أو استبداله.

وتتسع كلمة "دليل" في الاستعمال العام في "الثقافة الشعبية" أو في "الثقافة العالمة" لدلالات مختلفة.

غير أن استبعاد الصور من بوصفها مادة للدليل في المقاربات المنطقية والجدلية هي نتيجة لمقاربتها الاختزالية للاستدلال، مقاربة تفرضها الأطر المنهجية التي تحكم هذه المباحث.

يسعى البحث إلى إظهار المقاربة المنهجية التي يمكن أن تفيدنا بدرجة من الدرجات في دراسة الاستدلال عموما والاستدلال التصويري منه على الخصوص، هي المقاربة الخطابية، ضمن إطار النظريات التواصلية والخطابية التي تتناول الاستدلال، وفي هذه الحال يمكن القول إنه لا يمكن استبعاد العناصر غير اللغوية، مثل العناصر التصويرية والأفعال الإنسانية وغيرهما، من العناصر المشكلة لمواد الدليل في أي تصور يريد أن يكون أكثر واقعية للدليل، رغم صعوبة تأطيره في نظرية للدليل.

الكلمات المفتاحية: الاستدلال التصويري، الصورة، المنهج، دليل، مقاربة، الخطاب.

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

Argument and Nonverbal Communication:
Visual Argument as a Case Study

Said Bentajar
University Rabat − Morocco

Abstract

This paper deals with the relation between argument and image, and with the possibility of broadening the concept of "argument" to include "visual argument". We claim that there is a similarity between the verbal argument and visual argument, and that the obstacles of theorizing visual arguments are the same as those that were on the road of studying "verbal argument." The aim is to refute some theoretical basis that opponents of "visual argument" based on to object the possibility and occurrence of this kind of argument.

Keywords: Argument; Image; Visual argument.

الاستدلال والتواصل غير اللغوي:
الاستدلال التصويري نموذجا

سعيد بنتاجر

جامعة الرباط – المغرب

نجحت نظرية الحجاج المعاصرة إلى حد كبير في تطوير البحث في مفهوم الاستدلال الطبيعي، وإخراج هذا البحث من سيطرة المنهج المنطقي الصوري إلى آفاق منهجية أرحب تسمح بدراسة الاستدلال الطبيعي كما هو بدون اختزال مخل. وقد كانت عملية الإخراج هذه صعبة، نظرا للاعتراضات التي ووجهت بها من قبل المناطقة ذوي التوجه الصوري من جهة، والتحديات التي كانت تواجه هذا النوع من البحث أيضا. ومع كل هذا التراكم الكبير الذي نجده في الدراسات الحجاجية المعاصرة، إلا أننا نجد أن الاختلاف يزداد توسعا بين المشتغلين في الموضوع وهو اختلاف لا يمس القضايا التفصيلية فقط، بل يمتد إلى الأصول والأسس النظرية والمنهجية. الاختلاف يمس في الأساس ما يفهم من الدليل والحجاج نفسه، سواء من جهة طبيعته أو وظيفيته أو مكوناته أو علاقاته الخارجية. وهذا الاختلاف جعل النقاش على أشده في كل القضايا النظرية التي تمس الاستدلال، ومنها إمكانية الحديث عن أنواع من الاستدلال لا تستعمل اللغة الطبيعية

وفي هذه الإشكالية الأخيرة، التي ينشغل في إطارها هذا المقال، نجد توجها محافظا يرفض الحديث عن الاستدلال بدون لغة طبيعية، وتوجها يرى أن الاستدلال ليس متعلقا باللغة، وأن اللغة ما هي إلا وسيلة من بين وسائل أخرى للاستدلال. وبين الموقفين ما لا يعد من الأفكار والتوجهات بصدد الموضوع لا تختلف في ما تدعو إليه فقط، بل تختلف حتى في طبيعة المناهج والمباحث التي تصدر عنها. لأن التواصل اللغوي هو مجال للبحث واسع، كما أن التراكم النظري في دراسة الاستدلال تجعلنا أمام صعوبة كبيرة في مقاربة العلاقة بين الاستدلال والتواصل غير اللغوي، سواء من جهة البحث النظري التأسيسي أو من جهة الدراسات التجريبية والتطبيقية.

تمثل الصورة واحدة مما نسميه التواصل غير اللغوي، وهي موضوع شديد الأهمية في مجال السيميائيات وفلسفة الصورة والتواصل الإعلامي والدراسات التي تتناوله في تزايد مستمر مع ظهور القوة الفعلية للصورة في تاريخنا الراهن، خاصة مع وسائل الإعلام. لكن دراسة الصورة باعتبارها جزءا من استدلال مجال بحثي خاصة اهتمت به نظرية الحجاج المعاصرة. هذه الأخيرة جعلت مهمتها هي بناء نظرية في الاستدلال والحجاج؛ نظرية قادرة لأن تكون إطارا نظريا ملائما لوصف جميع الظواهر الاستدلالية كما تمارس في الواقع، كما تكون قادرة على تمييز الاستدلال الجيد من الاستدلال السيء. ومن الظواهر الاستدلال التي تواجهها هذه النظرية تلك التي يتم فيها الاستدلال بغير اللغة الطبيعية، ومنها الاستدلال بالصور مثلا. والسؤال الذي يفترض في نظرية الحجاج الإجابة عنه بهذا الصدد هو ما إذا كان هناك فعلا استدلال بالصور وبدون لغة. وهل نقبل

أن نسمي أنواعا من التواصل غير اللغوي الذي يراد منه تحقيق وظائف شبيهة بتلك التي يحققها الاستدلال الطبيعي استدلالا؟

إن المقاربة التي سنستعملها في هذا المقال لمناقشة الاستدلال التصويري هو التوجه إلى الأسس النظرية التي يعتمد عليها المعترضون على إمكانية الاستدلال التصويري، من خلال استحضار اعتراضات شبيهة ووجه بها الاستدلال اللغوي نفسه. بهذا المعنى فإننا لا نسعى إلى الاستدلال المباشر على إمكانية الاستدلال التصويري، بقدر ما نتوسل باستدلال غير مباشر يتجه إلى الاعتراضات الموجهة لهذه الإمكانية واستخراج أسسها النظرية والمنهجية، واستحضار الإجابات التي قدمت لها في الدفاع عن الاستدلال الطبيعي.

نستعمل في هذا المقال مصطلح «الاستدلال التصويري» للدلالة على المصطلح الانجليزي Visual Argument بدل "الاستدلال الصوري" من أجل تجنب اللبس في لفظ : "الصوري" الذي أصطلح إطلاقه على المنهج المنطقي الذي يهتم بصور الاستدلال لا بمضمونه، ويدل عليه المصطلح الانجليزي (Formal). وهو اصطلاح مؤقت في انتظار تأكيده أو استبداله.

١. الاستدلال:

تتسع كلمة "دليل" في الاستعمال العام في «الثقافة الشعبية» أو في "الثقافة العالمة" لدلالات مختلفة. فقد يطالب القاضي المدعي بالدليل على اتهام المتهم بالجريمة، وقد يقدم المدعي أدلته على شكل كلام أو أشياء أو صور أو غير ذلك؛ وفي نقاش بين صديقين يطالب أحدهما الآخر بتقديمه دليلا على انه فعلا زار اسطنبول، فيرد عليه الصديق باستخراج صورة أو فيديو يظهر فيها في معلمة معروفة في اسطنبول؛ ويضطر العالم التجريبي في علم الفلك أن يظهر صورا كأدلة على أنه فعلا اكتشف شيئا جديدا؛ وفي نقاش بين إمامين مغربيين حول قضية ما يطالب أحدهما الآخر بدليل على أن هذا الحكم جائز في الدين، فيكون جواب محاوره هو أن الإمام مالك قد أفتى بجوازه. في مثل هذه الأمثلة المتداولة نسمع مطالبة الدليل، ونسمع من يقدم أشياءا على أنها أدلة، هذه الأشياء قد تكون جملة من اللغة الطبيعية وقد تكون صورة وقد يكون اسما لسلطة ما شخصية (الإمام مالك عند الفقهاء المالكية، ومثله الخبراء المشهورين في تخصصات معينة مثلا) أو مرجعية (القرآن عند المسلمين، أو الإنجيل عند المسيحيين، وما إلى ذلك).

غير أن هذه الاستعمالات، وإن جازت أن تكون منطلقا للتحليل، إلا أنها لا تتطابق مع التصورات المعروفة في المباحث التي تتناول الدليل، وخصوصا المنطق. ففي التصور المنطقي التقليدي للدليل نجد ان الدليل يعرف بكونه «مجموعة من القضايا بحيث أن إحداها تُقدَّم كدعوى تابعة لأخريات، حيث تُقدَّم هذه الأخيرة باعتبارها سندا أو أسسا لصدق الأولى». وفي صيغة أخرى يعرفه بأنه: "مجموعة من القضايا بحيث أن إحداها، النتيجة، يُدَّعى صدقها بناء على الأخريات، المقدمات، بحيث أن هذه تقدم كأسس أو مبررات لقبول النتيجة"[١]. وهذا تعريف يعود أصله إلى أرسطو عندما عرف القياس في كتاب التحليلات الأولى على أنه «قول إذا وضعت فيه أشياء أكثر من واحد لزم شيء ما آخر باضطرار"[٢]. لكن هذه التصورات المنطقية للدليل أتهمت من قبل المنظرين المعاصرين للحجاج (وهم من ذوي تخصصات مختلفة منها: المنطق والخطابة والتواصل) بالاختزال والبعد عن الواقع. لذلك صارت كبرى مهمات النظريات الحجاجية المعاصرة هي أن تقدم تصورا ملائما للدليل كما يرد في الواقع. تصور يمكنه أن يراعي الأبعاد الواقعية المختلفة التي يستعمل فيها الدليل. وهي أبعاد غير محددة بمجال معرفي أو عملي معين، لكنها مرتبطة كلها بالإنسان.

1- Irving M. Copi and Carl Cohen: Introduction to Logic (New York, Macmillan Publishing Company, 8th ed, 1990), p: 6-7.

٢- أرسطو: منطق أرسطو (تحقيق: عبدالرحمن بدوي، الكويت- بيروت، وكالة المطبوعات- دار القلم،١٩٨٠)، ص: ١.

ورغم أنه من الصعب تقديم تحديد دقيق للمفهوم من الدليل الواقعي ما لم نقم باختيار منهجي وتأويلي مسبق، إلا أنه من الممكن أن نعرض للقدر الأكبر من الأبعاد التي يتسم بها. ذلك أن ما يهمنا هنا هو استكشاف الملامح الواقعية للدليل، ومحاولة تحديد ما الذي تعنيه الدراسات الحجاجية عندما تصف الدليل بالواقعي. يتسم الدليل بعدد من الأبعاد التي تجعله يتبدى في مظهر واقعي، هذه الخصائص العامة والظاهرة قد تفيدنا في تلمس المعنى المقصود بواقعية الدليل، والتي تتجلى فيما يلي:

– البعد النفسي: لا ينفك الدليل عن الإنسان، بل إن الأدلة موجودة في الإنسان[٣]، من جهة كونها بناءات من ذهنه، ومن جهة كونها فعاليات معرفية (Cognitive) ومن جهة تعلقها بانفعالاته ومن جهة ارتباطها باعتقاداته ومقاصده. وسواء كان الأمر يتعلق بمُنتجه أو بمُتلقيه، فإن الدليل شديد الارتباط بالمكونَ النفسي في الإنسان. وهو يتجلى في مستويات مختلفة: أحدها أن الدليل مصدره الإنسان وما يعتمل فيه من عمليات بعضها عقلي معرفي وبعضها انفعالي، بعضها واع وبعضها غير واع. إن الدليل بهذا المعنى هو نتاج عمل ذهني، إن لم يكن هو بالذات عملا ذهنيا. ويتجلى هذا البعد في ما يسميه النظار بالتعقل (Reasoning) في الدراسات المنطقية والنفسية والفلسفية عندما يناقشون العلاقة بين التعقل واللزوم من جهة، والدليل من جهة أخرى، هل هما متطابقان أم أنهما مختلفان؟ بالإضافة إلى الإشكال الآخر المتعلق بطبيعة النظر هل هو داخلي نفسي أم خطابي اجتماعي خارجي؟

ويتجلى المستوى المعرفي من الدليل في المفهوم من النظر واللزوم، عند بعض النظريات ذات التوجه المعرفي أو التي تراعي البعد المعرفي من النظريات الخطابية وغيرها، ف«التجربة اللزومية والإدراكية للانتباه إلى الدليل أو إلى الحاجة إليه؛ وفعاليات الذاكرة في تخزين واستحضار وإعادة بناء العناصر المعرفية المناسبة؛ وفعالية معالجة المعلومات المطبقة على الدليل وعلى أجزائه المفترضة؛ والطاقات الإبداعية التي تكوّن أدلة جديدة أو تستجيب لأخرى؛ والملكات الإنتاجية التي تعطي للأقوال صورتها. وعملية معالجة المعلومة، التي تشبه القياس، هي التي توصف بدون منازع بالتعقل[٤]. ويضاف إلى هذا الجانب جانب نفسي آخر، إذ بعد تخلص نظرية الحجاج من المقاربة الصورية الضيقة للدليل، أعيد النظر في أحد مكونات الدليل المعروف في مجال الخطابة، وهو البعد الانفعالي في الدليل. إن دور الانفعال هو ذلك الذي التفت إليه أرسطو في كتاب الخطابة والذي سماه ب "الباثوس (Pathos)"، والذي تجتهد النظريات الحجاجية لمراعاته وتحديد المكان المناسب له في نظرياتهم، من حيث كونه واقعا لا محيص عنه عند التعامل مع الدليل. ذلك أن الانفعال قد يكون منطلقا للدليل وقد يكون مصاحبا للدليل وقد يكون نتيجة للدليل، خاصة إذا راعينا المقام الحواري للدليل. وفي هذا المقام نشهد حضور توجيه الهوى والغرضية والمغالطات المستحضرة للانفعال من تهديد واسترحام واستمالة، وغير ذلك. وهذه أمور تحضر في كل المقامات التي يحضر فيها الدليل، من المقامات الإنسانية العادية واليومية إلى المقامات الفئوية التخصصية، في المؤتمرات العلمية والفلسفية وفي القضاء وفي السياسة وفي الخطابات الدينية والأخلاقية، وغيرها. غير أن الحديث بهذه الطريقة قد يفيد أن الانفعال هو مركب مضاف إلى الدليل، وليس جزءا منه، وهذا أحد أهم المناقشات التي تشغل ميدان البحث في نظريات الحجاج والخطابة، بالإضافة إلى مسألة مشروعية التوسل بالانفعال في الحجاج. لكن ما

3- Wayne Brockriede: "Where is Argument?" In Perspectives on Argument, Proceedings of the Summer Conference on Argumentation., ed. Robert Trapp and Janice Schuetz, (News York – Amsterdam -Brussels: International Debate Education Association, 1980) , p. 6

4- Dale Hample: "A Third Perspective on Argument", Philosophy and Rhetoric, 18 (1), 1985, p. 2

هو شبه متفق عليه أنه لا انفكاك للدليل الواقعي من الانفعال. هناك عامل آخر مهم متعلق بالدليل يمكن تصنيفه مؤقتا في المجال النفسي للإنسان هو القصد. فالدليل ينطوي على معنى ما، والمعنى كما تقرر بعض النظريات التداولية يتعلق بمقاصد المتكلم وبتعرف المستمع على هذه المقاصد، وتبعا لذلك، فإن الدليل هو أيضا مرتبط بمقاصد الفاعل له وبه والمنفعل به. إذا كانت أفعال العقلاء مصانة عن العبث وكان الدليل فعلا إنسانيا عقلانيا فهو بذلك محكوم بمقاصد، هذه المقاصد في أمور غير ظاهرة قابعة في الفعاليات النفسية الإنسان. وتكاد كل النظريات الحجاجية المعاصرة تجمع على الدور الذي يلعبه هذا العامل في الدليل، غير أن طبيعته وقيمته ودرجة فعاليته تختلف من نظرية إلى أخرى.

– البعد الاجتماعي والتواصلي: ليس الدليل منقطعا عن الواقع الإنساني الجماعي ثاويا محصورا في الجهاز النفسي للإنسان فقط، إنه بالأحرى جزء مهم من التواصل الاجتماعي، وهو يتقلب بين حالين في علاقة تبادلية: أن يكون أصلا للعلاقات الاجتماعية، وأن يكون نتيجة للعلاقات الاجتماعية. إن الدليل بالمعاني المتعارف عليها، على الأقل في المرحلة التي يقدمه فيها الإنسان للتداول الخارجي، يمثل رسالة تواصلية إلى مُستقبِل، هذا المستقبل يفترض أن يأتي برد فعل على هَذا الدليل، هذه العملية التي يصطلح عليها الحجاج، ويرادفها البعض بمفهوم الدليل نفسه، هوفعل اجتماعي. فقد يكون الدليل انطلاقا لعلاقة اجتماعية، عندما يخرج الدليل من ذات الدال قولا أو كتابة في اتجاه متلق محدد أو غير محدد، ومباشرة بعد تفاعل المتلقي مع الدليل إيجابا أو سلبا ينطلق تواصل حواري يتخذ عند البعض صفة الإقناع فقط، ويتسع عند البعض لتفاعلات أخرى إضافة إلى الإقناع. وهذا النوع من التفاعل الذي ينطلق من الدليل لا يتوقف فقط عند التواصل اللغوي، بل قد يصل إلى التأثير المتبادل وتشكيل علاقات الإتفاق والاختلاف في القضايا النظرية والعملية، التي تهم الفرد والجماعة معا؛ كما أن الدليل قد يكون نتيجة لعلاقة اجتماعية ما، ذلك أنه لا تخلوا علاقة اجتماعية ما بين شخصين أو أكثر من التفاعل بالدليل، يتجلى ذلك في حضوره في أكثر المؤسسات الاجتماعية، سواء منها الموصوفة بالطبيعية مثل علاقات القرابة العائلية والزواج والتجارة والصداقة أو التي تتخذ بعدا رسميا، مثل المؤسسات السياسية والقانونية والعسكرية والمنظمات المدنية والخيرية والنوادي والشركات وغيرها، كل هذه المؤسسات تجعل، قصدا أو عن غير قصد، من آليات استمرارها التداول في قضاياها بالدليل والحجاج عوضا عن الآليات الأخرى في حسم الخلاف والتأثير الاجتماعي. إن إنتاج الدليل، إذا كان حصيلة تعقل، فهو حصيلة تراكم معطيات معرفية مستقاة من التنشئة الاجتماعية المستمرة من الظروف الاجتماعية المحيطة، والأدلة مهما كانت درجة تجريدها محكومة بطبيعة هذه التنشئة وهذا المحيط. وعموما، لا ينفك الدليل عن التواصل الاجتماعي من حيث كونه ذا مصدر إنساني من جهة، ومن حيث إن من يتلقاه إنساني من جهة أخرى. وسواء كان هذا التواصل الاجتماعي مباشرا أو غير مباشر، فإنه يشكل البيئة الحيوية التي يتحرك فيها الدليل. إن الدليل هو ذو أصل اجتماعي وفعالية اجتماعية وله تأثير اجتماعي.

– البعد القيمي: بحكم اجتماعيته، لا ينفك الدليل عن القيم إما متأسسا عليها أو مؤسسا لها أو مصححا لها. فالدليل لا شك يراعى في إنتاجه وتلقيه قيما متعلقة بمصدره أو متلقيه أو المقام المحيط به، كما أن من القيم ما يمكن تأسيسه بالدليل، ومنها ما سيكون خاضعا للتصحيح والتقويم بالدليل. يقول **بيرلمان** في هذا الصدد "إن القيم تدخل، في لحظة أو أخرى، في كل الأدلة. [...] في الميادين القضائية والسياسية والفلسفية تدخل القيم كأساس للحجاج على طول مراحل تطورها. ويتم اللجوء إليها من أجل دفع المتلقي للقيام بخيار دون آخر، وخاصة من أجل تعليل هذا الخيار بطريقة تجعله مقبولا ومستحسنا من قبل

الآخر»[٥]. تتجلى أهمية القيم للدليل في أوجه كثيرة منها: «أولا، إن القيم تساعد المستدلين في اختيار دعاواهم وتحديد المسائل المهمة؛ وثانيا، أنها يمكن أن تلعب دورا في أي جزء من أجزاء الدليل بما فيه الدعوى أو الأسس أو الضمانة. إنها تظهر كمبررات للمواقف والقرارات المتخذة؛ وثالثا، أنها تقدم أرضية مشتركة حقيقية أو مفترضة بين المتحاجين، وتربط الأدلة بالمتلقي. ورابعا، أنها تقدم الوسائل للانتقادات التي تهدف لفحص الدليل العمومي»[٦].

-البعد العملي: اتفقت معظم النظريات الخطابية على البعد العملي للحجاج، من حيث أنه فعل غاية إقناع المخاطب من أجل اتخاذ قرار عملي، كما هو الشأن بالنسبة للخطلة السياسية أو الخطابة في المحكمة، وقد أثل أرسطو في كتاب الخطابة مفهوم الدليل الخطابي ضميرا كان أو مثالا لكي يكون توصيفا لظاهرة واقعية تستهدف التأثير على المخاطَب لأجل اتخاذ قرار عملي، والمعيار الذي يتم به تقييم نجاح الحجاج الخطابي هو النجاعة في تحقيق الهدف، أي في إقناع الآخر المتجلي في اتخاذه التصرف العملي المعبر عن هذا الاقتناع، كحكم القاضي لصالح الخطيب أو موافقة المستشارين على القرار الجماعي السياسي للخطيب. وفي التنظير المعاصر للدليل، وخاصة بعد انبثاق نظرية الخطابة الجديدة تم توسيع الدليل الخطابي ليكون ملائما لمقامات أخرى غير تلك التي خصصها فيه أرسطو، بل صار البعد العملي للدليل أمرا مقررا ومتفقا عليه. ويدل عنوان "اتخاذ القرار من خلال النقاش"[٧]، وهو أحد أشهر المصنفات في مجال الحجاج في الولايات المتحدة الأمريكية في الستينات والسبعينات، على جوهرية البعد العملي للدليل. الدليل في ذاته فعل من الأفعال سواء كان بمعنى الفعالية التعقلية أو الفعل اللغوي أو الفعل التواصلي. فيكون الدليل بذلك تجليا لفعل إنساني لتحقيق غرض عملي، سواء كان هذا الغرض معرفيا صرفا أو تأسيسا لاتخاذ قرار عملي. وقد ينفتح هذا الطابع العملي الفردي على طابع عملي عمومي فيلامس بذلك مفهوم السياسة باعتباره مجالا لاتخاذ القرار جماعيا.

إن تعدد هذه الأبعاد الواقعية يقابلها تعدد واختلاف في التعاطي مع مفهوم الدليل، إذ لا نجد اتفاقا بين المتخصصين في نظرية الحجاج على تعريف واحد للدليل، ولا حتى على المنهج الذي يجب الاعتماد عليه من أجل صياغة التعريف. نقطة الانطلاق كانت عبر تحليل المعنى اللغوي والاستعمالي لكلمة "Argument"، إذ يعتبر "**دانييل أوكيف**" (Daniel O'keefe) أول من ميز ازدواج معنى "Argument" في اللغة الإنجليزية وفي الدراسات الحجاجية بين معنى الدليل كشيء أو كمنتوج ومعنى التدليل كممارسة، ففي مقالة مشهورة تحت عنوان "تصوران للدليل". لاحظ "أوكيف" أن اللفظ الانجليزي Argument له معنيان في اللغة الجارية، معنى يفيد أنه عبارة أو مجموعة عبارات أو فعل تواصلي كقولهم "His Argument is strong" أو "He made an argument"؛ ومعنى أنه تفاعل بين طرفين على الأقل، كقولهم "They had an argument" أي كان بينهما (أو بينهم) نقاشا أو جدالا. ويشير "**أوكيف**" إلى أن التمييز بين هذين المعنيين غائب في الكتابات الحجاجية، مبينا أن لذلك نتائج سلبية في البحث في هذا الميدان، كما أنه بشر بأن العمل بهذا التمييز سيؤدي لا محالة

5- Chaim Perelman and Lucie Olbrechts-Tyteca: Traité de L'argumentation: La nouvelle Rhétorique. (Paris, P. U. F, 1958), p. 100.

6- Gregg B. Walker & Malcolm O. Sillars: «Where is Argument? Perelman's Theory of Values» In Perspectives on Argument, Proceedings of the summer conference on argumentation. Ed. R. Trapp & J. Schuetz (New York - Amesterdam - Brussels: International Debate Education Association, 1980), p. 137

7- Ehninger, D., and W. Brockriede: Decision by Debate (New York: Dodd, Mead, 1962).

إلى تقدم ما في دراسة الدليل[٨]. لقد زكى هذا التمييز اللغوي التمييز المنهجي للتعامل مع ظاهرة الدليل بين التصور الذي يرى في الدليل منتوجا مكتملا مكونا من مجموعة عبارات مترابطة بعلاقات منطقية، وهذا هو التصور منطقي، وبين من يرى أنه الدليل ليس منتوجا مكتملا، بل سيرورة استدلال غير مكتملة، وأن انتزاع مجموعة عبارات من هذه السيرورة لا يعبر عن الطبيعة الحقيقية للدليل. وبالإضافة إلى هذا التمييز الأول بين الدليل كمنتوج والدليل كسيرورة أو فعالية، أضاف كل من «**دوغلاس إهنينكر**» (Douglas Ehninger) و"**واين بروكرايد**" (Wayne Brockriede) معنى ثالثا هو الدليل كمسطرة أو كمنهج جدلي استكشافي من اجل تحصيل المعرفة أو من اجل اتخاذ قرار عملي. ويدعو دال هامبل إلى اعتبار وجه آخر من الدليل، سماه Argument، وهو الدليل بمعناه المعرفي (cognitive)، أي تلك الفعالية الاستدلالية التي يقوم بها الإنسان في ذهنه قبل أن يخرج دليله إلى العلن عبر اللغة أو أي نسق تواصلي آخر. من خلال هذه المعاني المتعددة الصادرة عن المقاربات المختلفة يمكن لنا تلمس اتساع مجال القول في الدليل.

٢. الاستدلال واللغة:

من الصعب تحديد العلاقة بين الدليل واللغة الطبيعية في دراسة الدليل. إذ أن كل عناصر هذه العلاقة تبقى في ذاتها ملتبسة. يمكن أن نميز في هذه العلاقة بين وجهين: وجه تكون فيه اللغة الطبيعية «فقط» مقاما للدليل، على أن الدليل نفسه ليس بالضرورة خطابا طبيعيا، إن اللغة الطبيعية هنا هي بمثابة الملعب الذي يلعب فيه الدليل، وبذلك يكون الخطاب الطبيعي ظرفا للدليل؛ والوجه الثاني هو أن اللغة الطبيعية، بالإضافة إلى كونها مقاما، تمثل مادة الدليل نفسه. ذلك أن الدليل، على الأقل في أحد تأويلاته، هو أولا وأخيرا خطاب طبيعي متميز. وتتعقد هذه العلاقة بالنظر إلى تعقد التمثلات التي يمكن إعطاؤها لكل من طرفيها. ولكل تأويل من التأويلات الممكنة نتائج متميزة.

وإذا كان من الطبيعي أن تحصر التصورات التقليدية مجال الدليل والحجاج في اللغة الطبيعية والصورية، فإن الكثير من التصورات الحجاجية المعاصرة قد اتفقت على حصرهما في اللغة الطبيعية. من أشهرها التصور الذي تدافع عنه المدرسة الهولندية، إذ تقرر هذه الأخيرة أن "الحجاج يتطلب استعمال اللغة. ذلك أن الشخص المنخرط في حجاج يقوم بإقرارات أو عبارات، يفترض أمراً ما أو يشكك فيه أو ينفيه وهكذا. ولتحقيق كل ذلك لا بد له أن يقول كلمات وجمل (سواء كانت مكتوبة أو شفوية). وبالإضافة إلى هذه الوسائل اللغوية، يمكنه، تماما كما في مثل الأنشطة اللغوية الأخرى، استعمال الوسائل غير اللغوية (مثل: تعابير الوجه والإشارات)، ولأجل أن تحقيق هذه الوسائل لوظيفة حجاجية يجوز دائما أن تكون قابلة للتعبير في شكل لغوي. وإلا فإن الوسائل غير اللغوية للتواصل لا يمكن أبدا أن تعوض بشكل كامل الوسائل اللغوية: الحجاج بدون لغة محال»[٩]. نفس الموقف يعبر عنه «كنوبر» الذي يقرر أن الرموز غير اللغوية يمكن أن تستعمل في الدليل، لكنها لا تعمل كأدلة ما لم يتم ترجمتها لغويا. ويدعي بالثروب أن الدليل هو أساسا خطابي ولغوي، وأن التصور الذي يرى أن الأشكال غير الخطابية أو الفنية يمكن أن تكون أدلة قد يمنع الدليل من تأدية وظيفة تقديم الإسناد أو التعليل. وفي هذا الاتجاه أيضا، يرى كل من تولمين وريكي وجانيك أن التعقل لا يمكن أن يكون في غياب اللغة وكل من "الدعوى" و"الاعتبارات المستعملة لإسنادها" يجب أن يتم التعبير عنها بنسق من الرموز اللغوية[١٠]. ويدافع كل من

8- O'Keefe, J. Daniel.: "Two concepts of argument.", (Journal of the American Forensic Association, 13 (3)), pp. 121-2.

9- David Fleming: "Can Pictures be Arguments?" (Argumentation & Advocacy, 33 (1), 1996), p. 11.

10- Ibid.

جونسون وبورلسون على حصرية استعمال اللغة في الدليل دون غيرها، محاولين تفنيد التصورات التي تقول غير ذلك[١١].

عموما يمكن التمييز في تصورات المستبعدين للتصور في تأطير الاستدلال والحجاج إلى مستويين: استبعاد كلي لأي عنصر غير لغوي في الدليل، حيث لا يعتبر أي شيء آخر غير اللغة في الحجاج، الحجاج بداية ونهاية ذو طبيعة لغوية لفظية. واستبعاد جزئي، يقر بأن الحجاج هو أساسا ذو طبيعة لغوية، مع الأخذ بعين الاعتبار التواصل غير اللغوي كعامل مساعد. بمعنى، ليس هناك حجاج بتواصل غير لغوي فقط.

٣. الاستدلال والتواصل غير اللغوي:

هناك من التواصل بين الناس ما ليس تواصلا لغويا، وهو المعروف بالتواصل غير اللغوي (communication non-verbal). وبناء عليه، فإن الذين يعتبرون الدليل نوعا من التواصل لا بد وأن يصلوا إلى الاعتراف بوجود أدلة تصويرية غير لغوية عموما. هذا من جهة، من جهة أخرى فإن استقراء الواقع يفتح الباب لاحتمال قوي بوجود دليل تصويري غير لغوي، خاصة في وسائل الإعلام الحديثة، حيث يتلقى "المشاهد" أطباقا متعددة متنوعة من الخطابات الإقناعية المباشرة وغير المباشرة، القولية والسمعية والبصرية. مما يستدعي من الباحثين في مجالات التواصل والخطابة والمنطق تحليل هذه الخطابات وبناء نظريات تفسيرية وتقويمية ملائمة لفهم وتقويم هذه الخطابات. وإذا كانت الأبحاث في هذا الموضوع في نظريات التواصل والخطابة متقدمة، فإنها في مجال المنطق ونظرية الحجاج لا زالت تتلمس طريقها الصعب والوعر؛ ولا يمكن إرجاع هذا التأخر إلا للصعوبات النظرية والمنهجية التي تكتنف البحث في موضوع الدليل والاستدلال كما يردان في الواقع واللغة الطبيعية. مما يعني أن إضافة السياق غير اللغوي يزيد من تعقيد هذا البحث.

يفهم من التواصل غير اللغوي التواصل الذي يتم بين طرفين أو أكثر من خلال وسيط سيميائي غير اللغة. كما هو الشأن بالنسبة لإيماءات والإشارات والحركات والصور وغيرها التي يقوم بها الإنسان لتبليغ معلومة للآخر أو التعبير له عن انفعال أو التأثير فيه. واتسعت الدراسات السيميائية المعاصرة لتشمل دراسة هذا النوع من التواصل، خاصة الجانب الدلالي منه، في إطار نظريات متعددة.

لقد كان أرسطو سباقا إلى الإشارة إلى الأدوار التواصلية التي تلعبها الأمور غير اللغوية في الحجاج والاستدلال. ونجد هذه الإشارة مؤطرة في تصوره للخطابة. ففي المقام الخطابي يتم التعامل بمرونة أكثر مع صور ومضامين الاستدلال والحجاج. يتميز الاستدلال الخطابي عند أرسطو بأنه لا ينحصر في وجهه اللغوي/العقلاني (Logos) وحده، كما هو الشأن في الاستدلال البرهاني والاستدلال الجدلي، بل يشاركه وجهان آخران: الوجه الانفعالي (Pathos) والوجه الأخلاقي (Ethos). ويمثل الضمير عمدة الاستدلال الخطابي، وهو في المعنى المشهور (غير المأخوذ من كتاب الخطابة): "قياس ناقص مكون من التشابهات والعلامات"[١٢]. إن مجال الاستدلال الخطابي عند أرسطو يسمح بدخول الكثير من العناصر التي يمتنع دخولها في الاستدلال القياسي في المنطق. إذ يتميز مجال الخطابة بكونه مجالا الاحتمال، حيث تشكل العلامات، مثلا، عناصر غير حاسمة عند استعمالها في الاستدلال الخطابي (الدخان علامة للنار مثلا). كما يسمح الاستدلال

11- R. Burleson: "The Place of Nondiscursive Symbolism, Formal Characterizations, and Hermeneutics in Argument Analysis and Criticism" (Journal of American Forensics Assocoation, N.16, 1980), p.222-31; Ralph H. Johnson: Manifest Rationality: A Pragmatic Theory of Argument, (Mabwah/London: Lawrence Erlbaum Associates Inc, 2000).

١٢- أرسطو: منطق أرسطو (تحقيق: عبد الرحمن بدوي، الكويت وبيروت، وكالة المطبوعات ودار القلم، ١٩٨٠)، ٧٠ أ ١٠.

الخطابي بأن يكون للحال الأخلاقي للمتكلم دور ما في الإقناع، دون أن يكون هذا الحال معبرا عنه باللغة. وبعد النهضة الحجاجية التي أعقبت طغيان التصورات المنطقية الصورية للاستدلال من جهة والتصورات الخطابية الأسلوبية من جهة أخرى، انطلق التنظير لإدماج العناصر غير اللغوية في الدليل في إطار نظريات حجاجية تستحضر الجهد الأرسطي في كتاب الخطابة. وسواء كانت هذه العناصر غير اللغوية أمورا كانت معروفة عند أرسطو (الحال الأخلاقي للمتكلم وأفعاله) أو كانت غير معروفة (الصور والفيديو مثلا)، فإن خطابة أرسطو تضمنت عناصر نظرية قادرة على أن تشكل بداية لتأصيل هذا الجانب في الاستدلال.

٤. الاستدلال بالصور:

وفي هذا السياق، يدعو **غروركي** وبيردسِل إلى توسيع نظرية الدليل من خلال اعتبار التصوير في الدليل، على اعتبار أن نظرية الحجاج من دون هذا التوسيع لن تجد طريقا لحل العديد من المشاكل التي يفرضها الاستعمال المكثف لحيل تصويرية، صارت تلعب دورا مهما في ممارستنا الحجاجية، حتى تكون قابلة للتقويم من خلال معايير حجاجية. إنهما يقترحان توسيع معنى "الضمير" كما أثله **أرسطو** في كتاب الخطابة، لأنه يفتح الباب لاعتبار الجوانب الأخلاقية والانفعالية بالإضافة إلى العقلانية في الدليل. هذه الأدلة يمكن تحليلها انطلاقا من النسق الخطابي الأرسطي، بالتساؤل عن الكيفية التي يمكن بها فهم وتقييم هذه الأدلة من وجهة النظر العقلية (Logos) والانفعالية (Pathos) والأخلاقية (Ethos)[١٣]. ويعرف غروركي وبيردسِل الدليل التصويري بأنه الدليل (بمعناه التقليدي الذي يتكون من المقدمة والنتيجة) الذي يُبَلَّغ في صور[١٤]. وتفهم الأدلة التصويرية على أنها أدلة قضوية يعبر عن قضاياها ووظيفتها الحجاجية وأدوارها بشكل تصويري، بالتلوين والرسم والصورة الفوتوغرافية والنحت والفيلم والفيديو للصور والرسوم والرسوم المتحركة والتصوير بالحاسوب مثلا[١٥].

يمكن للصور أن تلعب أدوارا مهمة في كثير من الأدلة؛ فهي تمثل معلومات وبينات دقيقة وملائمة في بعضها، وفي بعضها يكون لها دور خطابي إضافي أكثر بلاغة وإقناعا من الكلمات. وبعض الأدلة التصويرية تتكون كليا بعناصر تصويرية؛ وبعضها الآخر يتكون من خليط من اللغة والصور[١٦]. لكن ليس كل دليل يتضمن صورا سيعتبر دليلا تصويريا، وإنما يميز «غرووركي» في الوظائف التي تلعبها الصور التي ترد في الدليل إلى ثلاثة أقسام:

١- صور لا تلعب أي دور حجاجي أو إقناعي.

٢- صور تلعب دور العلَامة المثيرة للانتباه، أي أن دورها ينحصر في إثارة الانتباه إلى الدليل اللغوي الذي يرافقه.

٣- الصور التي تبين أنه يمكن أن تفهم على أنها خطاب أو أفعال تواصلية تساهم بشكل مباشر في التفاعل الحجاجي[١٧].

لا يمكن حصر الصور في الأنواع المستعملة في الإعلام فقط، بل إنها تشمل حتى الخطاطات والنماذج التصويرية المستعملة في العلوم الدقيقة حتى الصورية مثل الرياضيات. الدور الذي تلعبه هذه الصور في العلوم قد لا يكون محصورا في التوضيح بل يتعداها إلى أن يكون جزءا من التعقل[١٨]، بالتالي الاستدلال. يمكن للصور أن تكون جزءا أساسيا من الدليل، بحيث لا تقوم للدليل قائمة من دونها. صحيح أن هناك إمكانية لترجمة أغلب هذه الصور إلى اللغة الطبيعية أو الرمزية. إلا أن هذا لا يعني أن هذه الترجمة ترفع

13- David S, Birdsell and Leo A Groarke: "Outlines of a Theory of Visual Argument." (Argumentation and Advocacy, 1 (43), 2007), p: 103.

14- Ibid., p:103

15- Anthony J. Blair: Groundwork in the Theory of Argumentation: Selected Papers (Dordrecht-NewYork – London, Springer, 2012), p: 209.

16- Birdsell & Groarke: "Outlines of a Theory of Visual Argument.", p: 103; Gilbert, 2003, p:8.

17- Ibid.

١٨- بناصر البعزاتي: الاستدلال والبناء: بحث في خصائص العقلية العلمية (الرباط والدارالبيضاء، دار الأمان والمركز الثقافي العربي، ١٩٩٩)، ص:٢٤٠

من أصلية اللغة في مقابل الصورة، كما أننا لا نسلم أن كل هذه الصور يمكن ترجمتها إلى اللغة[١٩].

قد لا نجد كثير اعتراض على إمكانية استعمال الصور في الاستدلال استعمالا جزئيا، بمعنى أن يكون الاستدلال مكونا من الصور والعبارات اللغوية، لكننا نجد اعتراضات كثيرة على إمكانية الاستدلال التصويري الكامل. لذلك فإن عبء البحث والاستدلال الملقى على الدارسين الساعين لإدماج دراسة التواصل التصويري في دراسة الاستدلال والحجاج هو إثبات إمكانية الاستدلال التصويري الكامل. وفي هذا السياق نقف وقفة مع بعض الاعتراضات (العوائق) التي تواجه فكرة الاستدلال التصويري الكامل. وهي التي يمكن أن تصنف إلى صنفين: صنف يمثل الاعتراضات المنطقية التي تحكم بصعوبة أو استحالة جعل مجموعة من الصور تنتظم في بنية منطقية لزومية. فإذا كان المنطق يدرس أساسا ذلك الاستدلال الذي ننتقل فيه من مقدمات (مبررات أو أسس أو غيرهما) إلى نتيجة (أطروحة أو موقف أو غيرهما)، فإن ما يسمى "الاستدلال التصويري" غير موجود أو أنه وجوده عرضي فقط، لأننا لا نستطيع أن نميز في مجموعة صور بين المقدمات والنتيجة[٢٠]؛ الصنف الثاني من الاعتراضات يدور حول الجانب الدلالي. وهي تركز على قدرة الصور على التعبير عن دلالات محددة، تسمح للمتواصلين بها تبادل المعاني والتفاهم وبالتالي الحجاج. يمكن إيجاز أهم مبررات المعترضين كما تتجلى في أننا لا نجد في الصور إثباتا، بمعنى أنها لا تقدم لنا عبارات قابلة لأن توزن بمعيار الصدق والكذب، بل إنها تشير إلى المدلول ولا تعبر عنه. ومن وجهة أخرى، لا يمكنها أن تعبر عن النفي بمعناه الدلالي والمنطقي أو الإبطال بالمعنى الجدلي. فإذا استطاعت صورة ما أن تعبر عن فكرة ما، فلا يمكن أن نجد صورة أخرى قادرة على نفي ما تعبر عنه الصورة الأولى أو إبطالها بشكل مباشر. وهذا أمر مرتبط أساسا بما يعتقده المعترضون من أن الصورة يغلب فيها الغموض والاشتباه ما يمنعها من القيام بالوظائف التي تقوم بها العبارات اللغوية. إذ أن الكلمات، على عكس الصور، لها سلطة معترف بها في مجال الدليل والحجاج. والصور هي ذات طابع انفعالي، وليست أبدا معرفية[٢١].

لا أحد يدعي أنه يملك الإجابة الكاملة عن هذه الاعتراضات، كما أنه ليس من المسلم أن كل تلك الاعتراضات ثابتة وحاسمة في ما تروم الوصول إليه. ذلك أن الحسم ليس في متناول البحث في مجال نظرية الاستدلال والحجاج فقط، ولا يتخذ صبغة دراسة نظرية فقط. إن الإجابة عن هذه الإشكالية عموما، وعن هذه الاعتراضات على الخصوص، يجب أن تكون نتيجة لدراسات معمقة في مجالات أخرى خارجة عن ميدان نظرية الاستدلال والحجاج، وخصوصا نظريات التواصل والسيميائيات والأنتروبولوجيا وعلم النفس وعلوم اللغة وفلسفتها وفلسفة الصورة وخطابتها وغيرها من المباحث. ودراسة الصورة من وجهة نظر هذه المباحث لا زالت في بدايتها، وهي تسير في عصرنا بوتيرة متسارعة. لذلك فإن الأفكار التي سنواجه بها هذه الاعتراضات في هذا المقام ليس من جنس الكشف العلمي، بقدر ما هي من جنس استحضار بعض العناصر النظرية من مباحث مقررة، بالإضافة إلى الكشف عن بعض المصادرات المنهجية المضمرة، والتي نرى أنها تؤدي إلى أخطاء في تقويم فكرة الاستدلال التصويري. ولعل أو ما نبدأ به أن أغلب الاعتراضات تأتي أولئك الذي يحاولون دراسة الدليل من وجهة نظر معيارية، وهم في الغالب المهتمون بالمنطق والجدل، لذلك، تجد أن أغلب المعترضين هم أولئك الذين يتبنون تصورا للدليل باعتباره منتوجا، مما يعني أن التصورات الأخرى للدليل قد تكون أكثر انفتاحا

19-Blair: Groundwork in the Theory of Argumentation , p: 209.

20- David Fleming: "Can Pictures be Arguments?", p.14.

21- Ibid, pp. 14-17; Ralph H. Johnson : «Why 'Visual Arguments' aren't Arguments.» In: Hans V. Hansen, Christopher Tindale, J. Anthony Blair and Ralph H. Johnson (Eds.). Informal Logic at 25 (University of Windsor, CD-ROM, 2005)

لقبول الأنواع غير اللغوية، ومنها التصويرية[٢٢]. يضاف إلى هؤلاء دارسو الحجاج ذوو التوجه الجدلي، ويغلب عليهم التوجه المعياري، بمعنى أنهم ينظرون للكيفية التي يجب أن يسير عليه الحجاج ليكون جيدا، وقلما تجدهم يستكشفون الجدل كما يمارس فعلا في الواقع. وحتى في كلا التوجهين المنطقي والجدلي، نجد صراعا بين مقاربة صورية بنيوية ومقاربة تداوليّة، عندما يتعلق الأمر بالاستدلال الطبيعي، على اختلاف الدرجات في كلا المقاربتين. نكتفي هنا ببعض الملاحظات المتعلقة بالاعتراضات التي لها طابع دلالي. لنجيب عليها بمقررات نظريات حجاجية معاصرة.

إن الحديث عن الصورة وعدم قدرتها على الإقرار والنفي على المستوى الدلالي أو الإثبات والإبطال في المقام الجدلي، مؤسس على أساس أن التقويم يتم بالنظرية المنطقية الدلالية المسماة بنظرية الصدق، أي تلك التي تقيس العبارة بمعيار الصدق والكذب. فتكون العبارة إما صادقة أو كاذبة، والعبارة الصادقة يكون نفيها كاذبا والعبارة الكاذبة يكون نفيها صادقا. إذا عدنا إلى المناقشات المنطقية والجدلية للدليل الطبيعي لوجدنا أن هذا المعيار نفسه هو محل نقد ونقض[٢٣]. بل إن نظرية الحجاج المعاصرة تخلصت أو كادت تتخلص من استعماله في تقويم الخطاب الطبيعي. اللغة الطبيعية نفسها في ممارستها الواقعية غير قادرة على استيفاء شروط التقويم الصدقي، فكيف تطلب الصورة استيفاءها. إن الصور تتميز بالاحتمال والترجيح بدل القطع. وهي بذلك، وإن شكلت تحديا حقيقيا للمناهج المقررة، إلا أنها تشكل رهانا لتطوير نظرية الاستدلال والحجاج. وفي النهاية نقول أن الاستدلال، حتى باللغة الطبيعية، لم يعد منحصرا في العبارات التقريرية. ولا تقويمه المادي يتم فقط بالصدق والكذب. فلا مناص من التفكير الجدي في توسيع حدود نظرية الاستدلال لتشمل هذه الأرض الخصبة للبحث.

إن كان الاشتباه الدلالي في اللغة الطبيعية قد دفع النظار في الحجاج إلى مراجعة مناهجهم التقويمية المنطقية والجدلية، فما الذي يمنع من تطوير هذه المناهج بصدد الاستدلال التصويري؟ تتميز الصور مثلها مثل الخطاب الطبيعي بالاشتباه ودرجة من الغموض. بل إن الدراسات تثبت أن الصور تكون، في كثير من الأحيان، أكثر وضوحا من حيث دلالتها من اللغة الطبيعية[٢٤]. كما أن اللغة قد تكون مجرد تعبير عما في الصورة، فتكون هذه الأخيرة هي الأصل. هذا بالإضافة إلى أن الغموض والاشتباه صفتان نسبيتان في اللغة الطبيعية وفي الصور. وبهذا يسقط الاعتراض حول مشكلة الاشتباه هذه. مع الأخذ بعين الاعتبار أننا الآن في حاجة إلى دراسات تتغيى إنتاج نظرية سيميائية في الصور توفر لنا منظومة مفاهيمية تسمح بتأويل الصور والرموز البصرية بشكل مقبول.

إن استحضار التأويل في الاستدلال بالصور أمر مطلوب، كما هو الأمر بالنسبة للاستدلال باللغة الطبيعية. والسعي إلى تقعيده رهان مستقبلي للدراسات السيميائية المتعلقة بالموضوع. رغم أن من النظار من يرى أن الأولوية الآن يجب أن تعطى للاستدلال الممارس باللغة الطبيعية[٢٥]. يجب أن نعترف سلطة اللغة الطبيعية في الحجاج، كانت نتيجة للنقاش الذي انحصر بين اللغة الطبيعية واللغة الصورية في الفلسفة التحليلية.

22- Michael A. Gilbert : "Is it Argument ? In Defense Of The Linguistically Inexplicable". In Informal Logic @25: Proceedings of the Windsor Conference. Blair, Anthony et al. (Eds.), (CD-ROM, Windsor, ON, OSSA, 2003, p:8.

٢٣- أنظر في هذا الصدد:

Charles L. Hamblin: Fallacies (New Port, Vale Press, 2004), pp :232-241.

24- Anthony J. Blair : "The Rhetoric of Visual Arguments" , In Defining Visual Rhetorics, ed. Charles A. Hill and Marguerite Helmmers, (Mahwah, Lawrence Erlbaum Associates Inc, 2008), P: 59.

25- Anthony J. Blair: "Thinking About Visual Argument". (A lecture by J. Anthony Blair, presented at the Universidad Nacional Autónoma de México, 5 December 2005), p. 10.

وان الكثير من النزعات المحافظة في هذا النقاش كانت تستعمل نفس الحجج التي يستعملها ذوو هذه النزعة الآن بصدد النقاش بين اللغة الطبيعية والأنساق السيميائية الأخر كالصور. إن نظرية الحجاج صارت مطالبة بتقديم أسس نظرية لتأطير الاستدلال غير اللغوي، بشكل مواز للبحث السيميائي السائر في اتجاه إعادة الاعتبار للأنساق غير اللغوية.

الخاتمة:

عندما يتم ربط الاستدلال فقط بمفهومي الصدق والصحة المنطقيين مفهوم الإبطال الجدلي، نجد صعوبة في تصور الاستدلال التصويري الكامل، لكن ربط الاستدلال بالإقناع الخطابي أو حتى بمفهوم اللزوم بمعناه المعرفي النفسي فإننا نكون أمام فرصة هائلة لتطوير تصور ملائم وشامل للاستدلال يشمل الاستدلال التصوري أيضا. إن استبعاد الصور من اعتبارها مادة للدليل في المقاربات المنطقية والجدلية هي نتيجة لمقاربتها الاختزالية للاستدلال، مقاربة تفرضها الأطر المنهجية التي تحكم هذه المباحث. إنها تسقط في تضييق لمفهوم الاستدلال من خلال النظر إلى وجوه محددة منه وغض النظر عن أخرى. فالمقاربات الذات الطبيعية المنطقية لا ترى في الاستدلال إلا منتوجا مكتملا يقدم في مجموعة عبارات ترتبط بعلاقة لزومية بين المقدمات والنتيجة، وتغفل عن فكرة أن الممارسة الفكرية واللغوية الحية الطبيعية لا تقدم مثل هذا المنتوج في شكله الجامد هذا. أما المقاربات الجدلية فهي تنظر إلى الاستدلال على أنه تفاعل اجتماعي بين طرفين أو أكثر يقدم فيه كل واحد منهم عبارات ومبررات من أجل إثبات قضية أو إبطالها، مع اتباع مسطرة منهجية تسمح بالحكم على أحد المتجادلين بالفوز أو الخسارة في تحقيق هدفه، وتغفل من جهة أخرى على أن الاستدلال قد لا يكون تفاعلا بين طرفين فقط، بل إنه ممارسة فردية في أساسها، وفي بعض الأحيان في غياب كامل عن المتلقي، كما هو الحال في الاستدلال الفاحص الذي يقوم به فرد متوحد مع نفسه.

إن المقاربة المنهجية التي يمكن أن تفيدنا بدرجة من الدرجات في دراسة الاستدلال عموما والاستدلال التصويري منه على الخصوص، هي المقاربة الخطابية. فمن وجهة النظر الخطابية يمكن أن تلعب المفاهيم الخطابية الأرسطية القديمة أدوارا مهمة في تأطير الاستدلال التصويري، كما هو الشأن لمفاهيم الضمير والعلامات والجانب الانفعالي والأخلاقي من الدليل الخطابي وغيرها. لكننا نحتاج إلى توسيع لهذه المقاربة لتشمل وجهة النظر المعرفية، التي نبحث فيها عن أبحاث ونظريات انشغلت بدراسة التعقل أو التفكير التصويري (Visual Thinking).

إن أغلب الاعتراضات التي تواجه تبني مشروع لتأطير الاستدلال التصويري نابعة من المباحث والنظريات التي يغلب عليها الطابع المعياري، وهي هنا النظريات المنطقية والجدلية. وهذه المباحث والنظريات لا زالت حبيسة أنساق نظرية قديمة تشهد تطورا بطيئا في مقاربة الممارسة الاستدلالية الواقعية، لأنها تسقط في اختزال هذه الممارسة في عناصر محددة تسمح لها بسهولة التناول.

وفي إطار النظريات التواصلية والخطابية التي تتناول الاستدلال، يمكن القول أنه لا يمكن استبعاد العناصر غير اللغوية، مثل العناصر التصويرية والأفعال الإنسانية وغيرهما، من العناصر المشكلة لمواد الدليل في أي تصور يريد أن يكون أكثر واقعية للدليل، رغم صعوبة تأطيره في نظرية للدليل. فلا أحد يعترض على الأقل أن تكون الصور جزءا من الدليل، لكن النقاش يكمن في إمكانية وجود دليل تصويري مستقل عن اللغة، وعن إمكانية صيغة نظرية متعلقة بهذا النوع من الدليل. ويجوز تعميم الحكم على عناصر أخرى. لكن الإقرار بإمكانية الدليل غير اللغوي سيفتح الباب لتوسيع هائل لنظرية الدليل من جهة، وسيضع على النظار عبئا أكبر لتقديم تصور غير تقليدي للدليل، يتضمن تعريفا للدليل خارجا عن الفهم اللغوي لمعنى الخطاب الطبيعي، قد يفتح الباب لتوسيع معنى خطاب من الأفق اللساني إلى أفق سيميائي أرحب.

المراجع

المراجع العربية:

-أرسطو: منطق أرسطو (تحقيق: عبدالرحمن بدوي، الكويت وبيروت، وكالة المطبوعات ودار القلم، ١٩٨٠).

-البعزاتي، بناصر: الاستدلال والبناء: بحث في خصائص العقلية العلمية (الرباط والدار البيضاء، دار الأمان والمركز الثقافي العربي، ١٩٩٩).

المراجع الأجنبية:

Birdsell, David S, and Leo A Groarke: "Outlines of a Theory of Visual Argument." (Argumentation and Advocacy, 1 (43), 2007), pp. 103-113.

Blair, Anthony J.: "Thinking About Visual Argument". (A lecture by J. Anthony Blair, Presented at the Universidad Nacional Autónoma de México, 5 December 2005, In url: http://unidadfilosofiauaz.weebly.com/uploads/1/0/6/5/106589/sergio_blairvisualarguments.rtf.)

———: "The Rhetoric of Visual Arguments" , In Defining Visual Rhetorics, ed. Charles A. Hill and Marguerite Helmmers, (Mahwah, Lawrence Erlbaum Associates Inc, 2008).

———: Groundwork in the Theory of Argumentation: Selected Papers. (Dordrecht - New York – London, Springer, 2012).

Brockriede, Wayne : "Where is Argument?" In Perspectives on Argument, Proceedings of the Summer Conference on Argumentation., ed. Robert Trapp and Janice Schuetz, (News York – Amesterdam - Brussels: International Debate Education Association, 1980).

Hamblin, Charles L. : Fallacies (New Port, Vale Press, 2004)

Hample, Dale: "A Third Perspective on Argument", Philosophy and Rhetoric, (18 (1), 1985), p.1-22.

Irving M. Copi and Carl Cohen: Introduction to Logic (New York, Macmillan Publishing Company, 8th ed, 1990).

Fleming, David: "Can Pictures be Arguments?" (Argumentation & Advocacy, 33 (1), 1996), p.11-22.

Ralph H. Johnson : «Why 'Visual Arguments' aren't Arguments.» In: Hans V. Hansen, Christopher Tindale, J. Anthony Blair and Ralph H. Johnson (Eds.). Informal Logic at 25 (University of Windsor, CD-ROM, 2005, in url:
http://web2.uwindsor.ca/courses/philosophy/johnsoa/visargtext.htm)

Gilbert, Michael A : "Is it Argument ? In Defense Of The Linguistically Inexplicable". In Informal Logic @25: Proceedings of the Windsor Conference. Blair, Anthony et al. (Eds.), (CD-ROM, Windsor, ON, OSSA, 2003, in url :
http://web2.uwindsor.ca/faculty/arts/philosophy/ILat25/edited_Gilbert_Paper.doc)

O'Keefe, J. Daniel.: "Two concepts of argument.", (Journal of the American Forensic Association, 13 (3), 1977) , pp. 121–128.

Perelman, Chaim, and Lucie Olbrechts-Tyteca : Traité de L'argumentation: La nouvelle Rhétorique. (Paris, P. U. F, 1958).

Walker, Gregg B. & Malcolm O Sillars: «Where is Argument? Perelman's Theory of Values» In Perspectives on argument, Proceedings of the summer conference on argumentation. Ed. R. Trapp & J. Schuetz (New York - Amesterdam - Brussels: International Debate Education Association, 1980).

مأزق السيميائية

(قراءة في الحصيلة النقدية لجهازها المفهومية والإجرائي)

أ. د. قادة عفاف

جامعة سيدي – بلعباس – الجزائر

agagkada@yahoo.fr

Received: 18 Dec. 2013,
Revised: 15 Jan. 2013, Accepted: 23 Feb. 2014
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

مأزق السيميائية

(قراءة في الحصيلة النقدية لجهازها المفهومي والإجرائي)

أ.د. قادة عفاف
جامعة سيدي – بلعباس – الجزائر

الملخّص

تحاول هذه الدراسة الخوض، بشيء من التركيز والتكثيف، في الحصيلة النقدية للنظرية السيميائية، وبخاصة (السيميائيات السردية)–المحايثة–لصاحبها ألجيرداس جوليان غريماس (A .J. GREIMAS)، واضعة اليد على النقائص التي انطوت عليها، راصدة بعض المآخذ التي اكتنفتها، مُفصِّلة القول في الانتقادات التي وُجِّهَت إليها (غربيًا وعربيًا)، مبيِّنةً وجاهة بعضها وتهافت بعضها الآخر، دون إغفال لتلك الآراء التي حاول أصحابها إنصاف هذه النظرية وبيان ما حققته.

الكلمات المفتاحية : سيميائية، سمة، نص، خطاب، مربع سيميائي، بنيات زمانية وفضائية، مستوى سطحي، مستوى عميق، سردية، مسار توليدي، بنية عاملية، برنامج سردي.

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

The Semiotic Dilemma

Prof. Kada Agag
University of Sidi–Bel–Abbès, Algeria

Abstract

This study is an attempt to shed some light on the concept of semiotics, more specifically on A. J. GREIMAS semiotic narrative -Immanence-. It sheds some lights on some significant drawbacks; some related approaches, as well as some current Arabic and Western criticisms opposing this theory. Furthermore, it highlights major positive and negative views so far as this issue is concerned without losing sight of the owners of those views who tried to both re-establish this theory and make clear what it has achieved.

Keywords: Semiotics, Sow, Text , Speech, Semiotic square , Isotopy, Space-time Structures, Surface level, deep level, Narrativity,generative course, Actantielle Structure, Character.

مأزق السيميائية

(قراءة في الحصيلة النقدية لجهازها المفهومي والإجرائي)

أ.د. قادة عفاف
جامعة سيدي – بلعباس – الجزائر

تمهيد:

شهد الفكر النقدي منذ عشرينيات القرن الماضي حراكا علميا لافتا، تمخضت عنه جملةٌ من التطورات المنهجية والمعرفية التي انعكست بشكل جليٍّ على مستويات تحليل النص الأدبي وزوايا مقاربته. وقد أسفر هذا التطور المنهجي والحراك المعرفي عن بروز تغيرات جذرية مست طرائق التفكير ومناهج التحليل الهادفة إلى مسايرة الإبداع الأدبي والابتكار الفني في سيرورتهما التطورية.

ولقد تجسَّد ذلك ضمن نظريات نقدية متعددة، حاول كلٌّ منها أن يتصف بالعلمية بكل مقوماتها ومعاييرها ومواصفاتها؛ من موضوعية، ومرجعية فكرية صلبة وثرية، وصرامة منهجية لافتة، ومفاهيم وإجراءات متنوعة تستعين بها على الولوج إلى أعماق النص الأدبي، والإمساك بميكانزمات اشتغاله.

وتُعَدُّ السيميائية بمختلف اتجاهاتها ومدارسها وروادها، من أهم النظريات النقدية التي عرفها القرن العشرون – وإن لم تكن أكثرها اكتمالا – بالنظر إلى ما حققته من فتوحات منهجية في مواجهة مختلف النصوص: أدبية كانت أم غير أدبية، ومن مقاربات تحليلية حالفها النجاح في كثير من نماذجها المضيئة. تأتَّى لها ذلك من خلال ما تضمنته من أفكار جريئة زعزعت الكثير من القناعات والمواضعات والتصورات التي كانت سائدة قبلها، وما ساقته من مفاهيم وإجراءات متنوعة توجَّت بزوغها، وصاحبت ظهورها وانبثاقها ففتحت من خلالها آفاقا جديدة للوصف والتحليل، لتكون بذلك صرخة مدوِّيةً في سماء النقد الأدبي الجديد.

غير أن هذا النجاح الذي حققته هذه النظرية في مقاربتها لمختلف مجالات الإبداع الإنساني، لم يُنسِ الدارسين الغربيين منهم والعرب على حد سواء، التفطُّن إلى بعض النقائص التي انطوت عليها، والإشارة إلى بعض المآخذ التي اكتنفتها. وهو ما تحاول هذه الدراسة الخوض فيه بشيء من التركيز والتكثيف، مقتصرة على السيميائيات السردية – المحايثة- لصاحبها ألجيرداس جوليان غريماس، مبيِّنةً وجاهة بعض هذه المآخذ وتهافت بعضها الآخر، دون إغفال لتلك الآراء التي حاول أصحابها إنصاف هذه النظرية وبيان ما حققته.

وبناء على هذا، فقد قُسِّمَت الدراسة إلى مبحثين اثنين، خُصِّص المبحث الأول للانتقادات التي وُجِّهت إلى بعض مفاهيم هذه النظرية من لدن الدارسين الغربيين. في حين تكفَّل المبحث الثاني برصد تلك الانتقادات التي وُجِّهت إليها من قِبَل الدارسين العرب، دون نسيان تلك الآراء التي تَشيد بفتوحاتها المنهجية، وتنوِّه بمدى تأثيرها في النقاد والدارسين المجايلين لرائدها أ.ج.غريماس والتالين له.

١-السيميائيات السردية: مرجعيتها ومستويات النص ومكوناته لديها:

يتفق أغلب الدراسين والمهتمين بالتأريخ للحقل النقدي، على أن البداية الفعلية للبحث السيميائي المعاصر سواء بتوجهه الأوربي (السيميولوجيا) أو بتوجُّهه الأنجلوساكسوني (السيميوطيقيا)، كانت قبل أكثر من أربعة عقود من الزمن[١]، بغض النظر عمَّا اعترض هذه البداية من عوائق وما أثير حولها من جدل[٢]. ولكن على الرغم من هذا المدى الزمني المعتبر نسبيا، إلا أن السيميائية لا زالت تعاني مشاكل جمة، سواء أعلى المستوى الأنطولوجي أم على المستوى الابستيمولوجي.

فإن كانت مشاكل النشأة والتبلور تتمثل في بعض جوانبها، في ذلك الظهور المتضخم بعد دروس دي سوسير (F.DE Saussure) وأعمال بيرس (C.S. Peirce)، لحشد كبير من المدارس والاتجاهات التي لا تتعارض- كما يذهب إلى ذلك مارسليو داسكال

١- نقصد تلك الإسهامات الناضجة لباحثين من أمثال (بارت وغريماس) وغيرهما، لا المحاولات الأولى المتعثرة. حيث أنه مع بداية الستينات أخذ البحث السيميائي المعاصر يأخذ طريقه إلى التبلور، سواء من خلال تلك الدروس التي كان يلقيها غريماس بكلية العلوم بباريس (معهد هنري بوانكري institut Henri Poincaré) مابين سنتي ١٩٦٣/١٩٦٤ والتي نشرت سنة ١٩٦٦ في كتاب تحت عنوان "علم الدلالة البنيوي" Sémantique structurale، وكانت ، كما يذهب إلى ذلك (ج. ك. كوكي J.C.Coquet)، بحثا حقيقيا في السيميائية ، على الرغم من كونه لم يستطع رفع الالتباس القائم بشأن تعدد التسميات (سيميوطيقا/ سيميولوجيا) وتداخلها واختلافها لهذا العلم. أم من خلال ما قام به رولان بارث «R. Barthes» من بحوث في الفترة نفسها تقريبا. لمزيد من التفصيل ينظر:

J. C. COQUET " La sémiologie en France" in le champ sémiologique, sous la direction de André Hello, avec la participation de M. Arrivé, p. Range, ,J.C. Brodeur

.édition complexes, Bruxelles 1979 ,P.16

٢- نشير هنا إلى اختلاف التسميات لهذا العلم مابين (السيميوطيقا) و(السيميولوجيا)، وما رافق ذلك من جدل، لم تستطع حسمه كثير من الملتقيات والندوات التي أقيمت بغرض توحيد اسم هذا العلم وتحديد أطره، ابتداء من ١٩٦٥. حيث أقيم في شهر أوت من هذه السنة بـ "فرسوفيا "Varsovie" ببولونيا، الملتقى الأول حول السيميائية. كما أقيم ثاني ملتقى بـ "كازيميرز "Kazimierz" في السنة الموالية (١٩٦٦) تحت إشراف اليونسكو. وعقد الملتقى الثالث بـ "فرسوفيا" سنة ١٩٦٨. وحضره نخبة كبيرة من ألمع الباحثين في هذا المجال من بينهم: ت.أ.سيبوك، إ.بنفنست "E.Benveniste"، أ.ديكرو "O.Ducrot"،ك.بريمون "C.Bremond"، جوليا كريستيفا "J.Kristiva"، وإ.إيكو "U.Eco"، وك. ميتز "C.Metz". كما تأسست في سنة ١٩٦٩ الجمعية الدولية للسيمائية التي رأس مكتبها "س. زلكوسكي "S.Zolkiewski"، وعادت أمانتها العامة لـ "أ.ج. غريماس، كما ضمت كل من كلود ليفي سروس "C.Levi Strauss"، ورولان بارث، وج.ك.كوكي، وأ.ديكرو، وج. جينات "G.Genette"، وجوليا كريستيفا وك.ميتز، وفرانسوا راستي "F.Rastier" وت. تودوروف وك.باكيس وج.كوهين". ونشير في هذا الصدد إلى أنه على الرغم من ذلك الاقتراح الذي تقدم به (غريماس) بخصوص تحديد الفرق بين التسميتين (سيميولوجيا/سيميوطيقا) من خلال التصريح الذي أدلى به لـ" روجي بول دروا" "Roger Paul Droit" بجريدة "لو موند" "Le Monde" بتاريخ ٧ جوان ١٩٧٤، والذي مفاده أن الفارق الذي يميز بين المصطلحين في اللغة الفرنسية- على الأقل- هو أن (سيميوطيقا) يدل على الفروع (سيميوطيقا الشعر، سيميوطيقا السرد، سينماتوغرافية ...إلخ)، بينما (سيميولوجيا) تهتم بالكليات، أي أنها نظرية عامة لكل السيمائيات، إلا أن الأمر بقي على حاله، ولم يغير هذا التحديد من الأمر شيئا.

- لمزيد من التفصيل حول هذه القضايا، ينظر:

رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق (رواية نوار اللوز لواسيني الأعرج نموذجا)، مخطوط أطروحة دكتوراه دولة، جامعة تلمسان (الجزائر)، ١٩٩٥، ص ٤٩-٥٥.

في رأيه الذي يوافقه فيه جملة من الدارسين[٣]- من حيث النظريات السيميوطيقية المتنافرة التي تقترحها فحسب، بل وتتعارض أيضا من حيث تصورها لما يجب أن يشكل نظرية "سيميوطيقية" أو "سيميولوجية"[٤]، فإن السيميائية تعيش في الوقت الراهن حالة من الغموض الأنطولوجي والابستيمولوجي، وهذه الحالة الظرفية ناتجة- حسب بعض الدارسين- عن غياب أسس علم العلامات، أو بالأحرى ضعفها. "فالسيميوطيقا المعاصرة تواجه تضخما في المقولات وفي الأسس والخطابات السيميوطيقية، تضخما يمس استقرار الموضوع السيميوطيقي ذاته، ومن هذا المنطلق أصبح من الضروري القيام بوضع أسس "تاريخية الإنتاج في السيميوطيقا" (Historiographie de la sémiotique)[٥].

إنَّ رأيا مثل هذا لا يؤكد سوى شيء واحد، وهو أنَّ الصورة المعاصرة للسيميائيات ما تزال في طفولتها، لكونها لم تتحول بعد إلى سميولوجيا واحدة متوافرة على تجانس منهجي ومفاهيمي، ومن ثمة فإنها لا تزال في مرحلة ما قبل الأنموذج من تطورها كعلم[٦].

انطلاقا من هذا التصور، يمكننا أن نذهب إلى القول، إنَّ النظرية السيميائية في طموحها اللامحدود إلى الشمولية، وعلى الرغم من الآمال التي فتحتها ويمكن أن تفتحها في وجه الدارسين، مازالت في طور الإنجاز والتشكل الهش؛ بحيث لم تتبلور ملامحها بعد بصفة متكاملة، ولم تزل مجرد اقتراحات، أو علم من بين علوم أخرى تعدّ ضرورية، لكنها غير كافية كما كان قد رأى (بارت) (R. BARTHES)[٧] من قبل.

وإلى مثل هذا الرأي أيضا يذهب (ديكرو DUCROT) و(تودوروف T.TODOROV) في معجمهما، حينما يؤكدان أنه على الرغم من أعمال بيرس (C. S. Peirce)، ودي سويسر F. DESaussure، وإريك بويسنس، وجاكبسون R. Jakobson، وبارت R.Barthes ولويس هيلمسليف L. Hjelmslev، وكارناب (Carnap)، وغيرهم... إلا أنه لا يمكن الحديث عن بناء علمي متكامل في السيمياء، لكون هذه الأخيرة تظل مجموعة من الاقتراحات أكثر منها علما، أو كيانا مؤسَّسا تأسيسا علميا[٨].

نستنتج من خلال هذه الآراء- على الرغم من كون معظمها وليد مرحلة السبعينات من القرن الماضي- بالإضافة إلى آراء أخرى كثيرة تذهب المذهب نفسه[٩]، أنّ السيميائية لم تكتسب بعد أركان العلم، فهي جملة من النظريات التي لا تُكَوِّنُ صرحا متكاملا من المعارف، وهذا الوضع سببه الرئيس حسب (ديكرو وتودوروف) دائما، يرجع إلى هيمنة اللسانيات ومناهجها على ميادين خاصة بعلم العلامات[١٠]. ولعلّ هذا ما دفع بـ (تودوروف) إلى الدعوة لفصلها عن اللسانيات حينما رأى أن السيميائية الأدبية يجب أن تنصهر ضمن ظاهرة أشمل وهي الرمزية اللغوية[١١].

٣-من بينهم جان كلود كوكي، الذي يرى أنّ الحديث عن السيميائية «يجري في اتجاهات مختلفة وبلا تميّز»، ينظر:
J. C. COQUET "La sémiologie en France" in le champ sémiologique, (op.cit), p.5.

٤- مارسيلو داسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحمداني وآخرين، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط ١٩٨٧، ص ١٨.

5- S. Kim, « A propos d'un projet d'histoire de la sémiotique : questions et problèmes épistémologiques » Revue langages. N107, Septembre 92, éd. Larousse
عن محسن عمار ، مدخل إلى الدراسات السيميائية بالمغرب،مجلة علامات، مكناس، المغرب، العدد٢٠، ٢٠٠٣، ص.١٠٨.

٦- ينظر: مارسيليو داسكال ، المرجع المذكور سابقا، ص.١٨

7 - BARTHES, Itylogie, Ed. Seuil 1957, p.197

8 - Voir: O. DUCROT et T. TODOROV, Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage, Article sémiotique, Ed. du seuil. Paris 1972, p.p. 113 – 122

٩- مثل: آن اينو في كتابها « مراهنات السيميائية: les enjeux de la sémiotique, éd. P.U.F. Paris 1979 وبيتردوميجر، في مقاله: تحليل الرواية، ترجمة غسان شديد، مجلة العرب والفكر العالمي، ع٥، شتاء ١٩٨٩، ص. ص١٠١ – ١١٠

10- O. DUCROT, et T. TODOROV, Dictionnaire encyclopédique…. P 113, 122.

11- T. TODOROV, Symolisme et Interprétation, éd. Seuil. Paris 1978, p.p. 15 – 17.

فضلا عن هذا، فإن أحد أهم أسباب هذا الوضع- في اعتقادنا- هو شمولية السيميائية وتشعبّها وطموحها اللاّمحدود، وتعدّد الميادين التي تُكَوِّنُ شجرة نسبها، و"تأخر العلوم المتصلة بها كالدلالية (la sémantique) وهي مثلها في التشعّب والخلافات النظرية"[١٢].

كان هذا فيما يتعلق بأصولها النظرية ومرجعيتها العلمية المتنوعة والثرية، التي كثيرا ما كانت محل طعن ومؤاخذة.

أما فيما يختصُّ بمفاهيمها الإجرائية، وآلياتها التحليلية ومستويات مقاربتها النص الأدبي، فيمكننا أن نذهب إلى القول، إنَّه إذا كانت السردية الفرنسية خصوصا، قد انصرفت -بصفة عامة في مختلف توجهاتها وتشعباتها: بارت، غريماس، تودروف، جينات -إلى الاهتمام بمكونات الخطاب السردي، راصدةً ضمن ذلك: مظاهرَه، وأبنيته، ومستوياته الدلالية، فإنها- أي هذه التشعبات- لا تكاد تخرج عن تيارين اثنين رئيسيين يؤطرانها ويحكمان مختلف توجهاتها وهما:

١- تيَّار السردية اللِّسانية.

٢- تيَّار السردية الدلالية، أو السِّيميائيات السردية.

فالتيَّار الأول- تيَّار السردية اللِّسانية- يُعنَى بدراسة الخطاب السردي في مستوياته:

-التركيبة والعلائقية التي تربط الراوي بالمتن الحكائي. ويهمُّها ليس الحكاية من حيث هي موضوع بل المحكي باعتباره صيغةً للتمثيل اللفظي للحكاية[١٣] ويتزعَّمه كل من بارت (R.BARTHES) وجيرار جينات (G.GENETTE) وتودوروف (T.TODOROV)[١٤].

أما التيار الثاني-السردية الدلالية، أو السيميائيات السردية- والذي هو محور حديثنا كما سبق القول، فهو يُعنَى برصد البنى العميقة التي تتحكم بمظاهر الخطاب، وتهدف إلى تحديد قواعد وظائفية للسرد[١٥] كما تجلَّت في أبحاث غريماس وبريمون (BREMOND) انطلاقا من جهود بروب (V. PROPP).

إنَّ هذا التيار عكس التيار الأول[١٦] اهتم بـ "سردية (Narrativité)" الحكاية دون الاهتمام بالوسيلة الحاملة لها -روايةً، فيلمًا، أو رسومًا- ما دام الحديث نفسه يمكن ترجمته بوسائل مختلفة.

١٢- شعيب مقنونيف: في ماهية السيميائية الأدبية، مجلة بحوث سيميائية، يصدرها مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، جامعة تلمسان، الجزائر، العدد١ ،سبتمبر٢٠٠٢، ص٢٦٢.

١٣- ينظر: مجموعة من المؤلفين، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٩، ص: ٩٧.

١٤- نشير هنا إلى أنه، بالرغم من أن مرجعية النقاد الفرنسيين واحدة، أو متقاطعة في مصادرها، إلا أن هناك اختلافات بيِّنة في مستويات تقسيم النص وتحليله بينهم:

× فبارت على سبيل المثال، يميز في الأثر السردي، بين مستويات ثلاثة في الوصف، هي:

مستوى الوظائف.

مستوى الأعمال.

مستوى السرد.

وهي مستويات مترابطة على نحو اندماجي مطرد. فليس للوظيفة من معنى إن لم يكن لها داخل عمل الفاعل Actant موقع ما، كما أن العمل بدوره لا يتلقى معناه الأخير إلا عندما يكون مسرودا بواسطة خطاب يمتلك شفرته الخاصة.

أما تودروف، فيستعير من الشكلانيين الروس تصورهم للمعنى، الذي يمثل في نظرهم عنصرا من عناصر الأثر الأدبي، وتتمثل وظيفته في إمكانية دخوله في تعالق Corrélation مع عناصر أخرى من نفس الأثر.

وقد اقترح الاشتغال على مستويين كبيرين منقسمين بدورهما إلى عدة مستويات:

فمستوى الخبر Histoire يتضمن مستوى منطق الأعمال، ومستوى علاقة الشخصيات –أو تركيبها-.

أما مستوى الخطاب ففيه أزمنة القص وأساليب السرد وأنماط الرؤية.

- ينظر: العادل خضر، يحكى أن ... مقالات في التأويل القصصي، دار المعرفة للنشر، تونس، ٢٠٠٦، ص. ٣٢-٣٣.

١٥- ينظر: عبدالله إبراهيم، من وهم الرؤية إلى وهم المنهج، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع٦٧، ٦٨، ص: ١٢٤.

١٦- نشير في هذا الصدد إلى أن هناك محاولات للجمع بين هذين التيارين أو التوجهين، لمزيد من التفصيل ينظر:

مجموعة من المؤلفين، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة ناجي مصطفى، مرجع سابق، ص. ٩٧ وما بعدها.

إنَّه يدرس مضامين سردية، بهدف إبراز بنياتها العميقة التي تعتبر عادة كونية، دون اعتبار للجماعات اللسانية[١٧]. ذلك لأن السرد-من المنظور الغريماسي- يتجاوز حدود الأدبية، مما يجعل السردية تتحقق في أي عمل حكائي -أو غير حكائي- مهما كانت الأداة التي يُتَوَسَّل بها في عملية التواصل والحكي[١٨].

يركِّز هذا التيار في مقاربته للنص السردي، لا على الإجراء التلفُّظي وما يستتبعه من دراسة للفعل السردي وكل العناصر المتولِّدة عنه مثل:

١. المواقع المختلفة للسارد.

٢. والأنواع السردية ومستوياتها وحالاتها الخطابية.

٣. وكذا مختلف التمظهرات الزمنية التي تصبُّ فيها التجارب الإنسانية باعتبارها أحداثا[١٩].

وإنما نجده يركِّز بصفة خاصة على: **الملفوظ**، أي على الحكي باعتباره قصة، مما يعني النظر إليه بوصفه مجموعة من الأحداث المترابطة فيما بينها.

وبعبارة أخرى، فإنَّ الأسئلة التي يطرحها رُوَّادُ هذا التيار، ليست:

ماذا يقول النص؟

ولا: من قائله؟

ولكن: كيف يقول هذا النص ما يقوله؟[٢٠].

تدخل في هذا الإطار كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه، أعمال كل من بريمون وغريماس، انطلاقا من بروب وتطويرا لطروحاته.

وإذا كان الأول - بريمون (C. BREMOND) - قد حاول الكشف عن المنطق العام الذي يحكم المكنات السردية، وبغَضِّ النظر عن أي متن (Corpus)، غايته في ذلك محاولة إرساء قواعد صارمة لمنطق الحكي وضبطها، فإن الثاني -غريماس- يحاول التركيز في أعماله المتعددة على عملية إنتاج المعنى انطلاقا من مجموعة من الأحداث المترابطة فيما بينها.

إنَّ ما يهمُّ السيميائي كغريماس-ضمن تصوُّر كهذا- في تعامله مع النصوص هو الشروط الداخلية للمعنى دون اعتبار لتلك العلاقات التي يُقيمها النَّصُّ مع أي عنصر خارجي عنه[٢١]، مما يستلزم معه أن يظل التحليل-والحالة هذه- محايثا مقتصرا على فحص الاشتغال النَّصي لعناصر المعنى دون غيرها. وهو ما يعني أن المعنى سيُعتبر أثرا ونتيجة مستخلصة بواسطة لعبة العلاقات بين العناصر الدالة[٢٢].

انطلاقا من هذا التصوُّر، نستنتج أنه لا يتمُّ في نظر غريماس، "استخراج المعنى إلا بالكشف عن شبكة العلاقات القائمة في صلب النص، وحصرها، بربط الوحدات السردية وفق الغايات القصوى المقصود بلوغها"[٢٣] على اعتبار أنَّ العلاقة التي تربط جوهر الدلالة بالخطاب الأدبي هي علاقة توليدية، من حيث خضوع المعنى لديمومة النص، أي بنيته المتكاملة المغلقة، وبالتالي الاحتكام إلى عناصره الداخلية فقط.

وبهدف محاصرة النص، وتيسير وصفه وضبط القواعد المنظمة له، وصولا إلى تحليله، لجأ أصحاب السيميائيات السردية وعلى رأسهم غريماس- كإجراء أولي قبل مباشرة أية إجراءات أخرى- إلى الاستعانة بما يُعرف بمستويات الوصف (Les niveaux de description)[٢٤] حيث عمد إلى تقسيم النص إلى مستويين رئيسيين يتفرَّع كل واحد منهما بدوره إلى قسمين (مكونين) فرعِيَين متكاملين، هما:

١٧- المرجع نفسه ، ص. ٩٧ وما بعدها._

١٨- ينظر: الطاهر روابنية، سرديات الخطاب الروائي المغاربي الجديد، مرجع مذكور سابقا، ص: ٢.

19. Voir: G.GENETTE, Figures III, éd, Seuil collection poétique, paris 1972.

20. Voir: Groupe d›Entre vernes, analyse sémiotique des textes, éd. P.U.L. Lyon. 1979. p: 7.

٢١- ينظر: عبدالعالي بوطيب، كريماس والسيميائيات السردية، مجلة علامات مرجع سبق ذكره، ص.٩٢.

22- Voir: Groupe d›Entre vernes, op. cit. p : 8.

23- Idem.

24-. Ibid, p

المستوى السطحي (Le niveau de Surface).

المستوى العميق (Le niveau de profond).

ففي المستوى الأول: سيكون على المحلِّل رصد مكونين اثنين يُقعِّدان لنظام العناصر المعروفة بانتمائها إلى هذا المستوى وهما:

أ). **مكون سردي:** وفيه يتم ضبط التوالي والترابط الخاص بالحالات والتحوُّلات، بمعنى مراعاة سلسلة التغيرات الطارئة على حالة الفواعل، وهي بصدد محاولة إنجاز برنامجها السردي وتحقيق اتصالها بموضوع القيمة المرغوب فيه.

ب).**مكون خطابي:** وهو يضبط في نص ما الترابط الخاص بالصُّور ومولدات المعنى (Les figures et Les effets du sens)، أي التركيز على استخراج الأنظمة الصورية المنتشرة في نسيج النص.

أما في المستوى الثاني (العميق)، فهناك أيضا تصميمان اثنان يُستخرَجان لضبط العناصر المعروفة بانتمائها إلى هذا المستوى وهما:

أ) شبكة علاقات تُنجزُ تصنيفا لقيم المعنى حسب العلاقات التي تقيمها.

ب) نسق (نظام) عمليات (d›opération) ينظِّم الانتقال من قيمة إلى أخرى[٢٥].

يتم هذا كله بالاستناد إلى نظام الوحدات المعنوية الصغرى (Les sèmes)[٢٦].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السردية تقتضي– بالضرورة– دراسة المستويين (البنيتين) معا، ومُعايَنَة العلاقة القائمة بينهما؛ إذ أنه يستحيل البحث في أحد المجالين دون الآخر، لكونهما يشكلان وجهين لعملة واحدة، هي الخطاب كيفما كان جنسه.

إضافة إلى هذا فإن البنية العميقة تستدعي البنية السطحية وتستحضرها؛ لأن "جذور الدلالة لا تمرُّ بإنتاج الملفوظات وعلاقاتها بالخطاب بل هي موصولة في خطابها بالبنيات السردية المُنتِجة للخطاب المُفَصَّل إلى ملفوظات[٢٧]".

كما أن البنية السطحية تستدعي بدورها هي الأخرى البنية العميقة، لكونها حاملة لشفرات (Codes) وإشارات (Indices) يستلزم حلُّها دلاليا الارتكاز إلى عوامل للتقابلات الضدية الكامنة وراءها. مما يعني أن السردية تعد– والحال هذه– بنية ضمن نظام الحكاية منبسطة بشبكة من العلاقات الواسعة داخل الخطاب، كونها ظاهرة لتتابع الأحداث من حالات وتحويلات، ترمي إلى استخلاص الدلالة انطلاقا من الوحدات التعبيرية المكونة لها[٢٨]. ذلك لأنَّ التتابع البسيط للملفوظات السردية، كما يقول غريماس "لا يُعَدُّ معيارا كافيا للأخذ بنظام الحكاية، ما لم يتم الكشف عن الإسقاطات الاستبدالية التي تسمح بالحديث عن وجود البنيات السردية"[٢٩].

أي أن أنَّ الدراسة السردية لا يمكنها ضبط نظام الحكاية والتعرُّف إلى بنياتها السردية، إلا بتضافر المحورين النظمي (Syntagmatique)–في علاقاته ذات الطبيعة الخطية الخاضعة لمبدإ التجاور والمُشكِّلة لذلك الطابع المساير للحكاية– والاستبدالي (Paradigmatique)–في تقابلاته واختلافاته ذات النظام التعارضي الإسقاطي

٢٥– يجدر التذكير هنا أن غريماس إستوحى مستويات نظامه الدراسي هذا من هيلمسليف الذي عمد إلى تفريع كل وحدة من الثنائية السويسرية المعروفة والقائمة على الدال والمدلول إلى وحدتين أخريين، جاعلا مستويات الدراسة أربعة، يختص كل واحد منها بدراسة فرع لغوي معين:
شكل (Forme)، ويضم (الفنولوجيا (أو علم الصواتم) و التركيب الوظيفي (نحو) Syntaxeالمضمون (Substance)، ويضم: علم الأصوات والدلالة.
لمزيد من التفصيل، ينظر: محمد الناصر العجمي، في الخطاب السردي، نظرية غريماس، مرجع سابق، رقم ٤٥ في الهامش، ص:٣١.

26- J. COURTES, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Voir : préface d›A. J. Greimas, p : 8.

27- Idem.

٢٨– ينظر: نادية بوشفرة، المسار السردي في الموروث الحكائي (سردية الحكاية عند غريماس)، رسالة ماجستير في الأدب الشعبي، قسم الثقافة الشعبية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان١٩٩٩/٢٠٠٠م. ص.٤٥.

29- A.J.GREIMAS, Du sens II, Essai sémiotiques, seuil, paris 1983, p : 59.

القائم على مبدإ الاختيار لعلاقات الوحدات اللفظية.

يتبين لنا من خلال هذا، أن البحث في سردية القصة حسب غريماس ومن والاه، يتمُّ من خلال التركيز على:

المضامين السردية، وتحليل القوانين والضوابط التي تتحكَّم في الكون السردي[٣٠]. مما يعني أن التحليل سيظلُّ مرتكزا على البحث عن الشروط الداخلية المتحكمة في الدلالة، مما يستوجب معه أن يظل التحليل محايثا، ذلك لأن الإشكالية التي يحددها العمل السيميائي-ضمن هذا التصوُّر- لا ترتكز على ما يقوم بين النص وبين المحيل الخارجي من علاقات، بل ترتكز على البحث في وظيفة النص.

وبناء على هذا، فإنَّ المعنى يُؤخَذ على أنَّه أثر ناتج عن شبكة العلاقات الرابطة بين العناصر الدالة. إذ أنَّ المراد هو "كيف" يُبنَى المعنى داخل النص لا خارجه.

وخلاصة القول، إنَّ البحث في سردية القصة من خلال التركيز على:

- دراسة المضامين السردية.

- وضبط القوانين التي تتحكَّم في الكون السردي- كما أشير إلى ذلك أعلاه- أو بعبارة أخرى من خلال السعي إلى الاهتمام بالشكل السيميوطيقي للمحتوى الذي يَعني حسب غريماس، تحليل مستوياتها -(القصة)- المختلفة، بما فيها جميع مظاهر الخطاب، وأبعاده الدلالية العميقة[٣١].

ولعل هذا الطموح الساعي إلى محاولة الإحاطة بالنص – كيفما كان نوعه- من مختلف جوانبه هو الذي جعل هذه النظرية تزدحم بعدد هائل من المصطلحات والمفاهيم المتمرجعة إلى حقول معرفية متنوعة ومتباعدة أحيانا-(منطق، فلسفة، علم اللغة، رياضيات، فيزياء...)- التي يكتنفها-أي هذه المصطلحات وهذه المفاهيم- الغموض في بعض الأحيان، أو التي لا تندرج في صلب هذه النظرية بكيفية واضحة. وهو أمر جعل من هذه النظرية –على الرغم من دقتها المصطلحية الواضحة، وعلى الرغم من فاعليتها الإجرائية ومردوديتها التحليلية وبخاصة فيما يتعلق بمواجهتها للنص السردي- عرضة لكثير من الانتقاد والمؤاخذة سواء في النقد الغربي أو العربي مع بعض التفاوت بين ناقد وآخر من حيث التزام الموضوعية وعمق الطرح، وهو ما سنفصل فيه الحديث في المبحثين المكونين لهذه الدراسة.

١). مأزق السيميائيات السردية من منظور النقد الغربي:

١.١) مآخذها: غموض بعض مفاهيمها ومحدودية بعضها الآخر:

لم تكن هذه النظرية – نتيجة للأسباب السابق ذكرها- بمنأى عن النقد والمؤاخذة. فعلى الرغم من انتشارها الواسع وكثرة أتباعها في الشرق والغرب، وشموليتها التي قلَّ نظيرها، وفاعليتها في تحليل النصوص السردية بصفة خاصة، ومحاولاتها المضنية في ضبط قوانين اشتغالها، بل والطموح إلى ضبط قوانين اشتغال كل خطاب بشري مهما كان نوعه[٣٢]، عبر المراجعة المستمرة والتدقيق والتمحيص الدائمين اللذين كان يقوم بهما صاحبها من حين لآخر كلما دعت الحاجة العملية والمعرفية إلى ذلك[٣٣]، إلا أنها لم تسلم كشأن كل عمل بشري، من انتقادات وَجَّهها إليها هذا الطرف أو ذاك، ومن سقطات وهفوات آخذها بها هؤلاء، ومن غموض اكتنف بعض مفاهيمها، ومن تناقضات وقعت فيها، ومن إشكاليات بقيت

٣٠- ينظر: نادية بوشفرة، المسار السردي في الموروث، ص.٤٥

31- Voir: A.J.GREIMAS, Du sens II, Essai sémiotiques, p : 59

32- Voir: A.J. GREIMAS, Sémantique structurale, op.cit.p.181.

٣٣- نذكر من هذه التعديلات على سبيل المثال ذلك التعديل المتعلق بالهوة السيميائية الموجودة بين الفاعل البطل وفعله، وسدها بمشروع رؤية جديدة حول نظرية الجهات (Théorie du modalité) ينظر: رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، مرجع مذكور سابقا، ص ٧.

عالقة لم يتم الحسم فيها وتوضيحها بالقدر الكافي. ونعتقد أن هذا هو قدر البحث العلمي، كما هو قدر كل عمل إنساني.

وإذا لم تشمل هذه الانتقادات والمآخذ مفاهيم هذه النظرية وإجراءاتها كلها إلا فيما ندر، إلا أن بعض هذه المفاهيم وهذه الإجراءات لم يسلم من ذلك.

وهذا ما كان من شأن قضايا ومفاهيم مثل: المربع السيميائي (le carré sémiotique)، الذي يعتبره غريماس حصيلة نهائية للتحليل السيميائي، والتشاكل (Isotopie) الضامن لانسجام أجزاء النص في اتساق وحداته وتلاؤمها. بالإضافة إلى بعض الغموض الذي يكتنف مفاهيم مثل: البنيات الزمنية (s. Temporelles) والفضائية (s. spatiaux) وعدم وضوح طرائق اندراجها في صلب النص السردي، وكيفية إسهامها في إنتاج الدلالة أو المعنى، ناهيك عن عدم وضوح ميكانيزمات الانتقال من مستوى إلى آخر في النص ضمن مستوييه المعروفين لدى غريماس (المستوى السطحي) و(المستوى العميق).

وفيما يأتي عرضٌ مفصَّلٌ لبعض هذه المآخذ والانتقادات، لنختتم المبحث برصد بعض الأحكام التي يُقِرُّ فيها أصحابها بقيمة هذه النظرية وبفاعليتها، وبمبلغ تأثيرها في كثير من المهتمين والمتخصصين.

١.١.١. المربع السيميائي (le carré sémiotique):

١.١.١.١. كلود بريمون: وتناقضات غريماس:

نال المربع السيميائي- باعتباره في المنظور الغريماسي، نموذجا شكليا تكمن وظيفته في استقراء المعنى وتحوله من طور إلى طور، بمعزل عن العالم الخارجي، وتجسيده (المربع) ضمن ذلك لشكل المعنى الذي يُبنَى عليه النص في جملته، وقدرته بمقتضى ذلك على ضبط العلاقات المنطقية القائمة بين الوحدات الدلالية الكامنة في عمق النص، وبالتالي وصف الدورة الدلالية له (النص) ضمن اكتشافه لبنية الدلالة العميقة المؤسسة للنص والمتحكمة في بنيته السطحية- نال الحظ الأوفر من الانتقاد والمؤاخذة، حيث يذهب «كلود بريمون» (C.BRÉMOND) في هذا الصدد مشككا ومتسائلا إن كان بإمكان هذا المربع أو "المثال التركيبي" كما يدعوه- بألفاظه الأربعة في علاقات التضاد والتناقض والتضمُّن (الاستتباع)، التي تجمع تلك الألفاظ- أن يُقدِّم لنا معرفة بما يطرأ داخل الحكاية؟[٣٤]

بل يذهب "بريمون" بعيدا في تشكيكه في صلاحية هذا المربع ومدى كفاءته ومصداقيته، طارحا ضمن ذلك تساؤلات صميمية من قبيل: أين تكمن القيمة الجوهرية التي تحكم المثال التركيبي وتسيِّره؟ وما هي شروط تطبيقه على السردية؟ وما المنطق الذي يحكم علاقاته في تواليها؟ ليجيب مُعقِّبا، بأنَّ هذا المربع باعتباره ترسيمة شفافة استمدها غريماس من علماء المنطق الذين يستخدمونها لأغراض وغايات غير تلك التي نجدها عنده، جعلته-كما يضيف بريمون- يقع في هفوات كان بإمكانه تجاوزها.

لقد وقع غريماس – يؤكد بريمون- في مأزق اختيار غير موفَّق، لا تربطه بالمنطق المألوف أي صلة، وبخاصة فيما يتعلق بنظام العلاقات في تواليها، كأن يكون «لا ثري» يقتضي «فقير» وليس العكس[٣٥]. فهذا الانحراف المنهجي، أو الخروج عن المألوف –بحسب تعبير بريمون- هو الثمن المدفوع لتطبيق حركية المثال التركيبي وعليه سوف يتوقف المصير السردي على أن يكون مقصورا على محور التناقضات[٣٦]، ليس إلا.

إن غريماس في إسناده السيميائية إلى المنطق في إطار طموحه لصياغة نظريته الخاصة، ثم تنازله فيما بعد عن هذا الطموح ودعوته إلى نقيض ما كان يدعو إليه، من خلال تصريحه بلا جدوى الاختلاف بين المجالين السيميائي

34- Voir : Claude BREMOND, logique du récit, Col, Poétique.Ed. Seuil, Paris 1973, p93.
35- Ibid. p93.
36- Claude BREMOND , Op. cit.P.93.

والمنطقي، ودعوته إلى عدم الاهتمام بأمر كهذا، يقول بريمون، هو نزوع ينبئ عن الاستهانة بقضايا جوهرية. ويعتقد الباحث نفسه في هذا الصدد، أنه لا يمكننا إحراز أي تقدم في هذا الإطار، ما لم يتم الفصل في هذا النزاع الذي يَدَّعي فيه غريماس إسناد السيميائية إلى قواعد المنطق المقياسي، ثم القول بأنها علم مستقل وقائم بذاته[٣٧].

ويختم «بريمون» سلسلة انتقاداته- في إطار اجتهاداته لتحقيق كفاية علمية لـ «منطق الحكي»- قائلا: إنَّ هذا المثال التركيبي الذي يبقى انتخابه واقعا محتملا على غرار شبكة المشاريع المقدَّمة في هذا الشأن- والذي منحه غريماس- لكن بأي حق؟- ميزة الحكم على عالم الحكاية... كان بإمكانه (المثال التركيبي) توفير فضاء واسع لسلسلة من الخيارات الممنوحة، إلا أننا نلفيه بعيدا عن استعماله الحقيقي ومُسنَدا إليه عملا لا قِبَلَ له به[٣٨].

١.١.١.٢. بتيتو: واختزالية المربع السيميائي:

وفي سياق هذا الجدل نفسه الذي أثاره المربع السيميائي وما يتعلق بمنطق تنظيم الدلالة فيه، نجد أحد المختصين في المنطق وهو «بتيتو» (PETITO) يشكِّك ضمن دراسة له بعنوان "المربع السيميائي وشكلنة البنية" (le carré sémiotique et shematisme de la structure) في سلامة هذا المربع، واضعا إياه موضع تساؤل من منطلق أنه يُبَسِّط النظام الدلالي ويختزل أبعاده، ولا يراعي في ذلك الحالات المركَّبة التي يمكن أن تدمج بين المتناقضات، مقترحا- لتجاوز هذا القصور الذي يراه- تعديله بجعله شكلا ذا ثمانية أضلاع[٣٩].

فغريماس في تقديمه لمربعه السيميائي على أنه عملية عيانية (Visualisation) تساعد القارئ على الفهم، وقَصرِه على هذه الوظيفة فقط، يُفقره- يقول بتيتو (PETITO)- لذلك يجب، بغية سد هذا الافتقار كما يضيف، اعتباره شكلا هندسيا يَصِحُّ أن يُتَّخَذَ مُنطَلقا لوضع مورفولوجية دينامية. وهذا ما كان قد فعله هذا الأخير، فاستنتج منه عدة علاقات رياضية، مؤكدا في الوقت نفسه دور "التهندس" في وضع المفاهيم وتوليدها[٤٠].

١.١.١.٣. جاك فانتانيي: وعدم الكفاية التحليلية للمربع السيميائي:

هذا وفي السياق نفسه، يذهب "جاك فانتانيي" (Jacques FONTANILLE) في كتاب له بعنوان "السيميائية والأدب (محاولات في المنهج)" (sémiotique et littérature, Essai de méthode) الصادر عام ١٩٩٩، إلى أن دور ركائز النظرية السيميائية الكلاسيكية- ويعني سيميائية غريماس خصوصا- (المربع السيميائي، والمسار التوليدي، والسردية) في حاجة ماسَّة إلى إعادة نظر وتقويم. فالمربع السيميائي مثلا بالكيفية التي يطرحها به غريماس، لا يستجيب، في نظر "فانتانيي" لكثير من مقتضيات تحليل الخطاب، وهذا لأنه كما يوضح «لا يمكنه أن يفسر الطريقة التي تتعامل بها الخطابات كلها مع مقولاته الخاصة الداخلية، من تنظيم وإعادة تركيب.

إن إنشاء مربع سيميائي في أثناء تحليل نص أدبي، يعني أننا أمام مقولة ثابتة، يكون تكوينها منتهيا، غير أن البحث عن الكيفية التي تجري بها عملية التلقي من تجميع لمجموع الأشكال، واختيارها وترتيبها من أجل تنظيمها في مقولات تبقى مستعصية، ولا يمكن للتحليل القائم على المربع السيميائي استيعابها، وينبغي البحث عن مناهج أخرى ونماذج جديدة للتحليل تدمج هذه الفرضيات الجديدة"[٤١].

إنَّ هذه الكيفية التحليلية، التي يطرح من خلالها غريماس هذا المربع، والتي تظهر من خلال نص سردي كيفية دخول عنصر في تناقض

37- Ibid,.p.9

38- Claude BREMOND , Op. cit.P.99

39- PETITIOT: "Carré sémiotique et schématisme de la structure", Bulletin C.R.S.L.

٤٠- ينظر محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٤، ط١، ص ٣٩.

41- Jacques FONTANILLE, Sémiotique et littérature, Essai de méthode, P.U.F., Paris, 1999, P.45

مع عناصر أخرى، لا تكشف لنا- في نظر فانتانيي- عن العلاقة التي تميِّز العنصرين المتناقضين، كما أنها لا تحدد لنا وضعية هذا العنصر داخل مقولة العناصر الطبيعية، أي ما يفسِّر ويُجَلِّي العلاقات داخل الثقافة الطبيعية للمجتمع[٤٢].

فهذه الكيفية التحليلية التي تعتبر الخطاب ملفوظا، أي تعتبر المعنى منتهيا وفي الإمكان إعادة بنائه اعتمادا على الميكانيزمات المهيمنة فيه، واستنادا إلى مقولات المربع السيميائي المعروفة (التناقض، التضاد، التضمن)، والداعية بمقتضى ذلك إلى تفعيل الخطاب - من خلال الاهتمام بالطرائق التي يشتغل وفقها في إنتاج تشكيلاته الخاصة، وكذا كيفية انبناء جزئيات المضمون فيه، وكيفية إقامة العلاقات التي تمكّن من التعرف على التوالج الدلالي فيه- يجدها فانتانيي غير قادرة على الرغم من كل هذا- وفق الكيفية الأنفة الذكر التي يطرحها بها المربع الغريماسي- على ضبط ميكانيزمات تشكُّل المقولة انطلاقا من التلقي[٤٣].

١.٢). التشاكل (Isotopie):

١.٢.١. فرانسوا راستي: وإهمال تشاكل غريماس للمستوى التعبيري:

لقي التشاكل باعتباره مفهوما إجرائيا لجأ إليه غريماس لتأكيد انسجام الخطاب، أو إيضاحه وإن كان مبهما، أو تشييد موضوعاته ورسائله العامة والخاصة، مُقصرًا إياه على المضمون دون التعبير[٤٤]، توسيعات مَن قبل بعض أتباعه قبل أن يلقى اعتراضات وانتقادات من قِبَل غرمائه. فهذا "فرانسوا راستي" (F.RASTIER)[٤٥]، وهو أحد أعمدة "مدرسة باريس" (L'Ecole de Paris) التي يتزعمها غريماس، نجده يعمم هذا المفهوم- التشاكل- ليشمل التعبير والمضمون معا، ليصبح وفقا لذلك متنوِّعا تنوُّع مكوِّنات الخطاب، من تشاكل صوتي، ومعنوي، ومنطقي، ونبري وإيقاعي، وهلم جرا ... مقترحًا ضمن ذلك تعديل تعريف غريماس المعروف* الذي يجده ضيِّقا، حيث يقول في هذا الصدد، إنَّ التشاكل هو "نواة تركيبية (Iterative) لوحدات ألسنية (ظاهرة أو غير ظاهرة) منتمية إما إلى التعبير، وإما إلى المضمون، أو هو بوجه عام تكرار لوحدات ألسنية"[٤٦].

إن تركيز غريماس في قراءته التشاكلية، على الكتابة الأسطورية بخاصة والنص السردي بعامة، هو الذي جعله لا يلتفت إلى ما يمكن أن تتضمنه الخطابات الأخرى من تشاكلات تعبيرية متنوِّعة فضلا عن المضمونية، وخصوصا الخطاب الشعري، وهو الميدان الذي كان قد خاض فيه "راستي" (F.RASTIER). ولذلك فعلى الرَّغم مما بَين الباحثَين من عناصر مشتركة ونقاط تقاطع في كون التشاكل لا يحصل إلا من تعدُّد الوحدات اللُّغوية المختلفة، وفي أنه لا يَنتُجُ إلا انطلاقا من "التباين" (Allotopie)- كمفهوم إجرائي معاكس- وأنَّ هذين المفهومين-التشاكل والتباين- لا يمكن بمقتضى ذلك فصل أحدهما عن الآخر، لكون وجود أحدهما مرهونا بوجود الآخر، وأن التشاكل هو الذي يحصل به الفهم الموحّد للنص المقروء، وأنه هو الضامن لانسجام أجزائه وارتباط أقواله، مما يبعده عن الإبهام الذي يمكن أن يرتبط ببعض النصوص التي تحتمل قراءات متعددة، وأنَّه يتولَّد عنه تراكم تعبيري ومضموني تحتِّمه طبيعة اللغة والكلام[٤٧]، إلا أنَّ هناك أنواعا من الاختلافات الموجودة بينهما. فما تُوفِّره رحابة الخطاب الشعري- الذي ركز عليه راستي- في تنوُّع عناصره

٤٢- ينظر عبدالقادر شرشار، مستويات التحليل السيميائي في مقاربة النص السردي، مجلة بحوث سيميائية، يصدرها مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، جامعة تلمسان، دار الغرب للنشر والتوزيع، ع١، سبتمبر٢٠٠٢، ص١٣٨.

43- Voir: Jacques FONTANILLE.Op.Cit.p 4.

٤٤- ينظر: محمد مفتاح: بعض خصائص الخطاب، مجلة علامات، مرجع مذكور سابقا،ص ١١.

45- A. J. GREIMAS, J.COURTES, Dictionnaire raisonné… op.cit.p.p. 197, 199

46- Voir: François RASTIER: "Systématique des isotopies" in sémiotique poétique, Larousse, Paris, 1972, p.80.

47- F. RASTIER, " Systématique des isotopies" in op.cit.p.82.

التعبيرية وبخاصة الصوتية والنبرية والإيقاعية والتركيبية من تعادلات وتوازنات، لا يمكن أن توفره الكتابة الأسطورية- التي ركز عليها غريماس- في ثبات عناصرها ونمطيتها ومحدوديتها، ولذلك فميدان اختيار «راستي» هو الذي جعله يتنبَّه إلى عناصر كان قد أغفلها غريماس سواء أفي تعريفاته النظرية أم في تطبيقاته نتيجة اختياره كذلك.

١.٢.٢."جماعة أم" تشاكل غريماس يهمل القاعدة التركيبية المنطقية للخطاب:

وهذا التوسيع نفسه تبنته "جماعة أم" (Groupe M)، في كتاب لها بعنوان "بلاغة الشعر ١٩٩٧" (la Rhétorique de la poésie)، مقترحة بدورها تعريفا للتشاكل يخالف تعريف غريماس، مفاده أنه "تكرار لنفس البنيات التركيبية (عميقة أو سطحية) على مدى امتداد قول"[٤٨] ما. إن التشاكل بحسب هذا التحديد، لا يمكن أن يخلو منه خطاب مهما كانت طبيعته، سواء أكان علميا أم فلسفيا أم سياسيا... بالإضافة إلى تشاكل تعبيري إضافي ناتج عن طبيعة بنية الشعر، يتجلى بصفة خاصة في الإيقاع والوزن والنبر، وتكرار الأصوات بأنواعه المختلفة[٤٩].

لقد كان هذا التعريف الموسَّع الذي صاغته "جماعة أم" (Groupe M) لمفهوم التشاكل، مدخلا أساسيا للولوج من خلاله إلى انتقاد تحديد غريماس له، من حيث كونه أبعدَ عنصرا جوهريا في الخطاب وهو التعبير، "كما أنه أخذ في الاعتبار الشرط الإيجابي في تعريفه للتراكم المعنوي، ولكنه لم يعر الانتباه إلى الشرط السلبي، لأن العلاقات التركيبية لا تستطيع أن تضع مقومات (سمات) متعارضة في علاقة تجديدية (كالمساواة والحمل). ومعنى هذا "أن غريماس" راعى القاعدة المعنوية وأهمل القاعدة التركيبية المنطقية"[٥٠].

١.٢.٣."جونتان كلر: تشاكل غريماس تطبعه العشوائية وعدم وضوح المعايير المستنَد إليها في استنباطه:

هذا ويذهب الباحث "جونتان كلر" (J.CULLER) نفس المذهب، منتقدا ليس التعريف الذي يضعه غريماس لمفهوم التشاكل، بل متسائلا عن الطريقة التي يمكننا من خلالها استنباط هذه التشاكلات والنظائر في نص معطى، وعن مصداقية القواعد العلمية التي يمكن الاستناد إليها في تحليل تشاكلي كذاك الذي ذهب إليه غريماس في دراسته لعالم برنانوس (L'Univers de Bernanos)[٥١]، والذي اكتشف أنه قائم على تشاكلات ممثلة في "الحياة، الموت، الفرح" والتي تقع في تضاد مع "الموت الماء، الضجر". هل الطريقة التي اتبعها غريماس في مسعاه هذا والقواعد التي استند إليها في تحليله، علمية وموضوعية، أم عشوائية وذاتية وانطباعية؟ كيف استطاع غريماس استخراج الأوصاف التي ينسبها إلى الحياة- يقول كلر- بينما يتردد هذا اللفظ في أكثر من موضع في نصوص «برنانوس» للتعبير المجازي أو للدلالة الرمزية؟ ليضيف متسائلا أيضا بحيرة: كيف نستطيع إتباع إجراءات غريماس ونحن نجهل قواعد استعمالها وتطبيقها ميدانيا في التحليل[٥٢]؟ هل الطريقة العشوائية في اختيار التشاكلات والنظائر في نص ما يمكن أن تكون أسلوبا علميا ينبغي الاعتماد عليه؟ ليختتم مستدركا ومعقبا، أن عملية استخراج التشاكلات من النصوص بطريقة موضوعية، ليس بالأمرِ الهين، على الرغم من إقرار غريماس بأن لكلِّ نَصٍّ معنى عاماً يقوم عليه، وما على الباحث سوى إدراكه من خلال جملة العبارات الحاملة

٤٨- ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، مرجع سابق، ص ٢١.

49- Groupe M, la Rhétorique de la poésie, P.U.F, Paris, 1997 , p.82

٥٠-ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، (استراتيجية التناص)، مرجع سابق، ،ص ٢٢.

٥١- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

52- Voir: A.J. GREIMAS, Univers de Bernnnos, in sémantique structurale, op.cit. p.p. 225.256

له، والمتضمنة لسيمات سياقية تتواتر وتتراكم عبر كامل نسيج النص، بإمكانها إرشاده- الباحث- إلى ضبط التشاكلات واستنباطها وإبرازها[٥٣]، وهذا يعتمد بالدرجة الأولى على ذوق الباحث وعلى كفاءته، وعلى حصافته وخبرته وسعة معرفته، أكثر مما يعتمد على قواعد علمية صارمة وواضحة.

١.٣). السردية (la narrativité) والمسار التوليدي (génératif le parcours):

لم يقتصر أمر انتقاد بعض المفاهيم الإجرائية لنظرية غريماس على ما سبق ذكره فقط- المربع السيميائي والتشاكل- بل تعداه ليشمل مفاهيم أخرى ومنها «السردية» (la narrativité)، فعلى الرغم من أنها خاصية تشمل- في نظر غريماس- كل ضروب السلوك والتصرُّف، وأنها دعامة الخطاب[٥٤]، لكونها مّثّلت مبدأ تنظيميا مركزيا في التحليل البنائي في الستينات والسبعينات لأسباب تاريخية، وأخرى علمية، من حيث كونها وفرت جهازا مفاهيميا لكل الدوال التي كانت في حجم الجملة، أو أكبر من الجملة (النص)[٥٥]، إلا أنها لم تسلم- حسب الفهم الذي طرحه بها غريماس- من انتقادات وُجِّهَت إليها، وقُصورٍ لوحِظ فيها.

تقوم السردية على مفاهيم معروفة منها مفهوم «**العامل**» الذي اختلف الباحثون كثيرا في تحديد طبيعته وتسميته كل حسب إستراتيجيته وميدان بحثه، فكان عند «سوريو» (SOURIAU) حالة دلالية، وعند "فيلمور" (FILLMORE) دورا دراميا، وعند "تنير" (TESNIERE) عاملا نحويا، وعند "غريماس" (GREIMAS) عاملا سرديا. ولقد أثبت هذا المفهوم فعاليته التحليلية والتقعيدية سواء

٥٣- ينظر نادية بوشفرة، المسار السردي في الموروث الحكائي، مرجع مذكور سابقا، ص ١٧٠ –١٧١

54- J. CULLER, Structuraliste poetics, Rout ledge and Keg an Paul, 1975.

٥٥- ينظر: محمد مفتاح، بعض خصائص الخطاب، مجلة علامات، ج٣٥، مج ٩، ص.١١.

أي في تلك الدراسات التي اتخذت الجملة موضوعا

لها أم في تلك التي اتخذت النص كاملا، وسواء أتلك التي اعتمدت على الفعل مباشرة، أم تلك التي اعتمدت عليه بشكل غير مباشر عن طريق مجموعة من التحويلات السردية[٥٦]، من حيث كونها تحتوي على عدد من الأماكن العاملية التي تكوِّنُ ما أسماه "تنير" و"فيلمور" "الخشبة" (la scène)، ومكّن بالتالي- هذا المبدأ التفسيري- الباحثين من اختزال نصّ طويل إلى نص قصير جدا.

لقد مكن هذا الاختزال من التفكير في «نحو سردي للنصوص»، من حيث كونه وفّر تبريرا لنوع من المعادلة بين البنية السردية البسيطة كالجملة، وتلك التي تبدو أكثر تعقيدا كالقصة، والحكاية الشعبية أو الرواية، وأصبح بالإمكان انطلاقا، منه تشكيل مبدإ يقوم على مفاهيم سردية لكل خطاب، اعتمادا على المعارف المكتسبة في تحليل الجملة[٥٧]، والذي يمكن تلخيصه- المبدأ- ضمن قاعدة تجريبية مفادها أن المعنى لا يدرك «إلا من خلال التحويلات»[٥٨]، كما يؤكّد فانتاني.

١.١.٣. جاك فانتاني: سيميائية التلقي وتجاوزها لسردية غريماس:

إنَّ هذا الإجراء على الرَّغم من الفعالية التي أثبتها والخدمات التي مدَّ بها محللّي النصوص على اختلاف إستراتيجياتهم، إلا أنه في نظر «ج. فانتاني» (J.FONTANILLE) لم يعد كافيا في تصور آفاق مستويات تحليل الخطاب. فبعد أن كشفت التحليلات السردية، أنَّ الذي يمكن إمساكه هو التحويل الفعلي من حالة ثابتة إلى حالة أخرى جديدة عبر صيرورة البرامج السردية التي يخضع لها البناء السردي للخطاب، تَعَقَّد هذا الإجراء، ولم يعد بإمكان التحليل أن يطال الدلالة الفاعلة التي تتَشكّل فور القراءة، وإنما الثابتة المستقرة بعد

٥٦- ينظر: عبدالقادر شرشار، مستويات التحليل السيميائي في مقاربة النص السردي، مجلة بحوث سيميائية، مرجع مذكور سابقا، ص ١٤٠.

٥٧- ينظر: المرجع نفسه، ص ١٤١.

٥٨ - ينظر: المرجع السابق، ص ١٤١.

التحويلات الناتجة عن البرامج السردية في أثناء تتالي الحالات والتحويلات، ولذلك تبقى مقولة "السردية" غير كافية في تصور آفاق مستويات تحليل الخطاب في منظور سيميائية التلقي[٥٩] التي يتبناها فانتانيي.

٣.١.٢. جاك فانتانيي: المسار التوليدي لغريماس عاجز عن الكشف عن الكيفية التي يتم بها التلفيظ، وعن تلك التي يتم بها الاختيار والتنظيم:

أما المسار التوليدي باعتباره ترسيمة موجَّهة- كما يؤكد المعجم[٦٠]- يرتبط بكل الأنظمة الدلالية الفعلية وغير الفعلية، والتي تتيحُ- الترسيمة- للمحلِّل في أثناء تتبعه للمسار من البداية إلى النهاية الانتقال بطريقة متتالية من الصعيد الأكثر بساطة والمسمى (قصصي) إلى الصعيد الأكثر تعقيدا والمسمَّى (خطابي) أو باعتباره- بعبارة أخرى- نموذجا لترتيب المقولات في خطاب ما، ابتداء من تلك المقولات المجردة (البنيات الأولية) وانتهاء بالمحسوسة (البنيات المشخصة للخطاب)، والذي من شأنه- بفضل تحويليته، وبخاصة التحويل المُضمَّن فيه- تمكين الدارس من التعرُّف إلى وضعية مجموع البنيات الممكنة في أثناء عملية التلفظ، فإنه- المسار- في شكله التصاعدي والتنازلي لا يكشف في نظر فانتانيي" (FONTANILLE) عن الكيفية التي يجري بها التلفيظ، ولا عن الكيفية يتم بها الاختيار والتنظيم، والامتزاج بين الوحدات من أجل إبداع مقولته، ولذلك، ومن أجل الوصول إلى هذا الكشف- يؤكد فانتانيي- ينبغي التفكير في وسائل وأدوات إجرائية أخرى[٦١].

١.٤). البنية العاملية (Structure actantielle):

١.٤.١. آن أوبرسفالد: ترسيمة غريماس العاملية تنطوي على خلل في مَوقَعَة العوامل:

لقيَت البنية العاملية كما صاغها غريماس بتأثيرَ من بروب وتنير، والتي احتفظ فيها بستة عوامل رآها تُنظِّمُ العوالم والأفكار والقيم بصفة عامة، مُمَيِّزًا في خضمِّ ذلك بين عوامل البلاغ (السارد والمسرود له) وبين عوامل السرد أو الملفوظ (الذات/الموضوع، المُرسِل/المرسَل إليه)، مقيما من خلال ذلك مقابلة مَن منظور نحوي، بين العوامل التركيبية المسجَّلة في برنامج سردي معين، مثل ذات الحالة وذات الفعل، وبين العوامل الوظيفية التي تؤدي أدوارا عاملية في المسار السردي، والمجسَّد في الشكل الآتي:

مُرسِل ← موضوع ← مرسَل إليه

مساند ← ذات ← معارض

لَقيَت انتقادات وتعديلات من قِبَل الباحثة المسرحية "آن أوبرسفالد" (Anne UBERSFELD)، حيث ذهبت إلى القول إنَّ هذه الترسيمة العاملية غير مُقنعَة من حيث مقروئيتها ، لكونها- كما ترى- تنطوي على خلل في مَوقَعَة العوامل في خاناتها الحقيقية، فثمَّة جملة مفتاحية لقراءة الشكل: **المرسل يطلب من الذات تحقيق موضوع لفائدة مرسَل إليه**، وهذا يعني أن السهم يجب أن يمرَّ من المرسِل إلى الذات ثم إلى الموضوع- لا من المرسِل إلى الموضوع كما يجسده الطرح الغريماسي- فالمرسِل لا يمكن أن يطلب شيئا من الموضوع لكونه مسعىً وليس ذاتا، وعليه يصبح من المتعذَّر قراءةُ الترسيمة على ذلك النحو الذي صاغه بها غريماس[٦٢].

أما الخلل الثاني الذي تنطوي عليه هذه الترسيمة الغريماسية في نظر آن أوبروسفالد، فيتمثَّل «في إمكانية وجود مساندة أو معارضة للموضوع وليس للذات، أي احتمال انزلاق السِّهام

59- Jacque FONTANILLE, sémiotique et littérature, Op.Cit. p.p.7-8.

٦٠- ينظر: عبدالقادر شرشار، مستويات التحليل السيميائي في مقاربة النص السردي، مرجع سابق، ص ١٤١.

61- A. J. GREIMAS, J.COURTES, Dictionnaire raisonné, 1979.

٦٢- ينظر: عبد القادر شرشار ،المرجع المذكور سابقاً، ١٤٠.

المتَّجهة نحو الذات التي قد تغدو شكلا أجوف لا قيمةَ له من دون موضوع يشحنها دلاليا وقيميا، ومع ذلك- تؤكد الباحثة- لا يمكن إغفال وجود حالات كثيرة تكون فيها المساندة أو المعارضة للذات كوجود. وللتدليل على ذلك- تضيف- يمكن دراسة العصبيات وممارسته الجماعات الرعوية. ولترميم ما رأته خللا، تقترح الباحثة ترسيمة مغايرة قليلا لترسيمة غريماس، لتبرير المقروئية، والمجسَّدة في هذا الشكل[٦٣]:

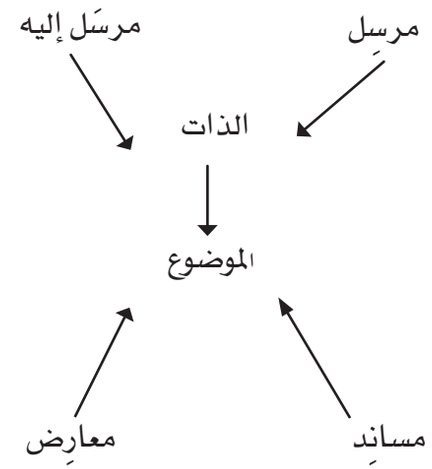

يتبيَّن جيدا لقارئ هذه الترسيمة أن سهم الرغبة غيَّر مجراه وأصبح يُوصِلُ المرسِل بالذات التي تسعى إلى تجسيد موضوع فرضي، وقد بينت الباحثة بالحجة، انطلاقا من دراسات ونماذج ركزت على المسرح الإغريقي، أن هذا البديل بإمكانه أن يحل محل ترسيمة غريماس[٦٤] السالفة الذكر.

غير أنَّنا نشير إلى أنَّ هذه الترسيمة التي تأتيها الباحثة هنا كبديل لترسيمة غريماس، لا يمكن أن تستقيم- واقعيا- ذلك لأن المساندة أو المعارضة، تكون موجَّهة، إلى (الذات) التي تسعى إلى تحقيق وصلة بموضوع القيمة، وليس إلى الموضوع كمبتغى، وعليه يمكن أن يُسفرَ تعديل ترسيمة الباحثة بناء على هذه الملاحظات، عن الشكل الآتي:

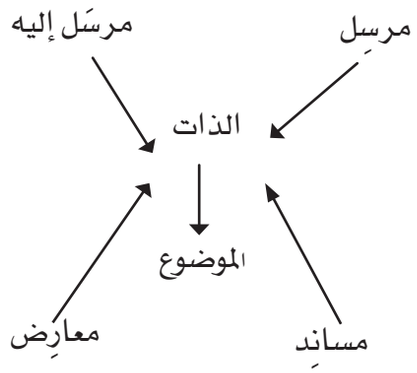

١.٥). اشكالية تصنيف الشخصية (Personnage):

بارت: وغموض معايير تصنيف الشخصية لدى غريماس:

يذهب «ر.بارت» (R.BARTHES) في مقاله الشهير "التحليل البنيوي للمحكي" إلى أن المشاكل التي يطرحها مفهوم "الشخصية" على التحليل البنيوي للقصة، منذ بروب إلى يومنا هذا مازالت تطرح نفسها بقوة. فعلى الرَّغم من اتفاق جلِّ الباحثين "حول كون العديد من شخصيات القصة يمكن أن تكون خاضعة لقواعد الإبدال، ويمكن أن تندمج في صورة واحدة، حتى داخل الأثر القصصي نفسه، مع صور شخصيات مختلفة"[٦٥]، وعلى الرغم من تلك المحاولات الحثيثة التي أتاها هؤلاء للتغلُّب على هذه العقبة إلا أن المشكل ما يزال قائما.

فالنموذج الفاعلي (actantiel) مثلا الذي اقترحه غريماس، باعتباره نموذجا بنيويا "يساوي بشكله المقبول (جداول من ستة فواعل) أقل مما

63- Voir : A.UBERSFELD; Lire le théâtre, éd, Sociales, Paris 1982 (Chapitre : Les personnages dans le théâtre)

64. Idem

٦٥- ينظر: سعيد بوطاجين، الاشتغال العاملي، دراسة سيميائية، "غدا يوم جديد» لابن هدوقة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٤.

يساوي بتحوُّلاته المنتظمة (الحذف، الالتباس، المضاعفة، الإبدال) التي تتلاءم معها، فاسحا بهذا إمكانية الوصول إلى نمذجة فاعليه في القصص"[٦٦]- والذي تناوله كل من بريمون وتودوروف من خلال منظور مختلف، حيث يجزئه الأول ويختزله الثاني- على الرغم من صمود اختباراته أمام عدد كبير من القصص، إلا أنه وبخاصة "عندما يكون لجدول التوزيع قوة التصنيف (هذه هي حالة الفواعل لدى غريماس) فإنه يسيء تقدير تعدد أسماء الفاعل والمفعول[٦٧]، ذلك أن «الصعوبة الفعلية التي يطرحها تصنيف الشخصيات هو موقع (ووجود) الفاعل في كل جدول توزيع فاعلي، مهما كانت صيغته. من هو فاعل (بطل) القصة؟ هل هناك فئة محظوظة من الممثلين الفاعلين؟ لقد عوَّدتنا قصصنا المكتوبة أن نحرِّك، بطريقة أو بأخرى وأحيانا بطريقة ملتوية (سلبية) شخصية من بين شخصيات أخرى. لكن الامتياز يبقى بعيدا عن تغطية مجمل الأدب السردي»[٦٨].

ولتجاوز هذا الإشكال يقترح بارت، ضرورة الاقتراب مرة أخرى من الألسنية، حتى نستطيع أن نصف مرتبة الشخصين ونصنِّفَها: المتكلم والمخاطَب (أنا/أنت)، وشخص الغائب (هو)، في صيغة المفرد والمثنى والجمع، أي شخص العمل. هذه- لربما- الفئات النحوية للشخص التي ستفتح الطريق أمام مستوى العمل. لكن بما أنَّ هذه الفئات لا يمكن أن تتحدَّد إلا بالنسبة إلى مرتبة الخطاب وليس بالنسبة إلى مرتبة الواقع، لا تجد الشخصيات، كونها وحدات مستوى العمل معناها (معقوليتها) إلا إذا جعلناها تتداخل في المستوى الثالث، مستوى الوصف، الذي نسميه مستوى السرد في (مقابل مستوى الوظائف والأعمال)[٦٩].

٦٦- رولان بارت، التحليل البنيوي للقصص، تر/ نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، ع٥، شتاء ١٩٨٩، ص٣١.

٦٧- المرجع نفسه، ص ٣٢.

٦٨- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٦٩- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١.٦). المعجم المعقلن لنظرية الكلام:

بيتر دوميجر: المعجم المعقلن لنظرية الكلام مغلق على نفسه وصعب الاستعمال:

إن مؤلَّف "السيميائية": المعجم المعقلن لنظرية الكلام Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage) الذي أصدره غريماس رفقة جوزيف كورتيس (J.COURTÉS) سنة ١٩٧٩، والذي يرى بشأنه "جان كلود كوكي" (J.C.COQUET) أنه مؤلَّفٌ ليس له مثيل في مجال السيميائية، لكونه يسلِّط الأضواء على نحو لافت للنظر- من خلال تبنِّيه لتقديم استبدالي لـ (٦٤٥ مادة)- على درجة تَقَدُّم النظرية ومجال التطبيق الذي يدعِّمُها. من حيثَ كونه يقترح «تفكيرا في المفاهيم» الضرورية لتحليل "الكلام"، الذي يعني أيَّ تمفصل لعالم دلالي يشكل "مجموعة دالة"[٧٠]، والذيَ يقول فيه «ميشال آريفي» بهذا المؤلف الضخم تكون السيميائية قد انفردت بأداة عمل لا مثيل لها[٧١]. يذهب بشأنه الباحث «بيتر دوميجر (Pieter de MEIJAR)- منتقدا بعض الصعوبات والتعقيدات التي ينطوي عليها قائلا: إن هذا الكتاب الذي تسيطر عليه مسلَّمةُ "التسليم بقواعد" أكثر شمولية تحلِّل اللغات والرواية معا[٧٢]، لا يخلو من صعوبة وتعقيد، فكثيرٌ من المفاهيم المحدَّدة فيه بشكل واضح، مثل "الحدث" و"السياق" و"الفعل" و"التصرف"، فضلا عن أنها لن تحظى بسهولة بموافقة جميع الباحثين، أي أنها أبعد من أن تلقى تعريفات متواطئة (Univoques)، فإن "نظام الإحالات الداخلية المتَّبَع في المعجم مغلقٌ تماما على نفسه، مما يصعِّبُ اعتماد إحدى العبارات دون اعتماد النظام الغريماسي كله في الوقت نفسه[٧٣]".

٧٠-المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

٧١- جان كلود كوكي، السيرة الذاتية والعلمية لـ أ.ج. غريماس، تر/ رشيد بن مالك، في كتاب «البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، الجزائر ٢٠٠٠، ص ٩٧

٧٢- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٧٣- بيتردوميجر، تحليل الرواية، تر/ غسان شديد، مجلة العرب والفكر العالمي، مرجع مذكور سابقا، ص ١٠٥.

١.٧). انتقاد النظرية كلها ومحاولات تجاوزها:

جان كلود كوكي: سيميائية التلفظ وتجاوزها لسيميائية غريماس الميكانيكية:

يقدِّم «جان كلود كوكي» (J.C.COQUET) في بحثه الشهير "السيميائية مدرسة باريس (SEMIOTIQUE: L'ECOLE DE PARIS) [٧٤] –وعلى الرغم من كونه أحد المنتمين إلى هذه المدرسة والمتبنين لنهجها– نقدا ذاتيا لا يخلو من وجاهة. حيث يشير في هذا الصدد إلى أن مدرسة باريس الحديثة العهد يقصد ما بعد غريماس– تحتاج– لمواكبة التطوُّر الحاصل في مجال المعرفة الإنسانية بعامة والسيميائية بخاصة– إلى باحثين يعرفون كيف يتجنَّبون الآلية الفكرية ويجددون[٧٥]. فقد آن الأوان– كما يضيف– لأن نضعَ إنجازات هذه المدرسة موضع تساؤل، فالمغامرة العلمية التي أرسى دعائمها شخص واحدٌ– يقصد غريماس– لا يمكن إلا أن تتجاوزه مع تطور الزمن وتقدم المعرفة، فالمسلمات التي تبناها «غريماس» في سيميائيته الموضوعاتية والمُستَمدَّة من بنيوية الستينات السكونية، والتي تبنتها مدرسة باريس فيما بعد، وكانت مُلزَمة بمتابعة أبحاثها، قد تجاوزها الزمن في نظر «كوكي»، ولا أدل على هذا– كما يؤكد– من ذلك التحول الابيستيمولوجي الذي حدث في السبعينات مع ظهور أعمال "أميل بنفينست" **(E.BENVINISTE)** حول التلفظ[٧٦].

ولكن ما ينبغي الإشارة إليه هنا وربما يكون (كوكي) قد أغفله، هو أن غريماس أدرج مسألة "التلفظ" في أثناء تمييزه بين عوامل "السرد" وعوامل "التبليغ"، وفي نفس الإطار توسَّع فيها ج.كورتيس بعد التسعينات استنادا إلى البعد التداولي.

إن هذا الألسني، المقارن الكبير– بنفينست– يَذكُر– كما يؤكد كوكي "– بأهمية ثابتات الكلام التي همشتها أو استبعدتها، خلال الحقبة السابقة، السيميائية الغريماسية على وجه الخصوص. ويتمثل هذا التحول الذي أصبح أساسيا، في تبني "بنفنست" لما أسماه "الحقل الوضعياتي للفاعل". كان ينبغي إذن– والحال هذه– إدراج مفهوم الاطراد ضمن ثابتات الفاعل والفضاء والزمن دون الاقتصار على التقطع[٧٧]، كما كان ينبغي بالإضافة إلى هذا أن نقيم– انطلاقا من مقياس المسافة– وضعيات الموضوع التي تبدو أحيانا غير مدركَة كـ (الاقتراب، الانتشار، الابتعاد،...)، وفي مقابل ذلك كان يجب أيضا أن تؤخَذَ بعين الاعتبار العوامل في صيروتها دون الاكتفاء بذلك التحويل البسيط والميكانيكي للحالات، كما كان ينبغي كذلك– في هذا الإطار– أن يتم التأكيد على ذلك الترابط المتبادل بين الواقع والصدق، دون الاقتصار على مفاهيم الوهم "المرجعي و"التصديق "المثبتة في المعجم"[٧٨].

بالإضافة إلى هذا، كان ينبغي– كما يضيف كوكي– أن يتم تحوير الترسيمة العاملية لتتلاءم ومتطلبات التلفظ، ليَرِدَ– وفق هذا المنظور– كل خطاب إلى آنياته المتلفظة، والتي يمكن ذكر ثلاث منها وهي: المرسل، والفاعل واللافاعل، حيث تتحدد كل آنية من هذه الآنيات– كما يقول– من خلال بنيتها الكيفية. وبناء على هذا، فعلى الرغم من أن مجال شرعية سيميائية الجيل الأول– غريماس ومجايليه– يبدو بارز المعالم، إلا أنه ضيق إلى أبعد حد– كما يؤكد كوكي– وذلك لأنه لم يغطِّ الظواهر الكلامية التي تبناها «بنفنيست» والتي تسعى سيميائية الجيل الثاني اليوم إلى توضيحها وحلِّ إشكالها[٧٩].

إن سيميائية غريماس– الجيل الأول– أصبحت مُتَجاوَزَة إذن والحال هذه، وذلك لأنه إذا كان الباحث قد تعَوَّد على تحليل «الملفوظ» مع هذه

٧٤– المرجع نفسه، ص ١٠٧.

75-J. C. COQUET, «La sémiotique l'école de Paris». Hachette Université, Paris, 1982.

٧٦– لمزيد من التفصيل ينظر: جان كلود كوكي، السيميائية: مدرسة باريس، تر/ رشيد بن مالك، مجلة تجليات الحداثة، مرجع سابق، ص.ص ٢١٢، ٢٣٨.

٧٧– ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٢٤.

٧٨– ينظر: المرجع السابق، ص ٢٢٣.

٧٩– ينظر: المرجع السابق نفسه، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

الأخيرة، فإنه الآن تواجهه إشكاليةٌ تفقدُ فيها مفاهيم «المربع السيميائي» و«المسار التوليدي مكانتها»[٨٠]. إن التصورات الراهنة لمدرسة باريس كما يوضح كوكي- تختلف اختلافا جذريا عما كانت عليه بالأمس، فهي على الرغم من كونها لا تزعم أنها ستتشكَّل إلى نظرية شكلية لكل الكلم- على نحو ما كان غريماس يريد تأكيده أو بالأحرى الوصول إليه- إلا أنها "في بنائها للنماذج المفهوماتية لا تتخلى عن رغبتها في أن تعتبر كمعيار على نحو ما كان يُطالبُ بذلكه هيلمسلف **(HJELMSLEV)** وإلا وعلى أقَل تقدير كمرجع لعلوم الإنسان"[٨١].

انطلاقا من هذا، فإن الحاجة تُصبح جدُّ ماسة- في نظر كوكي- إلى بروز دارسين جُدُد يعرفون كيف يتجاوزون الآلية أو النمطية الفكرية، ويتكيَّفون مع ظروف العصر وثقافته المتطورة دوما، عبر التجديد والاجتهاد المتواصلين، وذلك لأن كلَّ مجتمع، وكلّ ثقافة، وكلّ نص يثير أسئلةً تثري الإجابةَ عنها النظريةُ، وتسهم في تغييرها بعمق، بل وفي رفضها[٨٢] إن اقتضت الضرورة المعرفية ذلك.

يتبيَّن لنا من خلال رصدنا لبعض الانتقادات التي وُجّهت إلى نظرية غريماس من قبل بعض الدارسين الغربين، أن جل هذه الانتقادَات تركّزُ من جهة أولى، على ذلك التعقيد الذي يكتنف بعض المفاهيم التي بنى عليها نظريته، كما تركّزُ من جهة ثانية على نزوعه اللافت إلى تعميم نظريته كي تنطبق على مختلف النصوص- سردية كانت أم غير سردية- مُؤاخذَةً عليه في ذات الصدد عدم انطباقها أو بالأحَرى عدم ضبطها لميكانيزمات اشتغال النصوص السردية الطويلة- وكذا الشعرية في قضية التشاكل التعبيري- والمتحولة، ونعني الروائية بصفة خاصة، فهي- النظرية- وإن كان يُعترَفُ لها بفاعليتها في مجال الحكايات وبعض النصوص السردية القصيرة- القصة القصيرة- فإنَّ الرواية تستعصي عليها. ناهيك عن صعوبة تمثّلها وعُسرِ استيعابها من قِبَلِ كثيرٍ من المتلقّين.

إن هذه الانتقادات وإن كانت تتميَّز ببعض الوجاهة فيما ذهبت إليه، فأصابت كبد الحقيقة، فإن بعضها الآخر جانَبَ الصواب، وبالغ في مسعاه حينما لم يُقَدِّر الجهد الذي بذله صاحبها في تأسيسها والإضافات التي حقَّقها، ولم يراع طبيعة النظرية ولا الفتوحات المنهجية التي قدمتها في سبيل تيسير البحث في مجالها. ولعل أبلغَ ردٍّ يمكن أن يُوَجَّه إلى هؤلاء، هو ما يجترحه غريماس نفسه، موضحا طبيعة دراسته ومبيِّنًا حدودها وأبعادها، حينما يلهج قائلا، بأن تفسير عمله- يقصد دراسته لموباسان MAUPASSANT- جدُّ بسيط، إذ يكفي القول في هذه اللحظة، بأن الأدوات المنهجية التي أصبحت تتوافر عليها السيميائية الخطابية في الوقت الراهن لا تمت بأية صلة- أو على أقل تقدير لا تستجيب بعد- لمتطلبات تحليل النصوص الأدبية المعقدة[٨٣].

كما نجده يعترف في موضع آخر- في مقدمة كتابه في المعنى II (Du sens II)- مُدركًا سُنَّةَ التطور، ومعترفا بإمكانية تجاوز نظريته قائلا إنَّ "المشروع العلمي اليوم يُعدُّ الفضاء الوحيد الذي لا يزال يمتلك فيه مفهوم التطور معنى"[٨٤]، ولذلك فكما تطوَّرت السيميائية على يديه بعض التطوُّر وظهرت بوجه جديد حينما تحررت من الرسم ذي الإيحاء البروبي، فعدَّل كثيرا من مفاهيمه لتستجيب لضرورة التطور العلمي- عندما أسَّس لتركيبة مستقلة، مُمثَّلة في البرامج السردية، والبرامج الأساسية والملحَقة، والمواجَهة الجدلية بين فاعلين تكون مساراتهما محكوما عليها

٨٠- ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٢٤.

٨١- ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٨٢- جان كلود كوكي، السيميائية مدرسة باريس، تر/ رشيد بن مالك، المرجع السابق،ص٢٢٤.

٨٣- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

٨٤- تجدر الشارة هنا إلى أنه « إذا كانت السيميائية لا تستجيب في الوضع الراهن للبحث، لمتطلبات تحليل النصوص المعقدة، فأغلب الظن أن مصدر التعقيد يستحيل أن ينجم عن حجم النص، فهو وليد قصور الأدوات المنهجية ليس إلا وطبيعة الجهة التي تبنى على متنها الإشكالية». ينظر: رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق، مرجع مذكور، ص ٥.

بالتقاطع، بالإضافة إلى بعض القضايا المتصلة بها كالكفاءة الجهاتية، وإعداد سيميائية الفاعل وسيميائية الموضوع[٨٥] وغيرها- فإنَّه ليس من الغريب في شيء، أن يأتي من بعده من يعدِّلُ بعض مفاهيم نظريته، أو يؤاخذها ببعض قصورها وعدم وضوحها.

ولكن على الرغم من هذه الانتقادات التي تبدو قاسية أحيانا، إلا أننا لا نعدم في هذا الصدد من يشيد بهذه النظرية ويعترف بما قدَّمه صاحبُها من مجهودات معتبرة في مجال تحليل النصوص السردية وضبط قوانين اشتغالها. وفيما يأتي بعض ذلك.

١.٨). الإشادة بوجاهة النظرية وبفاعليتها التحليلية:

١.٨.١. بريمون: والإقرار بالتأثير البالغ لنظرية غريماس في مجايليه واللاحقين له:

فهذا "كلود.بريمون C.BRÉMOND" على سبيل المثال لا الحصر، والذي ينطلق من رؤية موضوعية تسلِّم بالإيجابي فيما هي لا تغفل عن السلبي، لم تثنه تلك الانتقادات الوجيهة السالفة الذكر التي يوجهها لمسعى غريماس، عن الإشادة بنظريته والاعتراف بسلامة كثير من طروحاتها. مؤكدا في ذات السياق فاعلية الإسهام الذي حققته- بالإضافة إلى إسهامات أخرى في نفس المجال من قبَل باحثين آخرين- من خلال إرساء قواعد متينة وعامة لنحو السرد، وبالتالي ضَبط بعض خصائص سيميولوجيا الخطاب السرديَ كيفما كان نوعه، واستجلاء تمفصلاته الحكائية، مما جعلها- النظرية- ذات تأثير بالغ في كثير من الباحثين الذين أتوا بعد غريماس أو عاصروه، ومنهم بريمون نفسه، حيث يلهج في هذا الصدد قائلا:» يمكن النظر إلى هذا التحرِّي على أنه موضوعٌ مشتركٌ بين جهود العديد من الباحثين المتأثرين وبدرجات مختلفة بفكر غريماس ومن بين هؤلاء المُوَقِّعِ للمقال الحاضر»[٨٦].

١.٨.٢. ميشال آريفيه: والإعتراف بسلامة بعض طروحات غريماس والإشادة بالصيت الذي حققته نظريته:

وإذا كان بريمون يعترف صراحة بسلامة كثير من الطروحات الغريماسية، وبمدى تأثره وغيره بها، فإننا نجد «ميشال آريفيه» (M. Arrivé) يؤكد في نفس السياق ذلك الصيت الكبير الذي أحدثته مدرسة غريماس، ومبلغ تأثيرها في كثير من الباحثين المجايلين له والتالين، حيث يذهب إلى القول «تأثَّر البنيويون، بطبيعة الحال، وفي اتجاهات مختلفة، بسوسير، هيالمسلف، تنير (TESNIÈRE) جاكبسون والبنيوي غير اللساني ليفي ستروس. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إنهم تأثروا بشكل أو بآخر بمدرسة ألجيرداس جوليان غريماس Algiréds Julien Greimas، نذكر على سبيل المثال جان كلود كوكي Jean Claude COQUET، جوزيف كورتيس J.COURTÉS، توما بافيل (T. PAVEL) فرنسوا راستيه (F. RASTIER)، بعض مؤلفيّ «محاولات في السيميائية الشعرية»، وأغلب المساهمين في «السيميائية السردية والنصية». وقد تلقَّى أيضا أغلب المتخصصين الفرنسيين في تحليل الحكاية (كلود بريمون، كلود شابرول Claude CHABROL) جيرار جينات، بول لاريفيه (Paul LARIVAILLE)، تزفيتان تودوروف، إلخ)، بأشكال متنوعة تأثير غريماس»[٨٧].

وأخيرا، ومهما يكن من أمر، فإنَّ احتمال تقادُم بعض مفاهيم هذه النظرية- وغيرها من النظرَيات الأخرى في شتى المجالات- وإمكانية تجاوزها يظل وارداً، ذلك لأنه قَدَرُ كلِّ جهد علمي. إذ أن من أهم خصائصه- كما يقول جيرارٌ جينات بحق- «هو اعترافه بقابليته الجوهرية للتقادم، وضرورة أن يصبح يوما ما وقد صار ماضيا

85- Voir: A.J. GREIMAS, Du Sens II, Op. Cit. p7

86- A. J. GREIMAS, Maupassant, sémiotique du texte, OP.Cit.p.9.

87- C. BRÉMOND, Logique du récit, Op.Cit. p 101.

منحصرا، وهذه خاصية سلبية مثيرة للشجن خاصة بالنسبة للعقلية الأدبية التوَّاقَة دائما للمجد والخلود[٨٨]. ولكن حسب هذه النظرية وصاحبها، أنها قامت بمجهود علمي منظم- سيحفظه لها تاريخ علم الأدب- استطاعت من خلاله ضبط كثير من آليات اشتغال الخطاب الإنساني بعامة، والمحكي، أي الأدبي السردي بخاصة.

٢) مأزق السيميائيات السردية من منظور النقد العربي:

لم يُقبِل النقاد العرب- وبخاصة بعد مرحلة النضج النسبي- على هذه النظرية بانبهار وافتتان مطلقين- على الرغم من وجود مثل هذا في بداية تعرفهم إليها- حيث أن بعض مفاهيمها وتوجهاتها كانت محل نقد ومؤاخذة من لدن كثير منهم.

وإذا لم تشمل هذه الانتقادات والمآخذ كل مفاهيمها وإجراءاتها بصفة شاملة إلا فيما ندر، كشأن من ذهب إلى حد التشكيك في كفايتها، وبخاصة عندما نخرجها من محدودية الحكاية الشعبية ونمطيتها إلى رحابة النصوص السردية الجديدة وانفتاحها وتنوع تحولاتها[٨٩]، إلا أن بعضها- كما سوف نوضح لاحقا- لم يسلم من ذلك، وهذا ما كان من شأن مفاهيم مثل: المربع السيميائي (le carré sémiotique)، والتشاكل (Isotopie)، والبرنامج السردي (Le programme narratif) والترسيمة السردية (Schéma narratif). بالإضافة إلى بعض الغموض الذي يكتنف مفاهيم مثل: البنيات الزمنية (s .Temporelles) والفضائية s. spatiaux وعدم وضوح طرائق اندراجها في صلب النص السردي، وكيفية إسهامها في إنتاج الدلالة أو المعنى، ناهيك عن عدم وضوح ميكانيزمات الانتقال من مستوى إلى آخر في النص ضمن مستوييه المعروفين لدى غريماس (المستوى السطحي) و(المستوى العميق). وفيما يأتي رصد لبعض هذه المآخذ والانتقادات، لنختتم المبحث بالتطرق إلى بعض الأحكام التي يشيد فيها أصحابها بقيمة هذه النظرية وفاعليتها في الضبط والتحليل، ومبلغ تأثيرها في كثير من المهتمين والمتخصصين.

٢.١). مآخذ النظرية وسلبياتها: ميكانيكيتها وقصورها وغموض بعض مفاهيمها.

٢.١. المربع السيميائي (le carré sémiotique):

إن المربع السيميائي الذي يعتبره غريماس، نموذجا شكليا تكمن وظيفته في استقراء المعنى وتحوله من طور إلى طور، بمعزل عن العالم الخارجي، وتجسيده (المربع) ضمن ذلك لشكل المعنى الذي يبني عليه النص في جملته، وقدرته بمقتضى ذلك على ضبط العلاقات المنطقية القائمة بين الوحدات الدلالية الكامنة في عمق النص، وبالتالي وصف الدورة الدلالية له (النص) ضمن اكتشافه لبنية الدلالة العميقة المؤسسة للنص والمتحكمة في بنيته السطحية، نال الحظ الأوفر من الانتقاد والمؤاخذة من قبل بعض النقاد العرب.

٢.١. ١. محمد مفتاح: المربع الغريماسي يُغَيِّبُ البعد التاريخي في تحليل النص:

فهذا «محمد مفتاح» على سبيل المثال لا الحصر، يذهب إلى أن المربع السيميائي- الذي يوجد جوهره لدى أرسطو- باعتباره شكلا هندسيا قائما على أربع علائق، والذي استمده غريماس من «بلانشو» لتشييد بنية دلالية قائمة على ثنائيتين متقابلتين **مقترحا ضمن ذلك علاقات أربعا تتمثل في التناقض والتضاد والتداخل وشبه التضاد، أدى في تصوره المنطقي إلى عدم اتساق، تجلى في استعصاء وجود مكانة ووظيفة للحد المركب، كما أدى إلى بروز أخطاء في تعيين موقع الحد المحايد، وكذا التوليف بين الحدين في مربع الكينونة والوجود، وقد شعر غريماس وصحبه-كما يؤكد هذا الباحث- بأنواع عدم الاتساق، فأعادوا النظر في التوليدات، ووضعوا مفاهيم جديدة،

٨٨- ميشال آريفيه، السيميائية الأدبية، تر/رشيد بن مالك في كتاب: السيميائية أصولها وقواعدها، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٢، ص ٨٤.

٨٩- عن صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مرجع مذكور سابقا، ص ٤٣٥.

معترفين ضمن ذلك، بأن التمييز بين التوليد الثاني والثالث ليس ذا فائدة، وخففوا من غلواء المفاهيم المنطقية الصارمة وهيمنتها، فاقترحوا مفهوم التخصيص المتبادل، ومفهوم التراتب والتدرج، ومع هذا يؤكد محمد مفتاح، بقي الخلط والاضطراب سائدين، لبقاء مكمن الداء، والمتمثل في تغييب البعد التاريخي[٩٠].

ولكن ما ينبغي التنبيه إليه هنا، هو أن السيميائية لا تلغي البعد التاريخي في مقارباتها -كما يذهب إلى ذلك محمد مفتاح- وهذا من حيث كونها – في حقيقة أمرها- نتائج مجموعة من الأسس أو التصورات الفلسفية الخاصة بالإدراك وإنتاج القيم وتداولها، بالإضافة إلى أنه لا يمكنها، وبخاصة في إطار الممارسة التطبيقية، أن تخلو من تأويل أولي يمتد إلى عناصر هذه النظرية نفسها، وذلك وفق التصور الذي يملكه الشخص المؤول عن الحياة وعن الإنسان.

٢.٢). التشاكل (Isotopie):

٢.٢.١. محمد مفتاح: تشاكل غريماس قاصر عن استيعاب النصوص غير السردية:

أما التشاكل بوصفه مفهوما إجرائيا لجأ إليه غريماس لتأكيد انسجام الخطاب، أو إيضاحه وإن كان مبهما، أو تشييد موضوعاته ورسائله العامة والخاصة[٩١]، مقصرا إياه على المضمون دون التعبير[٩٢]، فقد لقي توسيعات من قبل بعض أتباعه قبل أن يلقى اعتراضات وانتقادات من قبل غرمائه؛ وهذا ما كان قد قام به كل من "فرانسو راستي" (F.RASTIER) و"جماعة أم" (Groupe M)، وهما من أتباع غريماس ومن أعمدة «مدرسة باريس» (L'École de Paris) التي يتزعمها هذا الأخير كما سبق ذكره أعلاه. حيث غدا ذلك التعريف الموسع الذي صاغه هؤلاء لهذا المفهوم، مدخلا أساسيا ولج من خلاله بعض الباحثين العرب إلى انتقاد تحديد غريماس له، من حيث كونه أبعد عنصرا جوهريا في الخطاب وهو التعبير، «كما أنه أخذ في الاعتبار الشرط الإيجابي في تعريفه للتراكم المعنوي، ولكنه لم يعر الانتباه إلى الشرط السلبي، لأن العلاقات التركيبية لا تستطيع أن تضع مقومات* [سمات] متعارضة في علاقة تجديدية (كالمساواة والحمل). ومعنى هذا [أن غريماس] راعى القاعدة المعنوية وأهمل القاعدة التركيبية المنطقية»، حسب ما يذهب إليه راستي[٩٣].

فمحمد مفتاح في مؤلفه «تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)»، يذهب إلى أن التعريف الذي صاغه غريماس لمصطلح «التشاكل» في كتابه «علم الدلالة البنيوي ١٩٦٦» (sémantique structurale)، باعتباره "مجموعة متراكمة من المقولات المعنوية (أي المقومات) التي تجعل قراءة متشاكلة للحكاية، كما نتجت عن قراءات جزئية للأقوال بعد حل إبهامها، هذا الحل نفسه موجه بالبحث عن القراءة المنسجمة"*** يتضمن قصورا واضحا، من حيث كونه يركز على تشاكل المعنى الذي عبر عنه بـ "المقولات المعنوية"، التي يقصد بها المقومات الأساسية التي يتبناها أصحاب اتجاه «التحليل بالمقومات» (l›analyse sémique ou l›analyse componentielle)، مؤكدا على أن هناك اضطرابا مصطلحيا واضحا لدى المؤلف-يقصد غريماس دون أن يوضح مكمن هذا الاضطراب- كان خليقا به أن يتجنبه، ليعقب مستدركا- دون توضيح ما يقصد إليه حقيقة- على أنه قد يجاب على هذا بأن ذلك التعبير إنما هو لفظ جامع تولّدت عنه مفاهيم أخرى فرعية مثل: مقوم

٩٠- على نحو ما يذهب إليه الأستاذ عبد الملك مرتاض في مؤلفه، نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٨، ص. ٢٤٦-٢٥٢. وكذلك، سعيد بنكراد في كتابه، مدخل إلى السيميائيات السردية، مرجع مذكور سابقا.. ينظر على سبيل المثال الصفحات: ٥٧، ٥٨، ٧٦، ٧٧، ٨٧، ٨٩.

٩١- ينظر: محمد مفتاح، حول مبادئ سيميائية، علامات ، مرجع سابق ، ص ٥٤، ٥٥.

٩٢- ينظر: محمد مفتاح: بعض خصائص الخطاب، مجلة علامات، مرجع مذكور سابقا، ص ١١.

93- A. J. GREIMAS, J.COURTES, Dictionnaire raisonné… op.cit.p.p. 197, 199.

(sème) ومقوم سياقي (sème contextuel)[٩٤].

ولكننا نشير هنا إلى نظرية التحليل السيمي التي تبناها غريماس في بحوثه هي للساني برنار بوتي (Bernad POTTIER)، وهو أمر قد أغفله محمد مفتاح في هذه الاعتراضات التي يثيرها.

ولعل ما يهم «محمد مفتاح» في كل هذا، هو أن غريماس ركز في هذا الجزء من التعريف على التشاكل المعنوي فقط، كما أنه أقتصر على الحكاية دون غيرها، في حين أن التشاكل- كما يذهب إلى ذلك مفتاح ومن قبله «راستي» و"جماعة أم"* موجود ملاصق لكل تركيب لغوي، فعبارة «الأقوال» التي يوظفها غريماس في تعريفه السالف الذكر، توحي- حسب مفتاح- بأنه لم يعر انتباها إلى التقسيم الثنائي (المقال، القول) الذي أصبح معروفا فيما بعد[٩٥].

بالإضافة إلى هذا، يذهب الباحث نفسه في مقال له بعنوان «حول مبادئ سيميائية»[٩٦] إلى أن التحليل بالمقومات** (السيمات) (les sèmes) الذي يعد نواة القراءة التشاكلية ومرتكزها الأساسي، على الرغم من فوائده، وعلى الرغم من أنه يعد ضرورة من الضرورات العلمية للقيام بالفرز والتصنيف وصنع الأجناس والأنواع[٩٧]، إلا أنه يطرح عدة مشاكل؛ فإن كانت فوائده تتمثل في أنه يسمح بتصنيف الكيانات والكائنات في أجناس وأنواع، كما يسمح بتوسيع دلالة المحلل أو تصنيفها بإضافة سمة أو نقصها لتحقيق الترابط بين الأشياء وإلحاق بعضها ببعض باستعمال المقايسة أو التشبيه والاستعارة، وينتج عنه إنجاز قراءات متعددة للظاهرة أو للخطاب و/أو النص وتبيان وسائلها الأساسية والثانوية[٩٨]، إلا أن المشاكل التي يطرحها أكثر من أن تحصى، «ومنها صعوبة التمييز بين المقومات الذرية واللوازم والأعراض، ومنها أن تحليل الشيء أو المفردة مرتبط بخبرة المحلل ومعرفته الموضوعية، وبطبيعة ما يعرف، ذلك أن التحليل المعتمد على الحس المشترك ليس هو التحليل المستند إلى المعرفة المتخصصة، لقد حللنا المثال السابق* بمعرفة الحس المشترك، لكن تحليل الطبيب، أو المشرح أو الكيميائي أو عالم النبات أو التغذية يختلف بعض الاختلاف عن تحليلنا الجمهوري العاملي، ومنها أن المفردات المليئة يسهل فيها هذا التحليل وتقبله عكس المفردات المجردة التي يصعب تفكيكها إلى مقومات وسمات[٩٩]».

وعليه، كما يضيف الباحث ذاته، فإذا كان هذا الإجراء- التحليل بالمقومات- فعالا في ميادين معينة فإن كثيرا من الإبداعات المعاصرة تبقى بمنأى عنه، مقترحا ضمن ذلك لتجاوز هذا القصور-كما يرى- وبالتالي الولوج إلى حمى هذه النصوص، تبني إستراتيجية استكشافية تؤدي في نهاية المطاف إلى مشاكلات مماثلة للتشابه العائلي (L'aire famille)، ذلك لأن أفعال الإنسان وأعماله، كما يجترح، لابد أن تكون منظومة في سلك الوعي واللاوعي الواعي، لأن ما يفرق بين الإنسان وغيره هو أولية الوعي[١٠٠].

يتبين لنا من خلال هذا، أن ما يطرحه محمد مفتاح في هذا الصدد، لا يختلف كثيرا عما طرحه كل من "ف.راستي"، و"جماعة أم"، بخصوص توسيع التشاكل ليشمل التعبير والمضمون معا**، كما لا يختلف عن تلك التساؤلات التي طرحها "جونتان كلر١٩٧٥"[١٠١](J. Culler حول القواعد العلمية التي ينبغي الاستناد إليها لتحقيق أو إنجاز قراءة تشاكلية، مع بعض محاولات التوسيع والتأسيس التي يأتيها مفتاح كالعادة.

94- F. RASTIER, " Systématique des isotopies" in op.cit.p.82.

٩٥- ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري « استراتيجية التناص»، ص. ٢٠وما بعدها.

٩٦- المرجع نفسه، ،ص ٢٠.

٩٧- محمد مفتاح، حول مبادئ سيميائية، مجلة علامات، مكناس، المغرب، ع١٦،٢٠٠١.

٩٨- ينظر: المرجع السابق، ص ٦٠.

٩٩- المرجع السابق نفسه، ص ٥٨.

١٠٠- المرجع نفسه، ص ٥٨.

١٠١- ينظر: محمد مفتاح، حول مبادئ سيميائية، مجلة علامات، مرجع مذكور سابقا، ص ٦٠.

٣. ٢.). البنيات الزمانية والفضائية (Structures spatio-temporelle):

١. ٣. ٢.رشيد بن مالك: ثنائية غريماس الزمنية قاصرة عن التحكم في التركيبة الزمنية للنص وعاجزة عن ضبط أبعادها الدلالية:

لم تسلم البنيات الزمانية والفضائية بوصفها مفاهيم إجرائية بنى عليها غريماس بعض أسس نظريته من انتقادات وجهت إليها؛ حيث نجد في هذا الصدد الباحث "رشيد بن مالك" على سبيل المثال، يذهب إلى القول أن النتائج المعتبرة التي حققتها بعض الدراسات البنيوية لإشكالية الزمن في النص السردي مثل أعمال رولان.بارت R.BARTHES وت. تودوروف T.TODOROV، وخصوصا أعمال "جيرار جينات (G.GENETTE) الذي يعد من البنيويين البارزين الذين خصصوا بحوثا عديدة للزمن في النص السردي*- لم تستغل في البحث السيميائي بكيفية لائقة، على الرغم من كونها تكتسي أهمية بالغة في ضبط القنوات التي يمر عبرها المعنى، وتمثل في الآن نفسه أداة وصفية فعالة في تحليل النصوص ومساءلتها وتحديد برامجها السردية، حيث اكتفى السيميائيون -وعلى رأسهم غريماس- في بحوثهم بالتقطيع الزمني الثنائي الذي تنبني فيه الحكاية على الثنائية الزمنية: (قبل عكس بعد)، مختزلين إياه في شكل يخفي كثيرا من التفاصيل الزمنية التي تحكم الحكايات الصغيرة في صلب الحكاية الأم المروية قبل وقوع الحدث الحاسم(١٠٢).

إن فهم الحكاية حسب ما يذهب إليه رشيد بن مالك، مشروط بضبط المفارقات الزمنية، أي التغيرات الزمنية التي تطرأ على التلاقي الزمني بين القصة والخطاب، وإبعاد هذه المفارقات- كما فعل السيميائيون في اختزالهم- يؤدي إلى إقصاء الدور الحاسم الذي تلعبه في تحديد المسار الدلالي العام للنص السردي، ولذلك فإن وصل النتائج التي توصل إليها ج. جينات (G.GENETTE) بالنظرية السيميائية، يعد ضرورة منهجية- كما يرى ذات الباحث- بإمكانها ترميم الخلل الذي تنطوي عليه دراسة الزمن عند السيميائيين، فهي- نتائج أعمال جينات- إذا كانت من جهة تساعدنا على التحكم في التركيبة الزمنية وضبط أبعادها الدلالية المتنوعة، فإنها من جهة أخرى تسهم في إظهار مقطوعات النص السردي وضبطها(١٠٣).

١. ٢. ٣. ٢. سعيد بنكراد: ثنائية غريماس الزمنية لا تستوعب إشكالية التزمين داخل النص ولا تحدِّد موقعه ودوره ضمنه:

وفي سياق هذه الانتقادات نفسها يذهب "سعيد بنكراد" إلى أن تلك التحديدات الزمنية التي يضعها غريماس لعنصر الزمنية في النص السردي*، على الرغم من قيمتها النظرية والتطبيقية في فهم ميكانيزمات اشتغال النص السردي وتوضيحها، وكذا فهم أصول تحول الأحداث فيه- المدركة زمنيا- إلى قصة -التقطيع الذي تخضع له الكتلة الزمنية لكي تصبح شكلا قابلا لإدراك- إلا أنها مع ذلك لا تجيبنا عن كثير من الأسئلة الجوهرية التي تطرحها مشكلة التزمين داخل النص السردي، والخاصة بالبعد الزمني ونمط وجوده داخل هذا النص، ولا عن كيفية تصرف السارد في هذا الزمن وأنماط توزيعه داخل نسيجه، فضلا عن أنها لا تمدنا بأدوات إجرائية واضحة تسمح لنا بتحديد دقيق لموقع العنصر الزمني داخل النص، وكذا تحديد دوره في إنتاج المعنى، ولذلك- كما يضيف- فإن القارئ سيجد في نظرية ج.جينات (G.GENETTE) العناصر الكافية لملء هذا الفراغ، وتغطية هذا النقص الذي تشكو منه الصياغة الغريماسية لقضية الزمن(١٠٤).

102- J. CULLER, Structuralized poetics, Rutledge and keg an paul,1975.

١٠٣- ينظر:رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق، مرجع مذكور سابقا، ص ٨٥.

١٠٤- ينظر: المرجع نفسه، ص.ص ٨٥، ٨٦.

٢.٣.٢.٢. سعيد بنكراد: تصنيفات غريماس الفضائية غير قادرة على استيعاب النصوص السردية الطويلة:

أما بخصوص التصنيفات التي أوردها غريماس لعنصر الفضاء في النص السردي، فيذهب «بنكراد» إلى أنها تصنيفات لا يمكن أن تتجاوز حدود الحكاية الشعبية المعروفة بشكلها السردي الثابت وصيغتها التلفظية القارة، ونمطيتها المعهودة، بحيث يصعب وجود معادل لها- التصنيفات- في النصوص السردية المعاصرة التي تتميز بتنوعها واختلاف طرائق تعاملها مع الفضاء عما هو عليه في الحكاية الشعبية.

فما يقدمه غريماس في هذا المجال، لا يجيب- في نظر بنكراد- إلا عن حركة البطل داخل المساحة الزمنية والفضائية التي تغطي الحكاية الشعبية. وهو من هذه الناحية لا يعد سوى رسم لحدود أي فعل ولموضعته داخل هذه التجربة أو تلك. فالحكاية الشعبية بسبب خصائصها السالفة الذكر، تجعل التنقل داخل الفضاء عنصرا بالغ الأهمية ولا يمكن لأي حكاية أن تحيد عن هذا الشكل، ذلك لأن البطل لكي يكتسب هذه الصفة- صفة البطولة- عليه أولا أن يغادر المكان الذي توصف داخله الحالة البدئية ليلقي بنفسه داخل إطار فضائي مجهول، ليصل إلى الموضوع الذي يمكنه من تحديد حالة اتصال جديدة وعليه فإن الفعل المحدد لحالة «النقص» هو دائما فعل خارجي، تقوم به قوى تنتمي إلى فضاء مجهول يفصله (أو ينتمي إلى قيم مرذولة محليا)، وهذا الأخير دائما يفصله عن الفضاء اعتداء يحتوي على عناصر مساعدة للبطل وأخرى معيقة أو تمثلها قوة واحدة[١٠٥].

أما الفضاء في النصوص السردية المعاصرة، فإنه يشتغل- حسب ما يذهب إليه بنكراد- وفق طريقة مغايرة تماما لتلك الطريقة التي حدده وفقها غريماس، إنه ليس تحديدا لنوعية الفعل، ولا لتوقيعة ما، بل هو عنصر مساهم في عملية إنتاج المعنى، ودلالته لا تأتي من العناصر الطبيعية المشكلة له، بل تأتي عن طريق عرض هذا الفضاء ومن ثمة طبيعة الدلالة التي تُمنَح له داخل النص السردي، ذلك أن عملية انتزاع العنصر الطبيعي من بنيته الأصلية وتثبيته داخل بنية جديدة (عالم النص السردي) تمنح للفضاء دلالة جديدة هي تركيب لمعنيين: معنى العنصر داخل البنية الأولى، ومعناه داخل البنية الثانية. وهكذا فإن أي فضاء قد يشتغل كفضاء عدواني كما قد يشتغل كعنصر مساعد»[١٠٦]. والأمر نفسه ينطبق على ما يسمى بالفضاء المفتوح والفضاء المغلق، فالانفتاح ليس خصيصية معطاة بشكل سابق على تحيين الفضاء داخل النص، وكذلك هو الشأن مع الانغلاق. إن تنظيم العناصر السردية، وطريقة تحيين القصة داخل نص ما هو الذي يحدد طبيعة هذا الفضاء أو ذاك حسب ما يذهب إليه هذا الباحث[١٠٧].

٢.٤. البرنامج السردي (Le programme narratif) والترسيمة السردية (Schéma narratif):

- عبدالملك مرتاض: غموض المفاهيم التي يصطنعها غريماس ولا جدواها في عملية التحليل:

دائما في سياق الانتقادات الموجهة إلى بعض مفاهيم نظرية غريماس، يذهب عبدالملك مرتاض في مؤلفه (في نظرية الرواية "بحث في تقنيات السرد" ١٩٩٨) إلى القول إن التقريرات التي يأتيها غريماس وكورتيس بشأن البرنامج السردي* "لا تقوم لها قائمة، في منظورنا، لأنها ترتبط بشبكة من المفاهيم الأخرى التي تحتاج، هي أيضا، إلى تقديم وتفسير. وفي بعض الأطوار لا يكون لها تفسير مقنع فتظل معلقة في الهواء دون غناء. ويبدو أن غريماس أراد أن يعلمن السردية،

١٠٥- ينظر: سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، مرجع مذكور سابقا، ص ٨٦، ٨٧.

١٠٦- المرجع نفسه، ص.ص ٨٩، ٩٠ .

١٠٧- المرجع السابق، ص٩٠ .

كما كان فعل ذلك فلاديمير بروب، فلم يفدها كثيرا[١٠٨].

إن المفاهيم التي يصطنعها غريماس كمصطلحات لعلوم السرد، لا تؤدى، في نظر عبدالملك مرتاض إلى نتيجة تذكر، فـ "مثل هذا الذي يطلق عليه «البرنامج السردي" لا تفضي عناصره إلا إلى تعقيد الكتابة السردية[١٠٩]، لكونها "تتجسد في سلسلة من المفاهيم المعقدة التي يحيل بعضها على بعض، ويتوالج بعضها مع بعض، إلى درجة التيه والحيرة»[١١٠]. أما الترسيمة السردية (Schéma narratif)، فيتساءل الباحث بشأن ماهيتها، وبشأن ما إذا كانت «تعني شيئا حقا في نظرية السرد، بحيث إذا تعاملنا معها استطعنا أن نحلل النص السردي بكفاءة وفعالية؟"[١١١] .

فبالإضافة إلى تلك الحشود الحاشدة من المصطلحات الجديدة التي استوحاها غريماس من علوم شتى كالنحو واللسانيات العامة، وغيرها من العلوم الأخرى، والتي حاول أن يتنكب بها عن سبيلها، ويمنحها معاني جديدة لتغتدي مفاهيم سيميائية يتداولها الناس بينهم ويتخذونها مفاتيح لبعض هذا العلم، والتي لم يكن التوفيق حليفها حسبما يذهب إليه الباحث[١١٢]، فإن "اللغة التي يصطنعها غريماس لا تكاد تقوم لها قائمة في حقل المفاهيم، حيث أن كل مفهوم يحيل على مفهوم آخر، في غرفة مظلمة لا نعتقد أن يهتدي السبيل إلى بابها إلا قلة من الناس، ربما يكون من بينهم غريماس... ولكن من يدرينا؟ فربما لا يكون هو أيضا من بينهم"[١١٣]. فعلى الرغم من أن غريماس-كما يؤكد الباحث- عالم لسانياتي، أو منظر لغوي، إلا أنه "حين يتحدث عن الأدب تتعثر به القدم، ويضطرب له الطريق، فلا يعرف المستوى الذي يعرفه حين يتحدث عن شؤون اللغة واللسانيات"[١١٤].

لكن يبدو لنا، أنه على الرغم من وجاهة بعض الملاحظات التي يبديها الأستاذ عبد الملك مرتاض هنا بشأن تلك التعقيدات التي نكتنف بعض المفاهيم الغريماسية- والناتجة أساسا عن تنوع المصادر العلمية لهذه النظرية وتشعب روافدها، وطموحها إلى تشييد نظرية شاملة يمكن بمقتضاها تحليل مختلف الخطابات البشرية كيفما كانت تجلياتها وكيفما كانت المواد الحاملة لها، كما رأينا في الصفحات السابقة من هذا البحث- إلا أن هناك بعض المبالغة فيما ذهب إليه الباحث، وبخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تلك الفتوحات المنهجية التي حققتها هذه النظرية في دراسة النص الأدبي عموما، والنص السردي خصوصا، والتي لازالت روحها التحليلية، بغض النظر عن تفاصيلها وجزئياتها، حية تمتلك جدواها وتفرض راهنيتها على الباحثين والمختصين.

٢.٥. انتقاد للنظرية في شموليتها والدعوة إلى تجاوزها:

١.٢.٥.١. مفتاح: مأزق سيميائية غريماس والدعوة إلى ضرورة تبني سيميائية تركيبية:

يذهب محمد مفتاح- في هذا الصدد- بعد استعراضه المختصر لبعض النظريات المستحدثة التي جاءت بعد نظرية غريماس. متبنية بعض مفاهيمها، ومتجاوزة الأخرى؛ مثل: النظرية الكارثية، والبيولوجيا الميكانيكية المادية ونظرية الحرمان وغيرها[١١٥]، يذهب إلى القول إن سيمياء غريماس أصبحت- على الرغم من احتوائها على مبادئ علمية- بالنسبة إلى هذه الوضعية المحدثة متأزمة، إنها متأزمة داخليا كما يرى، متسائلا -في سياق حديثه عن وجوب اعتماد تقنية التركيب المنهجي- فإذا ما اختارها الباحث وزادها اختزالا فكيف سيصبح الأمر؟ مؤكدا في هذا الإطار،

١٠٨- ينظر المرجع السابق، الصفحة نفسها.
١٠٩- عبدالملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨، ص ٢٤٨.
١١٠- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
١١١- المرجع السابق، ص ٢٤٧.
١١٢- عبدالملك مرتاض، في نظرية الرواية، المرجع نفسه، ص٢٤٧.
١١٣- المرجع نفسه، ص ٢٤٨.
١١٤ المرجع السابق، ص ٢٤٦.
١١٥-المرجع نفسه، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

أن السيميولوجيا الحالية، ليست سيميولوجيا غريماس، بل تلك التي تطبق مفاهيم بيولوجية ومفاهيم فيزيائية ومفاهيم الذكاء الاصطناعي، هي سيميولوجيا تركيبية[١١٦].

إن نظرية غريماس، التي هي نظرية مفهومية علاقية وصفية، كما يؤكد ذات الباحث، من حيث كونها تنطلق من مفاهيم أولية غير محددة، معتبرة إياها ككليات فرضية مثل: الانقطاع، والاتصال، والعلاقة، والتمايز، والكلية والجزئية، وغيرها... لتشتق منها مفاهيم أخرى تبني عليها النظرية، مما يجعلها وسيطا بين المفاهيم الأولية اللامحدودة والمعطى التجريبي، مسلمة قبل ذلك وبعده بالاستقلال الوجودي للشكل السيموطيقي، إن هذه النظرية لم تقنع الكارثيين بأوصافها[١١٧] لذلك حاولوا -كما يضيف- "حل مشاكلها الحادة- أي المفاهيم الأولية والمورفولوجيا التصنيفية- بإعادة بناء رياضي لواقع ظاهراتي متجل في السيميائيات اللسانية، متخذين التهندس، أساسا لتوليد المفاهيم، ومعتبرين الموقع منطلقا لإقامة العلاقات بين المفاهيم المولدة المنظمة المستقرة المنغلقة البنية الأولية المؤلفة بقيود"[١١٨]، حيث أن الأمر هنا- كما يقول بتيتو (PETITO) "يتعلق بدينامية عامة من نوع جديد كما يتعلق الأمر بتحليل موقعي (Analysis Situes) أصيل يستطيع أن يتحمل الوظيفة الجمالية المتعالية البنيوية"[١١٩].

٢.٢.٥.١. رأيُنا: سيميائية مفتاح التركيبية عرضة لمزالق منهجية عدة:

يبدو لنا في هذا الصدد، أن كلام محمد مفتاح- المعروف بتوجهه «التناهجي»، أو بعبارة أخرى، بنزوعه نحو تقنية «التركيب المنهجي»، لاعتقاده بأن النظرية الواحدة مهما كانت قوة إجرائيتها وفاعليتها، تعد قاصرة في مواجهة النص، ولذلك ينبغي تطعيمها بنظريات أخرى من أجل تحليل أكثر عمقا للنص[١٢٠]- ينطوي على كثير من الغموض، كما أن البديل الذي يقترحه يبدو على درجة كبيرة من الإبهام، ويحتاج إلى توضيح. ناهيك عن أن نزعة التعدد هذه تنال من تماسك البناء العام للنظرية وتخل به بسبب تلك الانتقائية التي تفرضها بالضرورة على متبنّيها.

٢. ٥. ٢.١. مرتاض: غموض نظرية غريماس وقصورها الكلي:

أما عبدالملك مرتاض، ففضلا عن تلك الانتقادات التي وجهها إلى البرنامج السردي كما صاغه غريماس، وإلى بعض المفاهيم الأخرى: (الترسيمة السردية مثلا)، والتي يراها غامضة ومستغلقة وفيها كثير من التقعر، والتي أشرنا إليها سابقا، فإنه يحكم- في موضع آخر- على محاولة غريماس أو نظريته كلها، والهادفة إلى تقنين الكتابة السردية، بأنها تبدو مجرد استنساخ أو معارضة لعمل فلاديمير بروب (Vladimir PROPP) في تنظيراته للحكاية الخرافية، مبينا في ذات الصدد الفرق الشاسع ما بين بنية الحكاية الخرافية (Le conte merveilleux) الأزلية والعالمية والثابتة الشكل والنمطية إلى أبعد حد، وبين بنية الرواية التي هي- على ثباتها- ذات شكل متحول ومتطور دوما[١٢١]. ولعل ما يضعف من قيمة جهد غريماس، في نظر ذات الباحث، هو أن البنية الروائية مترجرجة معتاصة على التنظير الصارم**، لكونها إبداعا مفتوحا وقابلا لشتى التغيرات والتحويرات، حيث المبدع يملك كل الحق- على عكس الحكاية الخرافية- في أن يبتكر

١١٦-لمزيد من التفصيل، ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص، تنظير وإنجاز، مرجع مذكور، ص.ص.٣٥, ٣٤.

١١٧- ينظر: التحليل السيميائي أبعاده وأدواته، حوار مع محمد مفتاح، أجراه عبد الرحمان طنكول، ومحمد العمري، وحميد لحميداني، مجلة دراسات أدبية لسانية (سا ل)، المغرب، ع١، خريف ١٩٨٧، ص ١٤، ١٥.

١١٨- ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص، مرجع سابق، ص ٣٥.

١١٩- المرجع نفسه ، ص ٣٥.

١٢٠- عن المرجع السابق، ص ٣٥، ٣٦.

١٢١- ينظر الحوار السابق ذكره، ص.١١ وما بعدها. وغيرها من الدراسات الأخرى المذكورة سابقا والتي يصرح فيها الباحث بهذا التوجه.

فيقدم ويؤخر ويغير ويبدل[١٢٢].

إن التنظير الذي يأتيه غريماس، لا يقع في نظر عبد الملك مرتاض، إلا على الأعمال الروائية البسيطة، أو التقليدية، أو التي حرم أصحابها من التوفيق أو أولئك الذين يودون تقييد حريتهم الإبداعية بالقواعد الصارمة، والضوابط المحكمة، ويكبلوا عقولهم بالنظريات التي قصاراها اللهاث وراء الإبداع العظيم. ولذلك فإن «تودوروف (T.TODOROV) يعد في نظر «مرتاض» أعرف من غريماس بالسرديات، في حين أن «جيرار حينات (G.GENETTE) قد يكون أبرع منهما، معا في تحليل الأعمال السردية ومحاولة مقاربتها والتنظير لها[١٢٣].

٢.٢.٥.٢. رأيُنا: طرح مرتاض يغفل واقع البحث العلمي وحركيته في هذا المجال:

ولعل أهم ما يلفت الانتباه في طرح مرتاض هذا، هو قوله بعدم قدرة هذه النظرية على تحليل نص بحجم الرواية، بسبب طولها أولا، وبسبب شكلها المتحول والمتطور باستمرار ثانيا[١٢٤]. غير أن هذا الرأي لا يتوافق- في اعتقادنا- وواقع البحث العلمي وحركيته في هذا المجال- مجال المقاربة السيميائية للرواية- في الغرب كما في الشرق. فلقد حققت الدراسة السيميائية للرواية تراكما معرفيا ومنهجيا مع عدة دارسين بعد غريماس لا يستهان به، ومن أمثال هؤلاء في الغرب، نذكر: جوليا كرستيفا (J.KRISTEVA) في دراستها "نص الرواية" (Le texte du Roman)[١٢٥]، وامبراطو إيكو (U.ECO) في بحثه "القارئ والحكاية" (Lector in fabula)[١٢٦]، وج.ك.كوكي (J.C.COQUET) في مقاربته لنص «المدينة» (La ville)[١٢٧] لـ «بول كلوديل» (P. CLAUDEL) وغيرهم.

أما في العالم العربي وتحديدا المغاربي، فنجد العديد من المقاربات السيميائية المتميزة لهذا الجنس الأدبي (الرواية)، منها على سبيل المثال لا الحصر: دراسة الباحث المغربي «عبد المجيد نوسي "حول رواية" اللجنة "لصنع الله إبراهيم"، وهي دراسة متميزة يختار فيها صاحبها المرجعية السيميائية منهجا للتحليل. وتكمن أهميتها- الدراسة- في استيفائها لكل الشروط والمستلزمات التي تفرضها النظرية الغريماسية، سواء أمن حيث الأصول والمنطلقات الابستيمولوجية والمنهجية أم من حيث تمثل المفاهيم الإجرائية وتطبيقها على نص اللجنة[١٢٨]. ومثلها أيضا دراسة الباحث الجزائري رشيد بن مالك «السيميائية بين النظرية والتطبيق، رواية نوار اللوز نموذجا» (١٩٩٥)[١٢٩] والتي استطاع من خلالها صاحبها- عبر تأصيل النظرية وتبيئها ثم اختبار أدواتها الإجرائية- أن يثبت قابلية هذه النظرية لاستيعاب نص سردي بحجم رواية ومقاربته. كما نجد أيضا دراسة الباحث المغربي سعيد بنكراد الموسومة بـ «شخصيات النص السردي» البناء الثقافي ١٩٩٥[١٣٠]، والتي حاول فيها مقاربة الشخصية الروائية لرواية «الشراع والعاصفة» لحنامينا، من منظور السيميائيات السردية وبخاصة في مستويي التركيب السردي والعاملي. وهناك أيضا دراسة الباحث السعيد بوطاجين (الجزائر) "الاشتغال العاملي"[١٣١]، التي يطبق فيها بعض مفاهيم

١٢٢- ينظر: عبدالملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص ٢٤٩-٢٥٠.

١٢٣- ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

١٢٤- ينظر: المرجع السابق نفسه، ص ٢٥١، ٢٥٢.

125-J. KRISTIVA, Le texte du roman, Mouton, Paris 1970.

126. Umberto ECO, Lector in Fabula, Grasset, Paris 1985.

127- J. C. COQUET, Le discours et son sujet pratique de la grammaire modale, Kilincksieck, Paris 1985.

١٢٨- ينظر: محسن عمار، مدخل إلى السيميائيات بالمغرب (محاولة تركيبية)، مجلة علامات، مكناس، المغرب، ع٢٠، ٢٠٠٣، ص.١٠٤

١٢٩- الدراسة عبارة عن أطروحة جامعية لنيل دكتوراه الدولة، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، ١٩٩٥.

١٣٠- سعيد بنكراد، شخصيات النص السردي (البناء الثقافي)، منشورات، كلية الآداب، مكناس ١٩٩٥.

١٣١- السعيد بوطاجين، الاشتغال العاملي، دراسة سيميائية «غدا يوم جديد» لعبد الحميد بن هدوقة، مرجع مذكور سابقا.

نظرية غريماس على رواية (غدا يوم جديد) لعبد الحميد بن هدوقة، وإن تم الاقتصار على بعض مفاهيم السيميائية (الترسيمات والمثلثات العاملية) دون غيرها.

٣.٢.٥.٢. بنكراد: نظرية غريماس تغفل خصوصية النص الدلالية والجمالية، وتتجاهل تميُزه بتوقعاتها المبرمجة سلفا:

يذهب الباحث المغربي سعيد بنكراد في مقال مهم له بعنوان "ممكنات النص ومحدودية النموذج"[١٣٢]، إلى طرح تساؤل جوهري- ينبئ عن رؤية نقدية لا تستسلم للأحكام المطلقة، ولا تركن إلى الجاهز من القول- مفاده:

"هل يمكن لنموذج تحليلي-[يقصد نموذج غريماس]- بنى كل فرضياته المعرفية استنادا إلى نصوص سردية من طبيعة حكائية تقليدية تبنى عوالمها الدلالية استنادا إلى بنيات من طبيعة وظيفية، أن يقودنا إلى فهم أفضل لنصوص سردية تبنى عوالمها الدلالية استنادا إلى القرائن وتصوير الحالات الإنسانية المركبة؟"[١٣٣].

وفي خضم إجابته عن هذا التساؤل الوجيه- بعد عرضه لفرضيات هذه النظرية وأسسها وتصوراتها للنص بأمانة ودقة - نلفيه يذهب إلى القول بأن التصورات التي تقدمها لنا السيميائيات السردية - في توجهها الغريماسي على الأقل- حول نمط النص السردي في دلالاته وتوقعاته وآليات برمجة هذه التوقعات، وكذا الأسس التي تعتمدها في رحلتها التحليلية هذه، تجعل «هذا النص يبنى، كما يبدو ذلك من خلال هذا التصور، على شكل رحلة لاهوتية محكومة بقصدية مطلقة تقود بين طرفين معروفين: أصل مولد لا تدركه الأبصار أولا، ثم تحققه من خلال نسخة مشخصة ثانيا، وهذه النسخة هي سبيلنا الأوحد للتعرف على الأصل الأول والعودة إليه من جديد»[١٣٤]. إن أمرا كهذا- يضيف الباحث- يشكك في جدوى القيمة الاستكشافية لأي تحليل.» فإذا كانت هذه العمليات مبرمجة بشكل سابق داخل بنية دلالية بسيطة تحتوي على سلسلة من العلاقات هي ما يجب تطويره لاحقا لإغناء النموذج من خلال تحققه في واقعة نصية مخصوصه (النص السردي في حالتنا)، فإن النص يكشف بشكل مبكر عن كل أسراره، ولن يقوم القارئ سوى بالكشف عن معنى مودع بشكل سابق في النص ويتخذ شكل تناظر دلالي عام على المحلل أن يصل إليه»[١٣٥].

ولتدعيم طرحه هذا يستند الباحث إلى مقولة لـ "امبراطو إيكو (U.ECO) قائلا وفي هذه الحالة- الحالة المشار إليها آنفا- "لن تكون هناك أحداث ولن تكون هناك مفاجآت ولن يكون شيء يروى، وسيكتفي التركيب السردي السطحي بوصف تناقضات تامة وعلاقات ضدية تامة واقتضاءات تامة"[١٣٦].

غير أن ما تنبغي الإشارة إليه هنا، هو أن هذه الأخيرة، هي علاقات يحتضنها النص الثقافي قبل أن تتحقق في نص مخصوص. فخصوصية النص الدلالية والجمالية- التي تغفلها هذه النظرية بتوجهاتها هاته، وبتوقعاتها المبرمجة سلفا - لا يتحدد من خلال المجرد، بل يتحدد من خلال التصويري، لأن المعنى لا يوجد في النماذج العامة، بل تحتضنه الوقائع المخصوصة[١٣٧].

وفي إطار هذه الانتقادات التي يقدمها الباحث لهذه النظرية، بغرض التنبيه إلى وجوب عدم الاستكانة المطلقة لتصوراتها، والارتهان التام إلى ترسانة مفاهيمها، لما تنطوي عليه من نقائص، والدعوة الصريحة إلى تطعيمها بتصورات نظرية

١٣٢- سعيد بنكراد، ممكنات النص ومحدودية النموذج، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمحبر الدراسات الأدبية والنقدية واللسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، العدد ١، ٢٠٠٥، ص. ص.١١-٢٤.

١٣٣-المرجع نفسه، ص. ١٩.

١٣٤- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١٣٥- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

١٣٦- المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها. وانظر أيضا: امبراطو إيكو (U.ECO) في بحثه الموسوم: «القارئ والحكاية» (Lector in fabula) و بخاصة فيما يسميه بالطوبيك، ص،١١٣

١٣٧-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

أخرى أكثر حداثة، يصل به الأمر إلى القول إن هذه النظرية- نظرا للتطور الحاصل في ميدان المعرفة- لم تعد «تغري كثيرا الباحثين في ميدان التحليل السردي فحكاية الذات والموضوع والغايات الكبرى والصغرى التي نعانيها في الأساطير والحكايات الشعبية لا يمكن أن تسعفنا في تحليل نص أنتجته آلة حضارية بالغة التعقيد، فالأساس في النص الحديث ليس هو الوظائف ودوائر الفعل الكبرى، بل هي مجمل الجزئيات والتفاصيل التي تعتبر بؤرة للتصنيفات الاجتماعية التي تبنى انطلاقا منها الأحكام الأيديولوجية[١٣٨].

٢.٥.٢. ٤. رأيُنا: نقد بنكراد مرتهنٌ في صياغته لتحولات النقد الغربي، ومغفل لواقع النص الأدبي العربي في علاقته بسياقه وبتراثه:

إن هذه النزعة النقدية التي يحتكم إليها الباحث في قراءته للنظريات الغربية الوافدة، والتي تدعو إلى إعادة النظر في صياغة بعض المفاهيم وبلورة بعض التصورات بما يتوافق مع ما يطرحه النص الأدبي- بإمكانياته المتنوعة- في أبعاده الدلالية والجمالية الثرية، على الرغم من وجاهتها إلا أنها في ارتهانها إلى تحولات النقد الأدبي الغربي (بول ريكور، جاك فونتانيي، إيكو...)، وارتباطها بقراءته- هو وحده- دون الالتفات إلى ما يمكن أن يمنحه الموروث الثقافي لأمتنا العربية من حلول لبعض إشكالياتنا الراهنة، وما يمكن أن تمنحه خصوصية النص الأدبي العربي في تميزه وفي علاقاته بتراثه هذا، وبسياقه الثقافي وواقعه الموضوعي، تكون قد أخلت بشرط أساسي، لا يمكن لأي مشروع نقدي عربي متميز أن ينهض بدونه.

ولكن ما تجدر الإشارة إليه هنا، هو أن حدَّة بعض هذه المآخذ المُوجَّهة إلى هذه النظرية وقسوة بعضها الآخر، لم تُثنِ بعض الدارسين الموضوعيين عن الإشادة بها والاعتراف بما قدمه صاحبها من جهود محمودة في مجال البحث العلمي عموما، وفي مجال تحليل النصوص السردية وضبط قوانين اشتغالها خصوصا. وفيما يأتي رصد لبعض ذلك.

٢.٦. الإشادة بفاعلية النظرية تحليليا وبقوتها إجرائيا:

٢.٦.١. مفتاح: نظرية غريماس أشمل نظرية لتحليل الخطاب الإنساني بتحفظ:

فهذا محمد مفتاح لا يجد مناصا- على الرغم من تلك الانتقادات التي يوجهها لهذه النظرية انطلاقا من التطور المعرفي المطرد في بعض النظريات الجديدة والتي سبقت لنا الإشارة إليها قبل قليل- من الاعتراف قائلا- بعد إشارته المختصرة للمصادر المعرفية التي استقى منها غريماس نظريته – "وإن المرء ليستطيع أن يقول إنه يقصد التيار السيميوطيقي أو السيميائي الذي يعد غريماس في نظره أهم ممثل له] أشمل نظرية لتحليل الخطاب الإنساني، ولكن هذا التعميم يجب أن يقابل بحذر شديد، ذلك أن خصوصيات كل خطاب تتأبى عليه فلا يستطيع ضبطها وتشخيصها بما فيه الكفاية"[١٣٩].

٢.٦.٢. رشيد بن مالك: فتوحات غريماس المنهجية لا يمكن إنكارها:

يلمِّح رشيد بن مالك إلى أن النتائج التي حققتها مجهودات غريماس في فتح مستغلقات إشكاليات المعنى والدلالة بصفة عامة، لا يمكن إنكارها، فإذا كان ظهور كتابه «علم الدلالة البنيوي ١٩٦٦» (Sémantique structurale)- الذي يقول عنه ج.ك.كوكي (J.C.COQUET) إنه يعد أول بحث في السيميائية اللسانية[١٤٠] – بمثابة المحطة الأساسية التي تبلورت عندها معالم البحث الدلالي، بعدما كانت- قبل ظهوره- تشكل عائقا لم يكن من السهل تجاوز مفعولاته لاعتبارات عديدة، فإن كتابه « في المعنى Du Sens II ١٩٨٣ II"- الذي أجرى فيه مجموعة من التعديلات لمشروعه السيميائي، نذكر منها بصفة خاصة سد تلك الهوة الموجودة بين

١٣٨- المرجع نفسه، ص. ٢٤.

١٣٩- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، م. س، ص ٩.

140- J. C. COQUET, La Sémiotique: L'école de Paris, Op.Cit, p.15.

الفاعل البطل وفعله بمشروع رؤية جديدة حول نظرية الجهات (Théorie du modalité)[١٤١]، والتي كان لها عميق الأثر في بحوث كل من جان كلود كوكي وجوزيف كورتيس- يعد إعلانا عن ميلاد وجه جديد للسيميائية بدأ يتشكل شيئا فشيئا، كما يؤكد غريماس نفسه[١٤٢].

٢.٦.٢. بنكراد: مقترحات غريماس لا تزال صالحة للاقتراب من الوقائع وفهم آليات التدليل داخلها:

على الرغم من تلك الملاحظات الجوهرية – المشار إليها أعلاه-التي يبديها الباحث إزاء هذه النظرية من حيث كونها أصبحت متجاوزة، ومن حيث كون التحليل فيها يكتفي بالبحث عن تطابق مزعوم بين البنيات المتجلية من خلال المستوى التصويري (أي النص كما يمثل أمام القارئ) وبين المحافل الأولية حيث الدلالة صنافة وعلاقات غير موجهة، أي قيم مجردة وخارج أي سياق، مما يجعل النصوص كلها- والحالة هذه- متشابهة، بحيث يكفي أن نتعرف بشكل دقيق على الوجه الظاهر للنص – أي نص- لكي نتبين الطريق نحو الضمني[١٤٣]، إلا أن الباحث يقر صراحة، ويؤكد -من جهة أخرى- أن هذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الطروحات الغريماسية، ولا تنفي "أهمية مقترحات السيميائيات في مجال المعنى وسيرورات تشكله. فلقد قدمت في هذا المجال، مقترحات بالغة الغنى والعمق ما تزال صالحة للاقتراب من الوقائع وفهم آليات التدليل داخلها. وليس غريبا أن تسقط الأجزاء التفصيلية في هذه النظرية وتظل مع ذلك الروح التحليلية تغذي الكثير من الدراسات في ميدان الصورة، أو في ميادين الدراسات المتعلقة بالأهواء"[١٤٤]، وللتدليل على ذلك يذهب الباحث إلى القول "يكفي أن نستحضر البرنامج المعرفي الذي يقوم بإنجازه حاليا راستي وفونتيني وزلبربارغ في ميدان سيميائيات الأهواء والدلالة التأويلية، أو ما يقوم به جان ماري فلوش في ميدان الصورة والتشكيل لكي تتضح لنا راهنية مقترحات كريماص ومدرسة باريس عامة"[١٤٥].

الخاتمة:

يتضح لنا من خلال تفحصنا لبعض الانتقادات التي وُجِّهت إلى نظرية غريماس، أن معظم هذه الانتقادات تركز بصفة عامة على ذلك التعقيد الذي يكتنف بعض المفاهيم التي بنى عليها نظريته، من حيث كونها تنطوي على صعوبات جمة تجعل تمثّلها واستيعابها ومن ثمة إدراك أبعادها من قِبَل المتلقين أمرا في غاية الصعوبة. كما تركز – بالإضافة إلى هذا- على نزوعه اللافت إلى تعميم نظريته كي تنطبق على مختلف النصوص- سردية وغير سردية- مؤاخذة عليه في هذا الإطار عدم انطباقها أو بالأحرى عدم ضبطها لميكانيزمات اشتغال النصوص السردية الطويلة والمتحولة كالرواية، وكذا الشعرية وبصفة خاصة في قضية التشاكل التعبيري.

فهي- النظرية- وإن كان يُعترف لها بفاعليتها في مجال الحكايات وبعض النصوص السردية القصيرة كالقصة—فإن الرواية تستعصي عليها- وهو حكم أثبتنا عدم صدقيته في حينه.

إن هذه المآخذ وإن حالف أصحابها الصواب في بعض ما ذهبوا إليه، فإن بعضها الآخر تَنكَّب عن الحقيقة، وبالغ في مسعاه حينما لم يقدر تلك الإضافات النوعية التي حققتها هذه النظرية مقارنة بغيرها من النظريات السابقة والمعاصرة لها، ولم يراع طبيعتها ولا الفتوحات المنهجية التي أسست لها في سبيل علمنة عملية تحليل النصوص بمختلف أصنافها وتوجهاتها، وتيسير سُبل البحث في مجالها.

---

١٤١. ينظر: رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، ص٧.

١٤٢. لمزيد من التفصيل، ينظر:

Le Discours et son sujet t.1 et t2, Klincksieck, Paris-1984.1985

Analyse sémiotique du discours, Hachette, Paris, 1991.

١٤٣-سعيد بنكراد، ممكنات النص ومحدودية النموذج، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، مرجع مذكور سابقا، ص. ٢٣.

١٤٤. المرجع نفسه، ص.٢٤.

١٤٥- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المراجع

أولا: المصادر والمراجع العربية والمترجمة:

- رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، الجزائر، ط٢٠٠١.
- مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر ٢٠٠٠م.
- سعيد بنكراد، شخصيات النص السردي (البناء الثقافي)، منشورات، كلية الآداب، مكناس ١٩٩٥.
- مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، ط.١٩٩٤م.
- سعيد بوطاجين، الاشتغال العاملي، دراسة سيميبيائية لرواية (غدا يوم جديد) لعبد الحميد بن هدوقة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط.٢٠٠٠م.
- السيد إبراهيم، نظرية الرواية، دراسة لمناهج الأدبي في معالجة فن القصة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ١٩٩٨ م.

- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العامة للنشر، لونجمان، مصر ١٩٩٦م.
- العادل خضر، يحكى أن ... مقالات في التأويل القصصي، دار المعرفة للنشر، تونس، ٢٠٠٦.
- عبدالملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م.
- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط ١٩٨٦، ٢م.
- دينامية النص (تنظير وانجاز)، المركز الثقافي العربي، بيروت،لبنان، الدارالبيضاء، ١٩٩٤م.
- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي (نظرية غريماس)، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٩٣م.

ثانيا- الرسائل الجامعية المخوطة باللغة العربية:

- رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق، رواية (نوار اللوز نموذجا)، رسالة دكتوراه دولة في الأدب العربي (النقد السيميائي)، جامعة تلمسان ١٩٩٥م
- نادية بوشفرة، المسار السردي في الموروث الحكائي (سردية الحكاية عند غريماس)، رسالة ماجستير في الأدب الشعبي، قسم الثقافة الشعبية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان ١٩٩٩/٢٠٠٠م.

ثالثا - الدوريات والمجلات العربية:

- بحوث سيميائية، مجلة محكمة يصدرها مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر ،جامعة تلمسان، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، العدد١، سبتمبر ٢٠٠٢م.
- تجليات الحداثة، مجلة فصلية تصدر عن معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، الجزائر، العدد٣، جوان ١٩٩٤.
- دراسات سيميائية أدبية لسانية، مجلة فصلية متخصصة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، العدد١، خريف ١٩٨٧م.
- علامات في النقد، النادي الأدبي، بجدة،السعودية، المجلد٢، الجزء٥، سبتمبر ١٩٩٦م.
- علامات، مجلة ثقافية محكمة، مكناس المغرب، العدد، ١٥، ٢٠٠١م.
- العدد، ١٦، ٢٠٠١م.
- العدد ١٧. ٢٠٠٢م
- الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، العددان: ٦٨/٦٧.

ـ كتابات معاصرة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان،العدد ٣٨،١٩٩٨م.

– مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمحبر الدراسات الأدبية والنقدية واللسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، العدد ١، ٢٠٠٥،

رابعا – المراجع الأجنبية:

-ALGIRDAS Julien GREIMAS, du Sens; Essais sémiotiques, Paris, seuil 1970.

- Du sens II: Essai sémiotiques, Ed, Seuil ; Col. Poétique Paris 1983.

- Maupassant, la sémiotiques du texte, Exercices pratique. Paris, le seuil 1976.

- Sémantique structurale, recherche de méthode, Larousse, Paris 1966.

-Anne UBERSFELD, Lire le théâtre, Ed. Sociales, Paris 1982.

- Anne HENAULT, les enjeux de la sémiotique, P.U.F. Paris, 1979.

- Claude BREMOND, logique du récit (Introduction), Col. Poétique. Ed. Seuil, Paris 1973.

- Ferdinand de SAUSSURE, Cours de linguistique générale, Paris, Payot, 1978.

- François RASTIER, Essai de sémiotique discursive.

- Gérard GENETTE, Figures II, Ed. Seuil, Paris 1972.

- Figures III. Ed. Seuil collection poétique, Paris 1973.

- Groupe D'ENTREVERNES, Analyse sémiotique des textes, Introduction théorie pratique, presses universitaire de Lyon, 4ème, Paris 1984.

- Jacques FONTANILLE, sémiotique et littérature, Essais de méthode, P.U.F. Paris 1999.

- Jean Claude COQUET, « La sémiologie en France » in le champ sémiologique, sous la direction de André Hello, avec la participation de M. Arrivé, P. Range, J.C. Brodeun, Ed. complexes, Bruxelles 1979.

- Le discours et son sujet, pratique de la grammaire modale, clincksiek, Paris 1985.

- Sémiotique : l'Ecole de Paris, Hachette université, Paris 1982.

- Joseph COURTES, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Ed. Seuil, Paris 1973.

- Julia KRISTIVA, le texte du roman, Mouton, The Hgue, Paris 1970.

خامسا- المعاجم والقواميس باللغة الفرنسية:

-ALGIRDAS Julien GREIMAS, Joseph courtes, sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris 1979.

- Oswold DUCROT, Tzevtan TODOROV, dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, Paris 1972.

سِمات
Semat

الجذور والصيغ

بقلم: جان كانتينو

ترجمة وتقديم: د. مبارك حنون

جامعة قطر – قطر

Mbarek.hanoun@qu.edu.qa

Received: 26 Jan. 2014,
Revised: 15 Feb. 2014, Accepted: 23 Mar. 2014
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

الجذور والصيغ

بقلم: جان كانتينو

ترجمة وتقديم: د. مبارك حنون

جامعة قطر – قطر

الملخّص

الصرف العربي. وقد رأوا أن مفهوم الأصل يغطي مفهوم الجذر. وهو المفهوم الذي بدا أنه يُطبَّق بسلاسة في اللغات السامية، بحيث يستطيع المرء من خلاله تنظيم الألفاظ في المعجم، بما هي معان وتأليفات صوتية. وعلى الرغم من أنه ذو طابع تجريدي، فقد ظهر أن له طابعا ذرائعيا مماثلا في إجرائيته تلك لكل من مفهوم الفونيم واللاحقة والسابقة والصيغة. وهكذا، لا تنفي عنه تجريديته طابعه الواقعي، فهو دليل لساني مكون من دال ومدلول. ومن ثمة فهو كيان واقعي راهني، وجزء لا يتجزأ من نسق اللسان. وبصفته تلك، فهو لا يحيل على مسار تاريخي: مسار الأصل الضارب في القدم الذي تفرعت عنه الكلمات، ثم إن الجذور تتعدد بتعدد المدلولات. وما يدل، أيضا، على طابعه هذا هو أن الكلمات المشتركة لفظيا لا تشترك في الجذر. ومن جهة أخرى، فمفهوم الجذر يتميز عن مفهوم البناء أو الصيغة. فإذا كان الجذر هو الكلمات المشتركة الصوامت، فإن البناء (أو الصيغة) هو الكلمات المشتركة في الشكل والبنية والتماثل في المعنى وفي الاستعمال النحوي. كما أن البناء، مثله مثل الجذر، يماثل الدليل من حيث تركيبته، إذ هناك شكل الصيغة وهناك المعنى العام أو القيمة النحوية المشتركة. وهكذا، فهناك نسقان: نسق الجذور ونسق الصيغ، وهما نسقان يتداخلان ويقومان بتنظيم كل مفردات المعجم.

الكلمات المفتاحية: الجذر، الجذع، السابقة، اللاحقة، المشترك الفظي، المصدر، الصوامت، المصوتات.

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

Roots and Canonical Patterns

by Jan Cantino

Translated by Dr. Mubaralc Hanoun

Qatar university – Qata

Abstract

The concepts of "base", "canonical pattern" and "weight" have attracted the interest of orientalists, as components organizing Arabic morphology . They claimed that the concept of "base" covers the concept of "root", which seemed to apply smoothly to Semitic languages, since it can be used to organize sounds in the lexicon, in terms of meanings and sound sequences. Though it shows an abstract character, this concept turned out to provide an appropriate algorithm for the phoneme, prefix, suffix and aspect. Hence its abstractness does not discard its linguistic reality. It constitutes linguistic evidence composed of a signifier and signified. Hence, it is a real tangible component serving as part and parcel of the language system. As such, it does not refer to a historical (diachronic) process; that is the proto-root from which words have been derived, and then the number of roots depends on the number of signified items. This character finds support also in the fact that the words sharing the same pronunciation do not share the same root. On the other hand, the concept of "root" is differentiated from the concept of "canonical pattern". While the root represents the words sharing consonants, the canonical pattern represents the words sharing the form, structure as well as similarity in meaning and grammatical use. The canonical pattern, like the root, serves as an indicator in terms of its composition, since there is the form of aspect and the general meaning or shared grammatical value. Hence, there are two patterns: root pattern and aspect pattern, interrelated to organize the entire set of lexical items.

Keywords: Root, Stem, Prefix, Suffix, Homonym, Verbal Substantive, Consonants, Vowels.

الجذور والصيغ[1]

بقلم: جان كانتينو[2]

ترجمة وتقديم: د. مبارك حنون

جامعة قطر – قطر

النص المترجم:

نقرأ في بحث مشهور في النحو المقارن للألسنة السامية القولة التالية: «ليس الجذر سوى تجريد وإن كان يوفر خدمات جُلَّى في موضوع تنظيم المعجم، على نحو منهجي، وكذا تنظيم الترتيب التقليدي للحروف في الأبجدية. لكن، وبما أن هذا النظام لا يناسب الطابع العلمي لعلم الأصوات فقط، وإنما قد يشكل، بكل بساطة، عائقا أمام هذا العلم، فإن مفهوم الجذر نفسه غير قابل للاستعمال في مجال علم الصرف. ذلك أنه على علم الصرف أن ينطلق، أولا، من أشكال الكلمات التي لها أو كان لها وجود خاص، فتحليل وسائل التعبير الاسمية أو الفعلية يفضي بنا، في النهاية، إلى بعض الأشكال الأساسية البسيطة التي سنسميها "بالأصول" وفق التسمية التي أطلقها علماء اللغات الهندية –الجرمانية. ففي هذه اللغات، يمكن لهذه "الأصول"، من قبيل pede (رِجْل)، وeye (ذَهَبَ)، أن تكون أسماء كما يمكنها أن تكون أفعالا، وهو الأمر نفسه الذي تعرفه اللغات السامية: إذ من الممكن، على وجه العموم، أن تكون هذه الأصول أقدم من مقولتي الاسم والفعل".[3]

وأعتقد أنه يمكننا القول، دون أن يكون في ذلك ما قد ينال من الاحترام الواجب تجاه هذا الأستاذ اللامع، إن هذا الموقف المبدئي موقف مثير للاستغراب. ذلك أني أشك، فيما يخص اللغات الهندية الأوربية[4]، في تبني المختصين لهذا الموقف: إذ يبدو أن اللغات الهندية الأوربية قد عرفت، فعلا، الجذر. أما بالنسبة إلى الأصلين "pede" و"eye" اللذين وضعهما بروكلمان، فإني أفترض أنهما قد يُقْبلان بتحفظ كبير. وفي ما يتعلق باللغات السامية، فإن القولة أعلاه غير صحيحة

١- لم يتحدث النحاة العرب القدماء عن «الجذر» وإنما تحدثوا عن «الأصل». يقول ابن يعيش في ذلك: «اعلم أن الأصل عبارة عن الحروف اللازمة للكلمة، كيفما تصرفت. وهي تجري مجرى الجنس للأنواع... فكذلك الحروف الأصول هي مادة لما يبنى منها من الأبنية المختلفة، موجودة في جميعها، من نحو: ضرب يضرب فهو ضارب ومضروب. ف «ض ر ب موجود في جميع هذه الأبنية...» (شرح الملوكي في التصريف. تحقيق. فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب، ١٩٧٣، ص١٠٨-١٠٩). ويطلق على هذا النوع: الأصل اللفظي (نفسه، ص١١٠). ويمكن العودة أيضا إلى تعريف «الأصل» عند ابن جني Langues et Technologies كتابه الملوكي في التصريف.كما يمكن العودة إلى السيوطي في كتابه: الأشباه والنظائر، ج١، وغيرها من المصادر.

وبخصوص مسألة ما إذا كان الجذر هو الأصل، فيمكن العودة إلى مقال:

G. Troupeau. La notion de «racine» chez les grammairiens arabes anciens, in: Matériaux pour une histoire des théories linguistiques. Université de Lille III, 1984, pp293-245. (المترجم).

2- Cantineau (1950), Racines et Schèmes, Mélanges William Marcais. Paris.

3 - C.Brockelmann, Grundriss I, p286- 287..

4- Meillet, Introduction, p146 et suivant; Benveniste, Formation des noms, p147 et suiv.

يقينا: ويكمن أحد أهداف هذا المقال في بيان أن نسق الجذور مبدأ من المبدأين اللذين تُنظَّم وفقهما كل مفردات اللغات السامية وتُصنَّف، لا في معاجمنا فحسب، وإنما تُنظَّم وتُصنَّف في اللغة تنظيما وتصنيفا واقعيين.

لنقم، أولا، بتقديم تعريف للمصطلحات التي سنستعملها. إني اعتقد أنه يمكننا أن نسمي العنصر الجذعي[٥] الجوهري المشترك بين مجموعة من الكلمات الشديدة التقارب من حيث المعنى، حينما يكون هذا العنصر الجذعي عرضة لتغيرات مصوتية أو صامتية – "جذرا"؛ فالكلمات (meurs) وmourons وmort")، في الفرنسية مثلا، هي كلمات شديدة التقارب من حيث المعنى وتشتمل على عنصر جذعي مشترك: (m.r) قابل لأن تُدرج فيه عدة مصوتات: وإذن، فإن (m.r) سيسمى "جذر" هذه المجموعة من الكلمات. وكلما ظهر العنصر الجذعي المشترك ثابتا في كل كلمات المجموعة، كلما كان بإمكاننا كذلك تسميته بـ "الجذر"، إلا أني أوثر عليه، فيما يخصني، مصطلح "أصل" (وهو مصطلح يستعمله بروكلمان بمعنى مغاير جدا): فللكلمات الفرنسية، من قبيل: "conte" و"conteur" و"conter" وraconter" و"racontar" أصل واحد وهو: cont.

أما في مفردات الألسنة السامية، فإن مفهوم "الجذر" يُطبَّق تطبيقا بديهيا: إذ تتوزع هذه المفردات كلها إلى مجموعة من الكلمات التي تتقارب من حيث المعنى، والتي يتوافر فيها عنصر جذعي مشترك. هكذا، فكلمات مجموعة "حمار" – حَمير–وحمَّرَ– وحَمّار، في اللغة العربية مثلا، ذات عنصر جذعي مشترك، أو جذر هو "ح م ر"، وكلمات مجموعة "أبيض" و"بيضاء" و"بيض" و"بياض" جذرها هو "ب ي ض"، وكلمات مجموعة "قتَل" و"قتْل" و"قِتْلة" و"قتُول" جذرها هو "ق ت ل".

إن الجذر في الألسنة السامية، إذا شئنا، بمثابة تجريد. إلا أنه تجريد من نوع متداول في نسق اللغة: فالفونيم والسابقة واللاحقة والصيغة، كما سنرى ذلك لاحقا، كلها أيضا تجريدات. إن الأمر يتعلق، وبشكل أكثر دقة، بعناصر ضمنية يجري اكتشافها بفضل التحليل الترابطي إذا ما استعملنا مصطلح فيردناند دو سوسير[٦]. وفيما يخص الجذر، فإننا نتعرف، في كل مجموعة من المجموعات، عنصرا شكليا مشتركا وعنصرا دلاليا مشتركا بين كل كلمات المجموعة: ففي مجموعة "حمار"، مثلا، هناك الصوامت "ح م ر" والتصور "حمار"، وفي مجموعة "أبيض" هناك الصوامت "ب ي ض" والتصور "أبيض» وفي مجموعة "قتل" هناك الصوامت "ق ت ل" والتصور "قتل". وإذن، فالجذر دليل (علامة) لساني (لسانية): فهو يشتمل، مثله في ذلك مثل أي دليل (علامة) لساني (لسانية)، على دال: أي العناصر الشكلية التي تُكوِّنه، وعلى مدلول: أي التصور المتفاوت الدقة المشترك بين المجموعة كلها.

لا ينبغي الاعتقاد بأن لمفهوم الجذر، في اللغات السامية، طبيعة تاريخية، وأنه عنصر ضارب في القدم وأصلي تفرعت عنه الكلمات بصفة متسلسلة. وإنما هو، على النقيض من ذلك، مفهوم راهني يشكل، في كل لغة سامية تقريبا، جزءا لا يتجزأ من النسق اللساني منظورا إليه من وجهة نظر تزامنية. ويتجلى ذلك، على نحو جيد، في الكلمات المقترضة : فإذا أردنا أن نشتق فعلا، في اللغة العربية مثلا، من اسم انطلاقا من كلمة معينة مثل "قميص"، وهي كلمة مقترضة[٧] من كلمة "camisa" من اللاتينية السفلى، فإننا لا نلجأ إلى هذه الكلمة ذاتها، وإنما نلجأ إلى جذرها "ق

٥- ترجمنا radical بـ «أصلي». وتجدر الإشارة هنا إلى أن H.Fleish قد أكد أن العربية تستخدم مفهوم «الجذر» لا مفهوم «Le Radical». يمكن العودة إلى:
Traité de Philologie arabe V.1, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1961, p248 (المترجم).

6- Cours de Linguistique Générale, pp179-186.

٧- لكننا نذهب إلى أنها كلمة أصيلة استعارتها اللاتينية من العربية في أول احتكاك بين اللغتين في الأندلس. المترجم.

م ص" المستخرج على الفور لسد تلك الحاجة فنُكوِّن، اعتمادا عليه ووفق طريقة سنعالجها لاحقا، الفعل "قَمَّصَ".

إننا نعلم، من حيث المبدأ، أن هناك دلائل (علامات) بقدر ما هناك من مدلولات متميزة وشديدة التمايز. وهذا الأمر يصلح، بطبيعة الحال، بالنسبة إلى الجذور. فمن الخطإ أن نصنف، في بعض المعاجم السامية وخاصة في المعاجم العربية، كلمات لا تنسج فيما بينها علاقة دلالية -أو لم تعد بينها تلك العلاقة الدلالية- تحت نفس الجذر: ذلك أن للغات السامية جذورا "متجانسة صوتيا": وغالبا ما ينبغي أن نميز، بنوع من الحذق، جذرا فعليا واحدا أو عدة جذور فعلية، وجذرا اسميا واحدا أو عدة جذور اسمية، وجذرا نعتيا واحدا أو عدة جذور نعتية، كلها من المشترك اللفظي، على أن يكون ذلك تبعا لما اذا كانت خاصية اسم أو فعل أو صفة نقطة انطلاق لمجموعة الكلمات والتصور المشترك بينها. وهكذا، فلا يوجد، في اللغة العربية مثلا، جذر "ج م ل"، وإنما هناك أربعة جذور أو خمسة من "ج م ل" تحمل معنى شديد الاختلاف، ويتعلق الأمر بـ: أ) جذرين اسميين أو ثلاثة جذور اسمية: جذر "جمل" الذي يوفر، على وجه الخصوص، أسماء مشتقة : الجمعين جِمَال وأجْمَال، وجَمَّال، وجَمَلَة وجُمَالة؛ وجذر جَمَلَ وجُمْل وجُمَل وجُمَّل، إلخ...؛ وجذر جَميل الذي يوفر الأفعال المشتقة جَمَل وتَجَمَّل، إلخ... (مع أنه يمكننا أن نناقش، هنا، مسألة ما إذا كانت نقطة انطلاق المجموعة هي الاسم أو الفعل، وما إذا كان «جَمَلَ» ليس معنى تقنيا لـ "جَمَلَ")[٨]. ب- جذر نعتي: جذر "جميل"(بالمعنى الخلقي والخلقي)، الذي يوفر صيغة أفعل تفضيل المشتق أجمل، وأفعال النفس والخلقة وهيئة الجسم[٩]: جمُل، وجَمَّل وجامَل وأجْمل وتَجَمَّل، والأسماء المشتقة جَمَال وجَمِيل وتَجْميل. ج- جذر فعلي: جذر "جَمَل" الذي يوفر، فضلا عن ذلك، المصدر أي "جُمْلة" والفعل المشتق "أجْمَل" الذي يشتق منه على التوالي "إجْمال" و"مُجْمل".

وتتشكل مجموعات أخرى داخل كتلة المعجم من كلمات تشترك فيما بينها، لا في صوامتها الأصلية، وإنما تشترك فيما بينها في شكلها وبنيتها، كما تشترك فيما بينها من حيث تشابه المعنى أو الاستعمال النحوي. وهكذا، لا يمكننا أن نمتنع عن تقريب "أبيض" من "أحمر" و"أزرق" من "أسود"، الخ.. فنستنبط من ذلك، وعلى نحو طبيعي، نمط "أفْعَل" من صفات اللون في المذكر المفرد (ف ع ل تُعَيِّن، اصطلاحا، ثلاثة صوامت غير محددة)، كما سنقرب، على نفس المنوال، بين ضَرَّب وكَسَّر وقَطَّع وفَرَّق الخ..، فنستنبط منها نمط الماضي من الأفعال المضعفة العين وهو فَعَّل. كما سنقرب أيضا بين "كاتب" و"حاكم" و"راكب" و"ساكن"، فسنتنبط منها نمط اسم الفاعل من الصيغة الفعلية البسيطة وهو: فاعل. وسأطلق على أنماط الكلمات المختلفة هذه: افْعَل وفَعَّل وفاعل، ذات الدلالات النحوية أو المعجمية المحددة، تسمية "البناء"[١٠]، وهو ما يسميه النحاة العرب بـ "الوزن" أو "البناء" أو "الصيغة". ويُعد البناء، كذلك، دليلا (علامة) لسانيا (لسانية)، وبهذه الصفة فهو يحتوي على دال ومدلول: والدال هو شكل الصيغة نفسه والمدلول هو المعنى العام أو القيمة النحوية المشتركة بين كل كلمة من الكلمات المنضوية تحت هذه الصيغة. وسنلاحظ هنا، كذلك، أنه بقدر ما يوجد من الدلائل (العلامات) (أي من الأبنية) بقدر ما يوجد من المدلولات: فاللغة تميز، بشكل أوضح، مثلا، صيغة فَعِيل عن الصيغة الفعلية البسيطة (جمعه جمع مذكر سالم ويتحقق بإضافة الواو والنون والياء والنون) وصيغة فاعِل الدالة على اسم الفاعل (جمعه جمع

٨- «جمل» الأولى تعني: أذاب الشحم واستخراج دهنه و«جمل» الثانية تعني: «جمع» انظر لسان العرب لابن منظور ج١١.

٩- هذه المقابلات وضعها ابن السراج. انظر: الأصول في النحو، ج، ص٩٦١-١٧١.

١٠- استعمل النحاة العرب البناء والبنية والصيغة والوزن. غير أن المتأمل في ذلك سينتهي به الأمر إلى تمييز البناء والبنية والصيغة عن الوزن. وهذا ما أبرزه الصَّرف التطريزي Prosodique من خلال أعمال ماكارثي McCarthy أساسا.

تكسير من الأبنية: فُعَّل وفَوَاعِل، إلخ...). ومع ذلك، فلابد من معالجة ثلاث حالات صعبة:

١- الحالة التي لا تكون فيها كل أجزاء الدال، أي شكل البناء، محددة تحديدا كاملا: مثلا يفعُل ويفعِل ويفعَل، وهي بنية المضارع من الشكل البسيط للفعل: والعنصر غير المحدد، هنا، هو المصوت الجذعي.

٢- الحالة التي يكون فيها المدلول، أي قيمة البناء أو وظيفته، غامضا أو غير محدد، مثال ذلك صيغة الاسم المفرد فَعَل، ويعتبر مفهوم الاسم المفرد مفهوما شديد الغموض.

٣- الحالة التي يتألف فيها غياب تحديدين اثنين، ومثالها صيغة الاسم المفرد فَعْل وفِعْل وفُعْل.

لقد حصلنا، إذن، على نسقين كبيرين متداخلين يكتنفان، داخل شبكتهما، كتلة المعجم السامي باكملها، وهما نسقان ناتجان معا عن تحليلات ترابطية: نسق الجذور ونسق الصيغ. وبذلك، تُحَلل كل كلمة وفق هذين النسقين وتنتمي إلى نسق منهما. فلنأخذ، على سبيل المثال، كلمة عربية، ولتكن كلمة "أبيض": فهي تنتمي، في نفس الآن، إلى الجذر "ب ي ض" المعبر عن التصور العام لـ "أبيض" وإلى بناء صفات اللون في المذكر المفرد: أَفْعَل. ويمكن أن نمثل لهذا التحليل المزدوج، على الطريقة السوسيرية، بواسطة الرسم التالي:

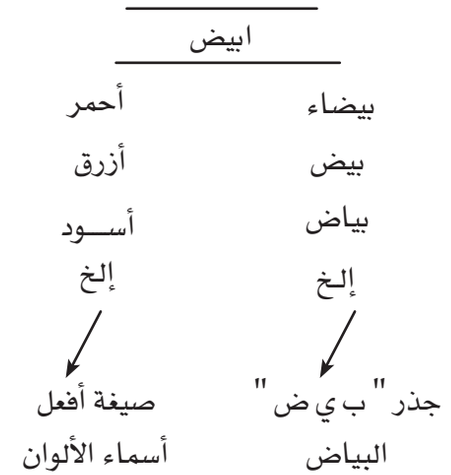

يميز هذا النسق المزدوج، تمييزا جذريا، الألسنة السامية: إذ لابد أن نلاحظ، على سبيل المثال، أن الاشتقاق باستعمال السابقة أو اللاحقة محدود جدا: فحينما نريد أن نشتق كلمة من كلمة أخرى، فإننا قلما نضيف إلى أصل الأولى سابقة أو لاحقة: ذلك أننا نوثر، على العموم، اللجوء إلى الجذر فنشتق منه، وفق نموذج صيغة معروفة، كلمة أخرى سيكون أصلها شديد الاختلاف عن أصل الكلمة الأولى. وهكذا، فحينما نريد أن نشتق التصغير من "قط"، فإننا لا نضيف لاحقة كما هو الحال في الفرنسية chaton، وإنما نشتق من الجذر «ق ط ط»، ووفق نموذج صيغة التصغير، فُعَيل، كلمة قُطَيِّط يكون أصلها مختلفا اختلافا كليا عن أصل قط. ومن شأن هذه الطريقة المتبعة أن توضح، بشكل أفضل، الكيفية التي يشتغل وفقها النسق.

قد نثير مسألة معرفة إلى أي سَنَن من "السَّنَنَين" اللذين يشكلان اللغة، النحو أم المعجم، ينتمي نسق الجذور ونسق الصيغ. ففيما يتصل بنسق الصيغ، لا مجال لأي شك في أنها تنتسب إلى النحو لأنها تعبر، عموما، عن شروط الوحدات الدلالية. أما الجذور، فيبدو، بجلاء، أن كل جذر من هذه الجذور، منظور إليه في خصوصيته، ينتسب إلى المعجم، إلا أنه يمكن لنسق الجذور، أي شكله العام والاستعمال الذي نقوم به بغرض تكوين الكلمات وفق مختلف الصيغ، أن يؤدي إلى إمكان ارتباطه بالنحو.

فهرس المصطلحات

الجذع: Radical

الجذر: Racine

أفعال النفس والخلقة

وهيئة الجسم: Les Verbes de valeur

الأفعال المضعفة:

les Verbes intensifs

الاسم: Nom

الفعل: Verbe

النعت: Adjectif

البنية، البناء، الصيغة، الوزن: Schème

مصوت: voyelle

صامت: Consonne

الفونيم: Phonème

السابقة: Préfixe

اللاحقة: Suffixe

الترابطي: Associatif

دليل أو علامة: Signe

دال: Signifiant

مدلول: Signifié

تزامنية: Synchronique

المصدر: Substantif verbal

سَنَن: Code

مشترك لفظي: Homophone

تصغير: Dimunitif

سِمات
Semat

العلامة

بين اللسانيات والسميولوجيا

عبد الرحمن بن إبراهيم المهوس

جامعة الدمام – المملكة العربية السعودية

aesm555@gmail.com

Received: 12 Nov. 2013,
Revised: 15 Dec. 2013, Accepted: 23 Jan. 2014
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

العلامة:
بين اللسانيات والسميولوجيا

عبدالرحمن بن إبراهيم المهوس
جامعة الدمام – المملكة العربية السعودية

الملخّص

حاول هذا البحث إضاءة مفهوم العلامة في حقلي اللسانيات والسميولوجيا، منطلقا من أصوله القريبة، وخاصة ما أنجزه فردينان دي سوسير في الحقل اللساني، وشارل بورس في الحقل المنطقي، وإنكان لم يغفل العودة إلى الذاكرة، يونانية أو عربية، متى ما دعت الحاجة إلى ذلك.

كما تتبع مفهوم العلامة عبر مراحله إلى أن تبلور في الحقلين المذكورين، مركزا على أبرز المفاهيم المتصلة بالعلامة، كالاعتباطية، والإحالة، والأثر، حتى وصل إلى نوعي العلامة الرئيسين: العلامة اللسانية، وغير اللسانية.ثم تناول تأويل العلامة موجزا أبرز الاتجاهات التأويلية، واختتم تحليل مفهوم التحول وخاصة عند رولان بارت.

وعلى الرغم من السهولة الظاهرة لتناول العلامة، إلا أنها تبدو في الدراسات الحديثة والقديمة قضية معقدة وشائكة، وكلما تقدم فيها الدارس وجدها تزداد تقاطعا واتساعا. ولعل مرد ذلك إلى طبيعة العلامة وتغلغلها في مجالات الحياة كلها؛ مما فرضها على العلوم المختلفة من لسانية، وسميولوجية، وفلسفية، واجتماعية، ونفسية، وغيرها.

وتبين من خلال هذا الجهد المتواضع، أن كل سعي لتحديد مصطلحات العلامة ومفاهيمها يقود إلى اللانهائية، مثلما تقود العلامة في تأويلها اللانهائي. ومع كل هذا الدرس الحديث والقديم، فإن العلامة مادة لا تنفد، ومعين لا ينضب للدرس في كثير من الحقول العلمية.

الكلمات المفتاحية: سيمولوجيا، اللسانيات، العلامة، دو سوسير بارس.

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

Sign:
Between Linguistic and Semiology

Abdulrahman Ibrahim Almahws
University of Dammam – Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

This research sheds light on the concept of sign in the fields of linguistics and semiology, going back to its origins, especially what Ferdinand. de. Saussure, the father of semiology, and Charles. S. Pierce, the father of semiotics have accomplished. At the same time, considerable attention is paid to ensure that it does not forget its main roots, whether it is Greek or Arabic.

It enlightens the sign through its stages until they merged in the fields; linguistics and logic, focusing upon the concepts that have something to do with it such as arbitrariness, referral and tracinguntil. It becomes two distinguished divisions: linguistic and non -linguistic. It discusses the interpretations of the sign, concentrating on approaches of interpretations, and ending with the analysis of Transformation concept, especially with Roland Barthes' contribution to semiology.

Even though it seems to be easy to study this phenomenon, it was a complicated issue in many old and contemporary studies. The deeper the research investigates, the wider the scope it gets in the case of signs and it is, in fact, caused by the nature of signs and this can be realized in everyday life situation. Due to these reasons, it dominates many fields like linguistics, semiology, philosophy, sociology, anthropology and psychology.

The present research explicitly shows the fact that every effort to identify concepts eventually leads to infinity, just as it leads to infinite interpretations. As it was mentioned, sign is an endless source for many scientific fields and this establishes its continuity forever.

Keywords: semiology, semiotics, Linguistic, sign, Saussure, Pierce.

العلامة:
بين اللسانيات والسميولوجيا

عبدالرحمن بن إبراهيم المهوس

جامعة الدمام – المملكة العربية السعودية

تعد العلامة من المفاهيم اللسانية والسميولوجية الرئيسة في العصر الحديث، حيث حظيت باهتمام بالغ في الدرسين، لا يكاد لا يدانيه أي مفهوم آخر، فكانت، وما زالت، محور البحوث اللسانية والسميولوجية، وينبوعهما الذي لا ينضب.

ومرد هذا الاهتمام – فيما يبدو- عائد إلى أهمية العلامة وتغلغلها في جميع مظاهر الحياة، حتى غدت أداةً لتفسير الكون برمته، انطلاقًا من كون كل ما في الكون علامة بتعبير بورس.

تعددت المصطلحات للعلامة، فوصفت بأنها الإشارة، والرمز، والدليل، إضافةً إلى المصطلحات التراثية كالآية، والسمة، والدلالة. وكما اختلفت المصطلحات اختلفت المفاهيم عند دارسي العلامة، فمفهومها يختلف من دارس لآخر.

ولعل هذا الاختلاف يرجع إلى كون العلامة تقع على خط التماس بين دراسات مختلفة، كالفلسفة، واللسانيات، والاجتماع، وعلم النفس، والإنثروبولوجيا وغيرها. كما تقع على خط التماس بين دراسات الحضارات المختلفة من يونانية، وهندية، وعربية، ومعاصرة. ولذا يعد هذا التناول رئيسًا في الحضارات المختلفة، وممتدًا عبر التراث الإنساني، نجده في التراث العربي في حقول عدة[1]، ويتجاوزه إلى اليونان، منذ أفلاطون الذي أولى العلامات ضمن نظريته اهتمامًا واضحًا، وخاصة في محاورة كراتيليوس[2] –CRATYLUS، حيث أكد فيها أن للأشياء جوهرًا ثابتًا، وأن الكلمة أداة التعبير عن الحقيقة، وبالتالي فإن العلاقة بين الكلمة وحقيقتها الدالة

١- مع أن ربط المنجز الغربي الحديث بالتراث العربي وقصره عليه – كما يفعل بعض النقاد المعاصرين - فيه تعسف، إلا أننا نجد أنفسنا مضطرين للربط في بعض المسائل، ومنها (العلامة)؛ لأن المنجز العربي في هذا المجال لا يمكن إغفاله. وأجدني في سياق قراءة العلامة في اللسانيات الحديثة منجذبا إلى استدعاء الطروحات التراثية، فابن سينا يحضر بقوة في طرح سوسير للعلامة وأركانها، انظر: الشفاء (العبارة)، تحقيق: محمود الخضيري، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٧٠م. ص،٤٠ والغزالي، بطرحه لمفهوم العلامة ومراجعها، يقترب كثيرا من طرح بورس، انظر: الغزالي، أبو حامد: معيار العلم، ت سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م. ص، ٧٥ وعبدالقاهر الجرجاني كاد يكون مرجعا لرولان بارت، وخاصة في مسألة الدلالتين الصريحة والضمنية. انظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١، ١٩٨٨م، ص ٢٠٢ وما يليها. وهذا ما حدا ببعض الدارسين المحدثين إلى القول بأن مفهوم العلامة في الدراسات الحديثة، يتطابق مع مفهوم الدلالة في التراث، ويستند إلى الرؤية الإسلامية للعالم، بوصفه دلالة على وجود الخالق في تفسيره لمفهوم الدلالة في الفكر الإسلامي، بما يقابل العلامة في السميولوجيا. انظر: أبو زيد، نصر حامد: إشكالية القراءة وآليات التأويل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩١م، ص، ٥٧.

٢ – هذه المحاورة كتبت عام ٠٣٦٠قبل الميلاد. وتدور حول علاقة الكلمات بالأشياء، بين سقراط الذي يمثل فيما يبدو صوت أفلاطون وهيرموجين، حيث يرى هذا الأخير أنها علاقة اتفاق واصطلاح، بينما يرى سقراط أنها علاقة طبيعية. وقد ترجم المحاورة إلى الإنجليزية وقدم لها وحللهابنيامين جويت (JowettBenjamin) عام ١٨٧١م، وضمت مع أعمال أفلاطون الكاملة في مجلد واحد، تحت عنوان (The dialogues of PlatoJowett, Benjamin)، وتحتل المحاورة الصفحات من ١-١٠٦. وستعتمد دراستنا هذه الترجمة في طبعتها ٨٦٩١ المطبوعة في أكسفورد.

عليها (الدال والمدلول) ناتجة عن تلاؤم طبيعي، أو شبه طبيعي، وهذه الرؤية تنسجم مع فلسفة أفلاطون المتمحورة حول المحاكاة.

أما دراسة العلامة في العصر الحديث فترجع – في معظمها- إلى مفاهيم اثنين ممن أدّوا دورًا بارزًا في تأسيس علم العلامات، هما رائد اللسانيات الحديثة فردينان دي سوسير[٣]، (Ferdinand. De. Saussure)، وأستاذ السميولوجيا المنطقية شارلز. س. بورس[٤] (Charles. S. Peirce).

وقد أسس هذان الرائدان لمفاهيم مهمة وأساسية في دراسة العلامة، كانت منطلقًا للسانيين والسميولوجيين فيما بعد، منها مفهوم اعتباطية العلامة arbitrariness-، ومفهوم الإحالة referral، ومفهوم الأثر- tracing، إضافة إلى عدم قصرهما العلامة على اللغة، بل توسيعها لتشمل أنواع الاتصال الإنساني كلها؛ لذا برز ما يعرف بالعلامة اللفظية وغير اللفظية.

كما كان لسميولوجيا التواصل دورٌ في إثراء درس العلامة، حيث ظهر ما يسمى بوظائف العلامة، انطلاقًا من الوظائف التي حددها جاكبسون- Roman. Jakobson للغة، واستند فيها إلى العوامل الستة لموقف الاتصال.

وقد ظهرت اختلافات في أركان العلامة، من ركني سوسير الدال والمدلول، إلى أركان بورس الثلاثة الممثل والموضوع والمؤول، ثم أركان السميولوجيين التواصليين الدال والمدلول والقصد.

هذه الاختلافات أدت إلى دخول مسألة القصدية وغير القصدية في العلامة، وظهر اتجاهان بارزان هما سميولوجيا التواصل، وسميولوجيا الدلالة، وكانت مسألة التأويل- interpretation حاضرة بقوة في هذا الأخير، ما وسع مفهوم العلامة، فغدا كل نص علامة.

ومن هنا ظهرت مسألة التحوُّل في العلامة، ودخول المتلقي ركنًا فاعلًا في بناء الدلالة من جديد، وهذا وسع مسألة الاعتباطية، وأوصلها إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه.

وقبل الانتقال إلى الحديث عن العلامة أصولها ومفهومها، يجدر التفريق بينها وبين السميولوجيا. فكثيرًا ما يتم الخلط بينهما وطرحهما على أنهما شيء واحد، وهذا خلط يوقع في لبس، فالسميولوجيا- كما عرفتها جوليا كريستيفا[٥] "دراسة الأنظمة الشفوية وغير الشفوية، ومن ضمنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل داخل تركيب الاختلافات، إن هذا هو ما يشكل موضوع علم أخذ يتكون وهو السيميوتيقا (من الكلمة اليوناني " Semeion" " أي علامة").

إذن، السميولوجيا هو العلم الذي يدرس العلامة، فهي تمثل الحقل الذي يدرسه، أي مادة الدرس السميولوجي، تماما كما يدرس علم اللغة اللغةَ وعلم النفس النفسَ، وعلم الاجتماع المجتمعَ، وهكذا. أما العلاَمة فهي الأداة التي يتم بَواسطتها التواصل مع الآخرين، وتتكون من دال ومدلول عند سوسير، بينما يضيف كثير من الدارسين إلى هذين الركنين ركنا ثالثا هو المرجع.

كل ما سبق يوضح أن العلامة، على الرغم من بساطتها الظاهرة، إشكالية في غاية التعقيد، وسيتضح من خلال البحث أنها ما تركت حقلًا إلا دخلته، وشكّلته، وبمفاهيم مختلفة ومعقدة جعلت منها محورًا لعلوم عدة.

٣- فردينان دي سوسير (١٨٥٧- ١٩١٣م) يعد رائد اللسانيات الحديثة، وما وصل من نظريته وأفكاره كان من خلال كتابه دروس في الألسنية العامة، وهو عبارة عن محاضرات جمعها طلابه بعد وفاته، وكان لها أثر كبير في الفكر الغربي الحديث وخاصة فيما يتصل باللسانيات والنقد الأدبي.

٤- شارلز. س. بورس فيلسوف أمريكي (١٨٣٩م – ١٩١٤) درس السيميولوجيا وقسمها إلى ثلاث أشكال، العلامة والإشارة والرمز، وقد درسها من وجهة نظر منطقية خلافا لسوسير اللساني، لذا جاءت مفصلة ودقيقة وشاملة.

٥- كريستيفا، جوليا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٧م، ص، ٦.

الأصول والمفهوم:

تمتح الدراسات الحديثة حول العلامة – كما مر- من أصلين: الأول اللساني، ويروده فردينان دي سوسير، والثاني المنطقي، ويبرز فيه أستاذ السميولوجيا المنطقية شارلز. س. بورس.

وعلى الرغم من أن بورس تناول العلامة من منظور منطقي، وفصَّل فيها بدقة متناهية، إلا أنَّ سوسير كان الأشهر، وذلك ربما يعود إلى منطلقه اللساني الذي شمل، إضافة إلى دراسة العلامة، مفاهيمَ مهمةً، كان لها أثرٌ كبيرٌ في الدرس الحديث.

لسانيات سوسير:

بدأت دراسة العلامة في عصور مبكرة من دراسة اللسان، بل إنَّها قديمة قدم الدرس اللساني، وإن اختلفت المنطلقات النظرية من حضارة إلى أخرى، وتباينت الرؤى، فذلك راجع لاختلاف السياق العلمي والحضاري والتاريخي.

ومع هذا الامتداد فإن كل حديث عن العلامة، في اللسانيات الحديثة، لا بد من أن يرجع إلى سوسير اللساني الأشهر في تاريخ اللسانية. ولأهمية ما طرحه واسبقيته بالنسبة للفكر الغربي الحديث، يصبح ملائما تناول ما طرحه حول العلامة بشيء من التفصيل.

يعرف سوسير اللغة بأنها: "نظام من العلامات التي تعبر عن الأفكار"[٦]، مؤكدًا الطبيعة الإشارية للغة، ومن مقولاته انطلقت الدراسات اللسانية الحديثة، موجدةً قطيعةً مع الدرس اللساني التقليدي، وفاتحةً للدرس اللساني آفاقًا أرحب.

تتكون العلامة عند سوسير[٧] من صورة سمعية ومفهوم، أي فكرة تقترن بالصورة السمعية، فكلمة (كتاب)، على سبيل المثال، علامة لسانية مكوّنة من صورة سمعية، وهو الإدراك النفسي لتتابع الأصوات (ك- ت- ا-ب)، ومفهوم، وهو مجموع الصفات الدلالية (ورق-كلمات مطبوعة -رسالة...).

ويقترح سوسير[٨]، إطلاق الدال (Signifiant) والمدلول (Signifié) بدلا من الصورة السمعية والمفهوم، ويعلل هذا بأن للمصطلحين "فضلًا لإبراز التقابل الذي يفصل بينهما، أو بينهما وبين المجموع الذي ينتميان إليه". كما أن العلاقة بين المفهوم والصورة علاقة اتحاد تام.

إذن، العلامة اللسانية تتكون من دال ومدلول متلازمين، لا انفصال بينهما، ويرتبطان بعلاقة غير معللة، "فالرابط الذي يجمع بين الدال والمدلول رابط اعتباطي"[٩]، والعلامة تقسيم للواقع عن طريق الاصطلاح، بخلاف ما يظن كثير من مستخدمي اللغة من أن العلامة اللسانية اسم للواقع.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن العلامة عند سوسير لا تجمع "بين شيء واسم، بل بين مفهوم وصورة سمعية"[١٠]. وبهذا يقصي المرجع، أو الواقع الخارجي الذي تشير إليه العلامة. ولعل منهجه في دراسة اللغة دراسة آنية داخلية يفسر هذا الإقصاء.

وعلى الرغم من تفضل سوسير العلامة اللسانية، إلا أنه لا يقصر العلامة على اللسان، بل إن ثمة منظومات أولية كثيرة من هذا النوع، مثل علامات الطرقِ، والإشارات الضوئية، وإن كان يعود ويجعلها شكلًا من أشكال اللغة، ويجمعها أن العلاقة بين الدال والمدلول فيها اعتباطية غير معلّلة، مثل العلاقة في العلامة اللغوية.

بيد أنه جعل اللغة نظاما أسمى لكل الأنظمة السميولوجية، لأنها أكثر الأنظمة دلالة وإيحاء[١١]، ويلح على أن العلامة لا يمكن أن تكتسب مفهومها

6- Saussure, Ferdinand de: Course in generallingu istics,Translated,with an introduction and notes by Wade Baskin,McGraw-Hill,edition, 1, 1966,P.16.

٧ – السابق، ص.٦٦.

٨ – السابق. ص. ٦٧.

٩ – السابق. الصفحة ذاتها.

١٠ – السابق. الصفحة ذاتها.

١١- مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة: حميد لحمداني وآخرين، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٨٧م. ص،٢٢.

خارج المجال، أو النظام اللغوي، وبناء عليه، لا يمكن فهم العلامة السميولوجية، دون المرور بالعلامة اللغوية.

هذه المنظومات التي تناولها سوسير، أضحت فيما بعد منطلقا صلبا للسانيين في دراساتهم للعلامة، ولا سيما أنه لم يكتف بطرح مفاهيمه تجاه العلامة، وإنما تنبأ بظهورعلم جديد يدرس هذه العلامات، أطلق عليه السميولوجيا، يقول: "من الممكن تصور علم يدرس العلامات حية في المجتمع، وسيكون جزءا من علم النفس الاجتماعي، ومن ثم جزءا من علم النفس العام، وسأطلق عليه: السميولوجيا (من اللفظة اليونانية سيميون "علامة"[١٢]).

منطق بورس:

اختلفت منطلقات تناول العلامة عند بورس عنها عند سوسير، إلا أن هناك اتفاقًا في كثير من المفاهيم بينهما، وإن كان بورس تناول العلامة بشكل أكثر تفصيلًا ودقة.

أما الاتفاق فكان- وفق دولودال - على مبدأين أساسيين، الأول "أن لا وجود للفكرة دون وجود للعلامات، إذ بدون مساعدة العلامات فإننا نكون عاجزين عن التمييز بين فكرتين بشكل واضح ودائم"[١٣]، أما المبدأ الثاني الذي يلتقيان فيه "فهو مبدأ الذرائعية الذي يتضمنه تصور سوسير للاختلاف"[١٤].

يرى بورس أن كل ما في الكون علامة، منطلقا من أرضية منطقية، فيقول: "لم يكن بمقدوري مطلقا القيام بدراسة أي شيء في هذا الكون كالرياضيات، والأخلاق، والميتافيزيقا، والجاذبية والبصريات، والاقتصاد، وعلم النفس، والصوتيات، وتاريخ العلوم... الخ، إلا من خلال السميولوجيا"[١٥]، وبالتالي فهو يتعامل مع العلامة تعاملا شموليا، كما مر.

والعلامة هي نموذج المقولة الثالثة عند بورس، وهي بتعريفه "شيء ينوب لشخص عن شيء، نتيجة صلة معينة، فيخاطب الشخص شخصًا، ليوجد في ذهنه علامة مكافئة"[١٦]. ومن هذا المفهوم للعلامة وعلمها، أخذ يدرس الرموز ودلالاتها وعلاقاتها في جميع الأشياء والموضوعات الطبيعية والإنسانية.

وإذا كان سوسير قد حصر العلامة بالثنائية الشهيرة بين الدال والمدلول[١٧]، فإن بورس قد أعطاها بعدًا أكبر، فأكد أن العلامة لا تكون إلا ثلاثية، وفق العناصر التالية[١٨]:

- الممثل Representamen
- الموضوع Objet
- المؤول Interpretant

وقد أطلق عليها تجريدًا: الأولية (Firstness)، والثانوية (Secundness)، والثالثية (Thirdness)[١٩]. وتتفرع هذه الثلاثية وتتنوع إلى علامات عدة، تصل إلى ستة وستين نوعا من العلامات[٢٠]، وفق العلاقة وغيرها.

12- Saussure, Ferdinand de: Course in generallinguistics, P. 16.

١٣- دولودال، جيرار: السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة: عبدالرحمن بو علي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط١،٢٠٠٤م. ص ٥٨.

١٤- السابق. الصفحة ذاتها.

15- Peirce, Charles. S: letters to welby,ed, I, clieb, Newhaven, p. 32..

16- Peirce,Charles Sanders: Collected Papers (8 Vols.). (Ed. Charles Hartshorne,Paul Weiss & Arthur W Burks). Cambridge,MA: Harvard University Press,1931-58. 2. 228.

١٧- يتطابق هذا التصور للعلامة مع تصور ابن سينا لها حيث يراها تتكون مسموع اسم/معنى، مقصيا المرجع. يقول "ومعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه". الشفاء (العبارة). ص، ٤.

18- Peirce, Charles Sanders: CollectedPapers. 2. 228.

١٩- السابق ٢. ٢٤٢.

٢٠- ديكرو، أوزوالد وآخرون: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة: منذر عياشي، جامعة البحرين، ٢٠٠٣م. ص. ٢٩٠.

ويؤكد الفيلسوف الأمريكي أن العبرة بتفاعل هذه العناصر، لا بانعزالها، ويطلق على التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة: السيرورة التأويلية (semiosis)[٢١].

وبناءً على هذا التقسيم الثلاثي، يقسم السيميائية إلى ثلاثة عناصر رئيسة[٢٢]: الأول يطلق عليه: النحو الصافي، ووظيفته دراسة كيفية تجسيد العلامة للمعاني. والثاني يطلق عليه: المنطق الخالص، ووظيفته - وفق داسكال[٢٣] - دراسة "شروط صدق التمثيلات"، وهو مقارب لعلم الدلالة. أما الثالث فيدعوه البلاغة الخالصة، ووظيفته دراسة نظام السيرورة.

وتتقابل هذه العناصر الثلاثة مع أبعاد العلامة السابقة، متفرعةً إلى فروع كثيرة، بحسب العلاقة بين كل علامة فرعية بصيغ الوجود السابقة، وفق التالي[٢٤]:

أ- العلامة بحد ذاتها (الممثل)، وتتفرع إلى ثلاث علامات فرعية:

١- العلامة النوعية، وذلك بالنظر إليها بوصفها إمكانًا كيفيًا.

٢- العلامة المفردة، وذلك بالنظر إليها بوصفها موجودًا متجسدًا.

٣- العلامة القانونية، وذلك بالنظر إليها بوصفها قانونا عاما.

ب- العلامة في علاقتها بالموضوع:

١- العلامة الأيقونية، وذلك إذا اشتملت العلامة على خصائص من الموضوع بحد ذاته.

٢- العلامة المؤشرية، حين تكون علاقتها بالموضوع علاقة وجود.

٣- العلامة الرمزية، حين ترتبط بعلاقة مع مؤول.

جـ- العلامة في علاقتها بالمؤول:

١- العلامة الخبرية، وذلك باعتبار العلامة ممكنة.

٢- العلامة التفصيلية، وذلك عندما تشير إلى الواقع.

٣- العلامة البرهانية، وذلك عندما تصبح سببًا[٢٥].

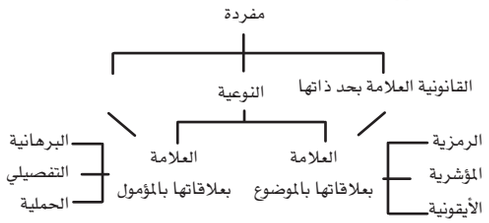

ومع أن العلامات وفق المنطق الرياضي تصل إلى سبع وعشرين علامة، إلا أن بورس يقصرها على عشر علامات فقط؛ لأنه يرى أن هذه العشرة قادرةٌ على وصف أي نظام سيميائي مهما كان[٢٦]:

	اسم العلامة	مثالها
١-١-١-	النوعية	الإحساس باللون الأحمر
٢-١-١-	الأيقونية المفردة	جهاز تخطيط الحرارة
٢-٢-١-	الخبرية المؤشريةالمفردة	الصراخ الفجائي
٢-٢-٢-	التفصيلية المفردة	مؤشر اتجاه الريح
٣-١-١-	الايقونية القانونية	الرسم البياني
٣-٢-١-	الخبرية المؤشرية المفردة	أسماء الإشارة
٣-٢-٢-	التفصيلية المؤشرية المفردة	إشارات المرور
٣-٣-١-	الرمزية الخبرية	الأسماء العامة
٣-٣-٢-	التفصيلية الرمزية	المسلمات
٣-٣-٣-	البرهانية	القياسات البرهانية

اعتباطية العلامة:

الاعتباطية من المفاهيم المهمة عند اللسانيين والسميولوجيين، ويعد سوسير رائد اللسانيات

21- Peirce, Charles Sanders: CollectedPapers. 5. 484

٢٢- السابق ٢. ٢٢٩.

٢٣- مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٣٦.

٢٤- السابق. الصفحة ذاتها.

25- Sebeok, Thomas: Contributions to the doctrine of signs, Indiana UniversityPress, 1976, p. 8-9. / Ogden, C.K. &Richards I. A: The meaning of Meaning. London,1945, p. 282.

٢٦ -السابق. الصفحة ذاتها.

الحديثة أول من نبه إلى هذه المسألة في العصر الحديث، حيث أشار إلى أن "العلامة اللغوية اعتباطية"[٢٧]، أو بعبارة أوضح: "العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية"[٢٨]؛ أي عرفية، تعارف عليها المجتمع.

ولتوضيح هذا المفهوم يمثّل بكلمة (أخت) حيث يشير إلى أن مفهومها "لا تربطه أيَّة صلة داخلية بالأصوات أ- خ- ت "[٢٩] فكان من الممكن أن تمثله أي أصوات أخرى، مستندًا إلى الاختلافات التي نراها بين اللغات نحو المسميات نفسها.

وهذا ينسحب على الكتابة أيضا، حيث يشير، ومن قبيل المقارنة إلى أن "العلامات الكتابية اعتباطية فلا صلة مثلًا بين رسم التاء وصوتها"[٣٠]، وإنما الصلة ناجمة عن اصطلاح عرفي.

والطبيعة الاعتباطية للعلامة- كما يراها سوسير- ميزة تؤدي الدلالة بشكل أفضل من غيرها، فالعلامات "المتسمة بالاعتباط التام أفضل من غيرها في أداء الدلالة"[٣١]، وأدعى لاستمرارية اللغة.

هكذا، نجد أن هذا المبدأ يحتل أهمية كبرى في رؤية سوسير وتصوره للعلامة، ومن جاء من بعده في الاتجاهات اللسانية والسميولوجية المتنوعة، حتى غدا محور العلامة التي بدورها تمثل محور اللسان والسميولوجيا في الوقت نفسه. كما أنه المستند عليه في موضوع السميولوجيا اللغوية وغير اللغوية، فما تندرج علاماته تحت هذا المبدأ، فهو مندرج تحت مظلة السميولوجيا، وما خرج عنه من العلامات فإنه خارج عنها.

وعلى الرغم من أن بعض الكلمات ذات جرس موح، إلا أن سوسير[٣٢] يعيدنا إلى أصلها مشيرا إلىً أن "هذه السمة ليست أصيلة فيها(...) ثم إن خصائصها الصوتية، أو بالأحرى ما ننسبه إليها من تلك الميزات، إنما هو ناتج طبيعي لتطور نظامها الصوتي"، وهذا يعني أن الارتباط وإن كان في ظاهره طبيعيًا، إلا أنه عرفي بالنظر إلى أصل الوضع.

أما من يرى بأن صيغ التعجب تقوم على رابط ضروري بين الدال والمدلول، فإن سوسير يفنّد رأيه، مقللًا من خطر هذه الصيغ مقارنة بسابقتها، فهو ينفي "وجود أي رابط طبيعي في معظمها بين الدال والمدلول"[٣٣]، ويدلل على ذلك بالاختلاف الذي نجده بين طرق التعبير في اللغات المختلفة، إضافةً إلى أن معظم "ألفاظ التعجب كانت يومًا ما ألفاظًا محددة المعاني"[٣٤]، وهكذا يعيد ألفاظ التعجب- كما أعاد الكلمات المحاكية - إلى أصلها الوضعي.

ومع تبني سوسير لمبدأ الاعتباطية، إلا أنه لا يطلق هذه الاعتباطية، وإنما يسمُها بالنسبية، إذ "ليس هناك لغة تخلو من المبرر، أما تصور لغة يبرر فيها كل شيء فهو مستحيل"[٣٥].

وهذا المبدأ ينسحب على الكلمات المحاكية للصوت أيضًا، فهو يراها اعتباطية، وإن كانت نسبيةً كسابقتها، فهي "ليست نادرةً فحسب، لكنها تشتمل على قدر من الاعتباطية، ولا تعدو كونها محاكاة مقاربة، ومن ثم فهي اصطلاحية إلى حد ما في بعض الأصوات"[٣٦]، فهي وإن كانت محاكيةً صوتيًا، إلا أنها من خلال التواضع، فالناس هم الذين اختاروا هذه المحاكاة، وتواضعوا عليها.

ومع أن معظم اللسانيين والسميولوجيين يعيدون هذا المبدأ إلى سوسير، إلا أن بعضهم يرجعه إلى

27- Saussure, Ferdinand de: Course in generallinguistics, p.16.

٢٨ - السابق. الصفحة ذاتها.
٢٩ - السابق. الصفحة ذاتها.
٣٠- السابق. ص.١١٩.
٣١- السابق. ص. ٦٨.
٣٢- السابق. ص. ٦٩.
٣٣- السابق. الصفحة ذاتها.
٣٤- السابق. ص.٦٩- ٧٠.
٣٥- السابق. ص. ٣٣.
٣٦- السابق. ص. ٦٩.

التراث، ومنهم رومان جاكبسون[٣٧] الذي يرى أن اعتباطية الدليل اللساني على المستوى التاريخي ليست لسوسير، بل لليونان، ولا سيما أفلاطون.

بيد أن مفهوم اعتباطية العلامة لم يكن –مع جوهريته– محل إجماع السميولوجيين، بل إن هناك اعتراضات جوهريةً عليه، نجدها عند أعلام كبار، أمثالَ رومان جاكبسون، وبنفينست، وشتراوس، ودريدا وغيرهم.

إذن، مفهوم الاعتباطية ليس حديثا، بل إنه من أكثر المفاهيم اللسانية تناولاً عبر التاريخ، وقد تناوله أفلاطون في محاورة كراتيليوس، إلا أنه وإن أولى العلامة ضمن نظريته اهتمامًا واضحًا، يؤكد أن للأشياء جوهرًا ثابتًا، وأن الكلمة أداة التعبير عن الحقيقة، وبالتالي فإن العلاقة بين الكلمة وحقيقتها الدالة عليها (الدال والمدلول) ناتجةٌ عن تلاؤم طبيعي. كما تناول الأصوات اللغوية من خلال ما تمتاز به الأصوات اللغوية من خواص تعبيرية. أما من كان يرى اعتباطية العلامة فهم السفسطائيون، وهذا واضح من خلال المحاورة[٣٨].

إذن، هناك تأملات، في هذه العلاقة بين الدال والمدلول، ممتدة عبر التاريخ، وإن كان المتتبع للاشتغالات حول العلامة عبر تناوله تاريخيًا لهذه المسألة، يجد الغلبة تميل إلى الاعتباطية، وأن العلاقة بين الدال والمدلول ليست علاقة تلاؤم طبيعي.

وأيًا كانت المواقف من مفهوم الاعتباطية عند سوسير، فإنه شكّل عنصرًا مهمًا في البناء السميولوجي، واعتمد عليه كثيرٌ من السميولوجيين في توسيع السميولوجيا؛ للتوسل بها في مقاربة الفنون المتنوعة.

ويرى ليفي ستروس "أن الرمز اللغوي إذا كان اعتباطيًا مسبقًا، فإنه لا يظل كذلك مؤخرًا، أي أننا إذا أخذنا في الاعتبار الكلمة اللغوية بعد استعمالها، لاحظنا أنها تفقد خاصية التعسف والاعتباط، ولا يصح المعنى الذي نعزوه لها مجرد وضع اصطلاحي"[٣٩].

وبهذا يلتقي ستروس مع سوسير في مسألة نسبية الاعتباط، وعدم إطلاقها، حيث تكتسب علاقةَ فيما بعد تمنع على الفرد التغيير والتبديل، من خلال سلطة الجماعة. وهكذا تصبح الاعتباطية سمةً مؤقتةً للغة.

أما بنفينست فيرى أن العلاقة بين الدال والمدلول ضروريةٌ وليست اعتباطيةً، ويأخذ على سوسير أنه قد انزلق من التفكير في الاسم إلى التفكير في الشيء؛ لأن الطابع الاعتباطي الذي تحدث عنه، ليس إلَّا سمةً تميز علاقة الدال بالشيء الذي يدل عليه لا بالمدلول أوالتصور نفسه"[٤٠]، أي أنه يفرق بين المدلول والمرجع، ويرى أن العلاقة بين الدال والمدلول ليست اعتباطيةً، وإنما الاعتباطية في العلاقة بين الرمز والمرجع، ويحدد "أن العلاقة الوحيدة المتعسفة والطارئة في اللغة هي علاقة الرمز[٤١] بالشيء الخارجي الذي يشير إليه في حالة وجوده المتعين"[٤٢].

ويتناول رولان بارت[٤٣] –Roland Barthes الاعتباطية بشيء من الحذر، فحين تناول اللسان

٣٧- ناظم، حسن: مفاهيم الشعرية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م. ص ٥٦. الحقيقة أن سوسير لم يدّع اكتشاف هذا المبدأ، بل إنه أشار إلى أنه « لا نزاع على مبدأ الاعتباطية. لكن كثيرا ما يصبح اكتشاف حقيقة ما أسهل من موضعتها المكانة اللائقة». انظر:

Saussure,Ferdinand de: Course in generallinguistics «p. 68.

٣٨- للمزيد انظر: كراتيليوس. ص، ٤٤، وما يليها.

٣٩- فضل. صلاح: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢. ص. ٤٣.

٤٠- إبراهيم، زكريا: مشكلة البنية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٥م. ص. ٥١.

٤١- تجدر الإشارة إلى أن سوسير يطلق عليه الرمز قصدا، وذلك للتفريق بين الدال والرمز، فهو يرى أن الرمز يتضمن علاقة سببية بمدلوله، بخلاف الدال اللغوي الذي تكون فيه العلاقة بمدلوله اعتباطية. انظر:

Saussure, Ferdinand de: Course in generallinguistics, p.68

٤٢- نظرية البنائية في النقد الأدبي. م. س. ص. ٤٣.

43- Barthes, Roland: Elements of Semiology, translated by Annette Lavers & Colin Smith,Hill & Wang, New York, 1977. P. 14.

عرفه بأنه "نظام من الأعراف"، واستدرك بوصفها (جزئية الاعتباط، أو بعبارة أصح غير مدفوعة)، وبالتالي فإن النظام "يقاوم التعديلات الفردية، باعتباره مؤسسة اجتماعية".

أهمية مبدأ الاعتباطية للسميولوجيا:

يحتل هذا المبدأ أهميةً كبرى في رؤية سوسير وتصوره السميولوجي، ومن جاء من بعده في الاتجاهات المتنوعة للسميولوجيا، فهذا المبدأ محور العلامة التي بدورها تمثل محور اللسان، الطريق الوحيد للسميولوجيا. وهو الذي يستند إليه سوسير في موضوع السميولوجيا اللغوية وغير اللغوية، فما اندرجت علاماته تحت هذا المبدأ، فهو مندرج تحت مظلة السميولوجيا، وما خرج عنه من العلامات، فإنه خارج عنها؛ لذلك تساءل عن إمكانية إدراج الأنماط التعبيرية القائمة على العلاقة الطبيعية في السميولوجا[٤٤]، مقررًا أنه في حالة إدماجها، فلن تكون من موضوعاتها الرئيسية التي "ستكون بلا شك العلامات القائمة على الاعتباطية"[٤٥].

كما أن الاعتباطية تشكل الأساس الخفي الذي بنى عليه سوسير مفهوم التمفصل المزدوج، وطوره مارتينيه فيما بعد، وخصوصا توزيع الدراسة بين مكونين للوصف اللساني: أحدهما الصوتي والآخر الدلالي[٤٦].

ومن زاوية أخرى، يشكل هذا المفهوم أهمية في النظر إلى اللغة بوصفها نسقًا، يمتلك تنظيمه الداخلي، فإذا كانت العلاقة في العلامة طبيعيةً، لا اعتباطية، فهذا يعني أنها قادرة على تفسير نفسها، دون الحاجة إلى العلاقة بغيرها من العلامات، وهذا يناقض مبدأ النسق[٤٧].

العلامة والإحالة:

من الاعتراضات البارزة على سوسير في تناوله للعلامة إغفاله للمرجع[٤٨] أو الواقع الخارجي، وقصره العلامة على ركنين هما الدال والمدلول، حيث يرى بعض الدارسين أن هذا الإغفال يؤدي إلى إبعاد الدراسة عن الدقة العلمية.

جاءت النظرية الإحالية ردًّ فعل للنظرية التصورية التي نجدها عند الفيلسوف الإنجليزي جون لوك[٤٩]، فهو يرى أنَّ «استعمال الكلمات يجب أن يكون الإشارة الحساسة إلى الأفكار، والأفكار التي تمثلها تعد مغزاها المباشر الخاص» حيث ترى هذه النظرية أن اللغة وسيلة لتوصيل الأفكار.

وقد تعرضت هذه النظرية إلى نقد حاد من معظم المناهج الحديثة؛ لأنها ترى أن المعنى هو الفكرة فكيف يتسنى للمرسل أن ينقل المعنى إلى المتلقي، والأفكار تعد ملكا خاصا بالمرسل.

من هنا تناول كل من ريتشاردز[٥٠]، (Richards)، وأوجدن (Ogden) في كتابهما معنى المعنى (The meaning ofmeaning)، في كتابهما معنى المعنى مسألة الإحالة، وقد أوجزا فكرتهما بالعناصر التالية:

١- الرمز، وهو كل كلمة مكتوبة أو منطوقة، تتكون من وحدات صوتية،يقابله عند سوسير الدال، والعلاقة هنا اعتباطية.

٢- الفكرة، أي المفهوم، وهي الصورة الذهنية التي تتكون من خلال الدال، ويقابلها عند سوسير المدلول، والعلاقة هنا سببية.

٣- المرجع، وهو الواقع الخارجي، وليس له مقابل عند سوسير.

٤٤- السابق. ص.٦٨.

٤٥- السابق، الصفحة ذاتها.

46- Ducrot, Oswald & Tzvetan Todorov: Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language,translated by,Catherine Porter,The johns Hopkins University Press, Baltimore & London, 1979.P. 131.

٤٧- السابق، الصفحة ذاتها.

٤٨- تجدر الإشارة إلى أن سوسير لم يغفل عن إيراد المرجع، بل أقصاه قصدا، حيث يقول «إن العلامة لا تربط بين الشيء والاسم، بل بين المفهوم والصورة السمعية»، ويبدو لي أن منهجه في تناول اللغة هو الذي دفعه إلى ذلك، فهو يتبنى المنظور الداخلي لدراسة العلامة.انظر: ص، ٠١١.

٤٩- جيرو، بيير: علم الدلالة، ترجمة: مازن الوعر. ص ص، ٥٧-٥٨.

50- Ogden, C.K. &Richards I. A:The meaning of Meaning. p.p. 10-11.

وبناء على هذه العناصر، أشارا إلى ضرورة تناول العلاقات في العلامة من زاويتين: الأولى من خلال العلاقة بين الأفكار والكلمات، والثانية من خلال علاقة هذه الثنائية، أما إغفال المرجع فإنه يؤدي إلى خلل في الدراسة العلمية، وقد أطلق على هذه النظرية النظرية الإحالية، ولمثلثهما في هذا المجال شهرة كبيرة في الدراسات اللسانية:

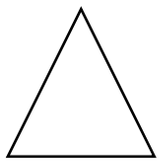

ونلاحظ أن هذه العناصر تتفق مع رؤية كثير من السميولوجيين[٥١]، وعلى رأسهم بورس، كماتقترب من الرؤية التراثية، وخاصة طرح أبي حامد الغزالي[٥٢] الذي يقول: «إن للشيء وجودًا في الأعيان ثم في الأذهان ثم في الألفاظ ثم في الكتابة، فالكتابة به دالة على اللفظ واللفظ دال على المعنى الذي في النفس والذي هو مثال الموجود في الأعيان".

وعليه فقد تناول العلامة من خلال أربعة عناصر:

- الموجود في الأعيان.
- الموجود في الأذهان.
- الموجود في الألفاظ.
- الموجود في الكتابة.

وقد ترتب على إضافة المرجع للعلامة كثير من النقاشات، من ذلك ما يتعلق بالعلاقة الاعتباطية، ففي حين رأى سوسير أن العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول، رأى آخرون أن الاعتباطية بين الدال والمرجع، وليس بين الدال والمدلول.

٥١- مثل فريجه، وبورس، وموريس راجع القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو وجان مايري سشايفر، ترجمة:، منذر عياشي, جامعة البحرين، ٢٠٠٣م, ص،٣٤٦.

٥٢- الغزالي، أبو حامد: معيار العلم،تحقيق:سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م. ص، ٧٥.

العلامة والأثر:

إذا كان الدال والمدلول هما ركنا العلامة عند اللسانيين، فإن دريدا[٥٣] يرى أن كل علامة تؤدي وظيفتين، هما الاختلاف والإرجاء، وبنية العلامة تعتمد عليهما، وليس على الدال والمدلول، أي أن العلامة تَبنِي من خلال اختلافها عن العلامات الأخرى، وهذا الاختلاف الذي يعتمد على الإرجاء "ا ينتهي إلى الحضور الذي لا يتم الحصول عليه أبدا "[٥٤].

ويمكن توضيح ما ذكرناه بالمثال الآتي: نحن نميز بين كلمتي باب وناب من خلال قوة الاختلاف، كما نميز كلمة ناب تمييزًا مختلفًا من خلال قوة الإرجاء التي ندركها حينما تدخل هذه الكلمة في تركيب فني، مثلا (كشر عن أنيابه)، لذا تغدو العلامة نصف مكتملة في انتظار النصف الغائب.

وبناء على هذا النقص في العلامة يضعها ديريدا تحت المحو (Under Erasure)، مما يعني قصور العلامات وعدم كفايتها، وبالتالي عدم قطعيتها؛ لعدم احتوائها القيمة المطلقة.

استنادًا إلى ما سبق، ليست العلامة التمثيل المحسوس للصورة الصوتية، بل إنَّها الأثر الذي يصفه دريدا بأنه ليس طبيعيًا، فاللغة "بنية من الإحالات اللانهائية، التي يشير فيها كل نص إلى النصوص الأخرى، وكل علامة إلى العلامات الأخرى، إنها بنية لا يوجد فيها إلا آثار الآثار"[٥٥].

إن العلامة تحرك الذهن باتجاه ما ليس فيها، ومن هنا تكتسب قوتَها، من خلال الأثر الذي تمتلكه، والذي يدفعنا إلى ما لا تمتلكه، أي أنها تذكرنا وتدلنا على ما ليس فيها، وبالتالي تدفع الذهن للعمل على الوصول إلى الأثر، من خلال قوتي الاختلافوالإرجاء.

٥٣- راي، وليم: المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز،دار المامون للترجمة والنشر، بغداد، ط١، ١٩٨٧م، ص ١٦١، وراجع حول المفاهيم الواردة قضايا نقدية ما بعد بنيوية، ميجان الرويلي، ص، ٩٣، وما يليها.

٥٤- إيفانكوس، خوسيه ماريا: نظرية اللغة الأدبية، ترجمة: حامد أبو أحمد، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩١م، ص، ١٦٧.

٥٥- السابق، ص، ١٥٤.

والملاحظ أن ثمَّة تشابهًا لهذا مع ما طرحه سوسير(٥٦)، من أن العلامة ليست "الدال والمدلول"، بل هي«الاختلاف والإرجاء»، إلا أن سوسير يرى أن العلامةاتحادٌ، في حين يراها دريدا اختلافًا.

العلامة اللغوية وغير اللغوية:

ليست العلامة مقصورةً على اللغة، ولكنها تتعداها إلى أنظمة كثيرة غير لغوية، وهذه الأنظمة داخلة في جميع مناشط الحياة، مما يجعل حصرها متعذرًا.

وعندما نظر سوسير إلى اللغة بوصفها منظومة لغويةً مطلقةً، فإنه في الوقت نفسه أكد أن اللغة ليست المنظومة العلامية الوحيدة، وأن ثمة منظومات أوليةً كثيرةً، من تلك علامات الطرق، والإشاراتً الضوئية، وهي تمثل شكلًا من أشكال اللغة. ففي تعريفه للغة يشير إلى أنها "نظام من العلامات التي تعبر عن الأفكار"(٥٧)، ويقارنها بأبجدية الصم والشعائر الرمزية واللياقة والعلامات العسكرية.

كما أن العلاقة في هذه المنظومات اعتباطيةٌ غير معلّلة أيضا، مثلها مثل العلاقة اللغوية؛ لذا يستشرف سوسير وجود منهج نظري عام لدراسة المنظومات العلامية بشكل عام؛ أطلق عليه: علم السميولوجيا، وعلم اللغة جزء من هذا العلم المتوقع. يقول: "من الممكن تصور علم يدرس العلامات حيةً في المجتمع، وسيكون جزءا من علم النفس الاجتماعي، ومن ثم جزءا من علم النفس العام، وسأطلق عليه: السميولوجيا (من اللفظة اليونانية سيميون "علامة")(٥٨).

ويرى بيير جيرو(٥٩) إن كل علامة أو إشارة –"عبارة عن منشط مشترك"، مما يشير إلى الجانب الاجتماعي، متفقًا مع سوسير في نظرته للعلامة بأنها علامات حية في المجتمع، وأنها اعتباطية سواءً كانت لغويةً أو غير لغوية.

ووفق بيير جيرو يمكن تقسيم العلامة، إلى شكلين رئيسين:

الأول – العلامة الطبيعية: وهي التي تعتمد على العلاقات الموجودة في الطبيعة وبين الظواهر، ونضرب على ذلك مثلًا الاشتراك القائم (بين الغيم والمطر).تشكل كل معارفنا وثقافاتنا وعلومنا وعيًا دقيقًا ومضبوطًا إلى حد ما بهذه العلاقة الطبيعية.والجدير بالذكر أنها لا تأخذ قيمة إشاريةً إلا حين نشترك فيها في أذهاننا»(٦٠).

الثاني –العلامة الاصطناعية: وهي علامات "من صنع إنساني أو حيواني، وهي تنقسم بدورها إلى مجموعتين، أمَّا الأولى فنستخدمها تمثيلًا للواقع، كالرسم والخريطة والتسجيل الفوتوغرافي مثلًا.وأما الثانية، فنستخدمها في الاتصال مع الآخرين، كالكلام المنظم وإشارة الأدب وإشارة الأخطار"(٦١) وسوف نقصر الحديث – هنا – على العلامات الاصطناعية دون الطبيعية.

يعرف روسي لاندي(٦٢) الأنساق الاجتماعية بأنها "الأنسنة وكل ما نتج عنها، أي أنها ما قبل التاريخ الإنساني والتاريخ الإنساني منظورًا إليها من زاوية السيميوطيقا العامة"، فهي الأنساق التي تصنعها الجماعة، ويكون هناك تواطؤ عليها.

٥٦– يقول سوسير بهذا الصدد: «لا يوجد في اللغة إلا الاختلافات»، انظر:
Saussure, Ferdinand de: Course in generallinguistics,p.120.
لكن ينبغي التنبه إلى أن هناك اختلافا بينهما حول هذا المفهوم، راجع خوسيه إيفانكوس، م.س، ص، ١٥٤.

57-Saussure,Ferdinandde:Courseingenerallinguistics,P.16.

٥٨– السابق، الصفحة نفسها.

٥٩– جيرو، بيير: علم الدلالة،ترجمة:منذر عياشي، طلاس،دمشق، ١٩٩٢م. ص،٣٠.

٦٠– السابق الصفحة نفسها.

٦١– السابق.

٦٢– حنون، مبارك: دروس في السيميائيات، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٧م. ص ص. ٢٤–٢٥.

ويقسم لاندي الأنساق الاجتماعية[٦٣] إلى الأنساق الرئيسة التالية:

أولا– الأنساق اللفظية، وهي تلك الأنساق التي لها خصوصياتها المتنوعة، وإعدادات مثل الأنواع السننية على التمييزات التي يحدثها الإنسان في مادة الصوت.

والمقصود باللغات الحالات الخاصة للكلام، أي "القدرة الإنسانية على استعمال أنواع سننية متسقة للتلفظ بأصوات قصد أغراض تواصلية وتعبيرية عادية"[٦٤].

وتدخل العلاقات اللفظية ضمن النسق الرابع عند أندريه مارتينيه[٦٥]، وهو النسق الذي تلتئم فيه الوحدات الدلالية من عدة علامات، كل دال علامة منها يمكن تقسيمه إلى عدة أشكال، بالطبع، مع جواز دخول العلامات ذاتها في وحدات دلالية مختلفة ودخول الأشكال ذاتها في علامات متنوعة".

وإذا نظرنا إلى عبارات اللغة، فسنجد أنها تقوم على نوعين من الاختيار[٦٦]، يتناسبان مع مستويين من مستويات التحليل:

أ- اختيار الوحدات الدالة، فالمتكلم لكي يتكلم، يقوم باختيار وحدات لغوية صغرى، هذه الوحدات يسميها مارتينيه (مونيم) أي (لفظم)، كما ترجمها بعضهم إلى العربية، وتنقسم هذه المونيمات إلى ثلاثة أنواع:

- مونيم يتمثل في أصل الكلمة من غير زيادة.
- مونيم اقتراني أو متصل، مثل السوابق واللواحق، كأل التعريف، وواو الجماعة.
- مونيم حر، مثل حروف الجر.

ب- اختيار الوحدات المائزة، تتكون الوحدات المائزة من عدد من الأصوات التي تشكل المونيم... ففي لفظة مثل (سار) نجد ان المتكلم قد جعل اختياره في الأصوات الثلاثة (س- ا –ر)، وهذه الأصوات قادرة على أن تميز هذا المونيم من مونيم آخر يملك قابلية التبادل معه، مثل: (دار –جار – حار...الخ)

ثانيا– الأنساق غير اللفظية، وهي الأنساق التي لا تستعمل أنواعًا سننية قائمة على أصوات متلفظ بها، ولكنها تستعمل أنواعًا سننية قائمة على أنماط أخرى من الأشياء، هاته الأسماء الأخرى التي سيسميها بالأجسام هي إما أشياء توجد قبليا في الطبيعة، وإما لأن الإنسان أنتجها لغايات أخرى، وإما أنها أنتجت بغرض أن تستعمل بوصفها دلائل، أو أنها استعملت باعتبارها دلائل في نفس الفعل الذي نتجت فيه[٦٧].

ويمكن تقسيمها إلى التالي:

١- أنساق دلالية عضوية، حيث يقوم الإنسان بسلوك معين، وتشمل:

أ- حركات الأجسام، وأوضاع الجسد، والتواصل بالإشارة، وتعابير الوجه، وتعابير أخرى، وأوضاع الجسد...

ب- الإشارات الدالة على القرب المتعلقة باستعمال الإنسان للمكان.

جـ- اللمسي، والشمي، والذوقي، والبصري، والسمعي.

٢- أنساق دلالية أداتية، حيث يقوم الإنسان بسلوك بواسطة شيء، وتشمل:

٦٣- في التراث العربي تناول موسع لهذين النسقين، نجدهما عند الجاحظ مثلا الذي صنفها إلى قسمين قسم مرتبط باللغة، وآخر خارج عن اللغة كالإشارة والعقد وغيرها، انظر الحيوان ج ١، ص، ٣٦ وما بعدها حول هذين النوعين، حيث قال:» وجعل آية البيان بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم، في أربعة أشياء، وفي خصلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة، وهذه الخصال هي: اللفظ والخط والإشارة والعقد والخصلة الخامسة ما أوتجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة» وانظر البيان والتبيين، ج ١ ص، ٧٦ وص، ٨١.

٦٤- حنون، مبارك: دروس في السيميائيات، ص، ٢٢.

٦٥- فاخوري عادل: تيارات في السيمياء، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٠م. ص،٤٤.

٦٦- عياشي، منذر: اللسانيات والدلالة، مركز إنماء, ط١, ١٩٩٦م ص. ص، ١٣٣-١٣٤.

٦٧- حنون، مبارك: دروس في السيميائيات، ص، ٣٢.

أ- الشيئي، أي الأشياء القائمة على أشياء، يروضها الإنسان وينتجها ويستعملها، ثياب، حلي، زخارف، أدوات مختلفة، آلات...

ب- المؤسسي: كل أنواع التنظيمات الاجتماعية، وبالتحديد كل الأنساق المتصلة بروابط القرابة والطقوس والأعراف والعادات والنظم والقضاء والديانات والسوق الاقتصادي..[٦٨].

وتقسم مدرسة (تارتو) السوفييتية الأنساق إلى قسمين:

أ- أنساق منمذجة أولية: وهي الأنساق اللفظية اللسانية.

ب- أنساق منمذجة ثانوية: وهي مبنية على الأنساق الأولى، ويصنف ضمنها الدين، والأساطير، والشعر، وعموم الفنون والملامح المميزة للثقافة "

والألسن الطبيعية –وفق أندريه مارتينيه[٦٩]– تمتلك خاصية تميزها عما سواها من وسائل الاتصال، وهي التمفصل، أو التقطيع المزدوج، ويعتمد هذا التمفصل معيارًا أساسًا لتصنيف الأنساق العلاماتية:

الصنف الأول: يحتوي على وحدات دلالية يستحيل تقطيعها، ككل إلى عدة علامات، ويستحيل كذلك تقطيع دالها إلى عدة مركبات بسيطة، أي إلى ما يسمى بالأشكال، مثال ذلك نسق أضواء السيرعند تقاطع الطرق، فهو يتركب عادة من ثلاث وحدات دلالية، لا تجتمع أبدًا، ولا يمكن تقسيم كل دال منها إلى أشكال أكثر بساطة، فالضوء الأحمر يشير إلى منع المرور، والضوء الأخضر إلى السماح به، بينما يدل الضوء الأصفر إلى المرحلة الإنتقالية، كذلك يعود إلى هذا الصنف الاتصال الحيواني عامة وبعض أنساق الحركات.

الصنف الثاني: يتكون من وحدات دلالية قابلة للانقسام إلى علامات بسيطة، كل علامة منها يمكن أن تدخل في تركيب وحدات دلالية مختلفة، ويمكن اعتبار ترقيم الغرف في الفنادق من هذا الصنف أيضًا، فالرقم (٣٥) مثلا يشير كوحدة دلالية إلى غرفة معينة من الفندق، كما أن كل جزء منهما يشكل علامة كاملة، فالرقم (٣) يعين الطابق، والرقم (٥) إلى مرتبة الغرفة.

ومن الواضح أنه يمكن أن تدخل كل علامة من العلامتين في وحدات دلالية أخرى، مثلما هي الحال في أرقام الغرفة (٢٥) و(٣٢) حسب عدد الطوابق[٧٠].

الصنف الثالث: فيه يستحيل تقطيع الوحدة الدلالية إلى عدة علامات، بل يقتصر تركيبها على علامة بسيطة فقط، لكن بالإمكان تحليل دال كل وحدة دلالية إلى مركبات مختلفة ليست ذات دلالة أي إلى أشكال.

يندرج تحت هذا الصنف مثلًا: دقات استهلالات البث الإذاعي، دقات الأوامر العسكرية، تراقيم السجل، ففي هذه الحالات يتألف الدال من عدة نوطات، أو عدة أرقام، يمكن أن تدخل كل نوطة أو أن يدخل كل رقم منها في دالات مختلفة، لكن دون أن يكون للنوطة الواحدة أو للرقم المنفرد مدلولٌ ما[٧١].

الصنف الرابع: هو ما يشكل أنساق اللغات الطبيعية...أي أن النسق الذي تلتئم فيه الوحدات الدلالية من عدة علامات، كل دال علامة يمكن تقسيمه إلى عدة أشكال، بالطبع مع جواز دخول العلامات ذاتها في وحدات دلالية مختلفة، ودخول الأشكال ذاتها في علامات متنوعة...

بالإضافة إلى العبارات اللسانية، لا يمنع بريتو إمكانية تحقق التمفصل المزدوج في أنساق أخرى، فثمة نسق ترقيم للهاتف يندرج تحت هذا الصنف، مثلا رقم الهاتف ١٧/٢٥/٦١٣٤٨٩ يتركب من ثلاث علامات ذات المدلولات الآتية:

٦٨- السابق، ص،٢٣.

٦٩- فاخوري عادل: تيارات في السيمياء، ص،٤١.

٧٠- السابق ص: ٤٢- ٤٣.

٧١- السابق الصفحة نفسها.

مع ائتلاف كل علامة منها من عدة أشكال[٧٢].

العلامة بين القصدية والتأويل:

مسألة القصدية وعدمها في العلامة من المسائل المهمة التي أثيرت في العصر الحديث بشكل واسع[٧٣]، وقد انقسم الدارسون حيالها إلى فريقين:

الأول يؤكد الطبيعة الإبلاغية التواصلية للعلامة، ويمثل هذا الاتجاه كل من مونان ومارتيني وبرييتو في فرنسا، وهؤلاء يرون أن العلامة تتكون من دال ومدلول وقصد.

الثاني يؤكد الجانب التأويلي للعلامة، أي من حيث إمكانية العلامة للتأويل بالنسبة للمتلقي، وهو اتجاه ارتبط بالأدب، ويبرز فيه الناقد الفرنسي رولان بارت، الذي أضاف إضافات متميزة وبارزة على درس العلامة، حتى عُدَّ رائد هذا الاتجاه، ولا سيما أنه أفاد من طروحات سوسير وهلمسليف في الدفع بدرس العلامة إلى الأمام.

ومع ذلك فإن الحديث عن التأويل لا يمكن أن يتناول بعيدا عن بورس، الذي يعد المرجع في هذه المسألة.

لقد أولى بورس المؤول (Interpretant) أهمية قصوى في أركان العلامة، وأعطاها حرية لا نهائية من المتواليات، "فالعلامة كل ما يحدد شيئا آخر (مؤوله) بإرجاعه إلى شيء بدوره هو الآخر يرجعه (موضوعه) بنفس الطريقة، فالمؤول يصير بدوره علامة وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية "[٧٤].

٩٨٤٣١٦	٥٢	٧١
المشترك	المدينة	المقاطعة

ويمثل التأويلُ في نظرية إيكو[٧٥] عمادَها، فهناك روابط عميقة بين السيميائية والتأويل، حيث إنه لا يرى العلامة إلا بوصفها مؤولة بواسطة مؤول، وهذا يفسر ما طرحه حول اتصال الإنسان بالآلة، فهو يراه عملا دلاليا؛ لارتباطه بالتأويل.

وفي هذا يقتفي بورس في مفهومه للعلامة، وأنها لا تكون علامة إلا إذا توافرت على ثلاثة عناصر: الممثل، والموضوع، والمؤول[٧٦]. لا بد من تفاعلها، وهذا التفاعل هو ما أسماه السيرورة التأويلية (semiosis)[٧٧]. وهو ما يرادف التأويل عند إيكو.

إن العلامات "نتيجة مؤقتة لقوانين الشفرة المنظمة لعلاقات علامات مؤقتة للعناصر، يمكن دخول كل عنصر منها –ضمن أحوال خاصة بالشفرات– في علاقات أخرى لتأليف علامة جديدة"[٧٨]. وبهذا تنتج عملية التاويل علاماتٍ أخرى، والأخرى تنتج أخرى وهكذا.

لكن إيكو يطرح صنفين من عمليات هذه السيرورة التأويلة، الأولى النهائية، والثانية اللَّانهائية، أما "عمليات السيرورة التأويلية اللَّانهائية للعلامة فهي الضمان الوحيد لإنشاء نظام سيميائي يستطيع الحد من جموحه بوسائله الخاصة"[٧٩].

وهذا يقودنا إلى مسألة تأويل العلامة، وكيف تطورت عبر مراحل دراسة النص، لنجد أن التأويل مر بالمراحل التالية[٨٠]:

التأويل سعيًا إلى قصدية الكاتب، ماذا يقصد من وراء ما كتب؟ وما هو المعنى الأخير للنص؟ وماذا يجب أن يفهم من خلال القراءة؟

٧٢- السابق، ص، ٤٤.

٧٣- ليست مسألة التأويل حديثة، فهي ترتد إلى نشأة النص، وخاصة المقدس منه، ثم انتقلت إلى تأويل النص الإبداعي، للمزيد حول ذلك، انظر: مجهول البيان لمحمد مفتاح، دار توبقال، ط١، ١٩٩٠م، ص ٩٠ وما يليها. ودلائلية النص الأدبي لعبد القادر فيدوح، ص ٢٥ وما يليها

٧٤- دولودال، جيرار: السيميائيات أو نظرية العلامات، ص، ٩٦.

٧٥- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص. ٢٨٦.

76- Peirce,Charles Sanders: CollectedPapers. 2. 228.

٧٧- السابق: ٥. ٤٨٤.

78- Eco, Umberto: A Theory of Semiotics. Bloomington,Indiana UniversityPress,London,Macmillan,1976.p.49.

٧٩- السابق. ص. ٦٨.

٨٠- الكدية، الجلالي: بين التأويل والتلقي، ضمن الترجمة والتأويل، كلية الآداب، الرباط، ط١، ١٩٩٥، ص، ٣٠.

التأويل سعيًا لمعرفة قصدية النص، مع طرح أولوية الزاوية البنيوية وإشكالية الشرح، وتبيين المنظومة الدلالية والانسجام النصي.

التأويل سعيًا لمعرفة قصدية القارئ، ماذا يقرأ القارئ؟ وما هي خلفيات القراءة؟ وهل توجد قراءة واحدة، أم قراءات متعددة للنص الواحد، حسب دائرة معارف كل قارئ ودرايته ومهارته على القراءة والتأويل؟

هكذا يتحول التأويل من المرسل وقصديته إلى المتلقي وتأويله وطريقة فهمه[٨١]، فيصبح المدلول مختلفا من متلق إلى آخر، وفق تأويله له، بل يمكن أن نجد مدلولًات مختلفة عند المتلقي الواحد، نتيجة تكرار التلقي، وهذا بابٌ واسع في الدراسات الحديثة، وخاصةً في تلقي الأدب.

ويُعد هذا التحول المحور الذي تدور حوله نظرية التلقي، بل إنه أصبح مركز اهتمام النقد الأدبي في القرن العشرين من حيث التنظير والتطبيق. ورغم الاختلافات العديدة بين منظري التأويل حول طرق وكيفية تأويل النص، فإنهم يجمعون على أهميته واستمراره[٨٢]. ولعل ما سنتناوله حول التحول، وخاصة الشكل الثاني منه، يضيء جانبًا من هذا الموضوع.

العلامة وعلامة العلامة (التحول):

تتكون العلامة، كما مر، من دال ومدلول ومرجع، أو من دال ومدلول وفق سوسير، إلا أن الدال والمدلول لا يبقيان على حال واحدة إلى الأبد، فالدلالة تتحول وتتنقل من معنى إلى آخر.

ويأخذ هذا التحول شكلين رئيسين، طرح الأول سوسير حينما أكد أنه "يمكن من بعض الأوجه أن ننسب إلى الدليل اللغوي صفتي اللاتحول والتحول في آن"[٨٣]، فهو يرى أن الدليل قابل للتحول؛ لأنه متواصل في الزمن ومتغير فيه، ولهذا تكتسب الكلمات مع مرور الزمن دلالات أخرى لم تكن فيها.

وهذا التحول يدخل فيما كان يعرف بأشكال تغير المعنى، مثل تعميم المعنى[٨٤]، وذلك بالانتقال من المعنى الخاص إلى المعنى العام، كإطلاق اسم علم على منتج، ومثله تخصيص المعنى وهو عكس السابق، مثل تخصيص كلمة حرامي باللص، مع أن المعنى الأصل يعني فعل المحرم.

ومن أشكال تغيير المعنى النقل، وانحطاط المعنى، ورقيه، مثل كلمة (الرسول) التي تحولت من أي إنسان يرسل إلى الرسول المبعوث من الله.

لكن الشكل الثاني للتحول هو الأبرز في هذا المجال، وهو المجاز، وذلك لأنه يتحول في زمن قصير وربما يتحول آنيا، من خلال دخول العلامة في علاقات جديدة.

هذا التحول في الطرح السميولوجي أفرز ما يطلق عليه رولان بارت (الدلالة الصريحة والدلالة الضمنية)[٨٥] في مجال سميولوجيا الدلالة.

وقد استقى بارت مفهومي التعيين والتضمين من هيلمسليف Hejilmslev، وقام ببلورتهما، حيث استبدلهما بالدال والمدلول يقول بارت: "وقد أعطى هيلمسليف هذه الإشارة اسم (الإشارة السيميائية الإيحائية) مقابل (اللغوية الشارحة)، حيث يكون هناك تطابق بين الإشارة وما تدل عليه في الرسالة

٨١- هذه النقاشات تستدعي ما طرحه أبو هلال العسكري في معرض حديثه عن العلامة حين قال:» يمكن أن يستدل بها، أقصد فاعلها ذلك، أم لم يقصد «، فيصبح القصد خارج التحليل، حيث تحتفظ العلامة بدلالة مشتركة. كما أن أبا هلال وسع مسألة القصدية لتشمل العلامة غير اللغوية حين أشار إلى أن « آثار اللص تدل عليه وهو لم يقصد ذلك ... وليس هو فاعل لأثره من قصد»، وهنا تصبح العلامة ذات فعل ناتج عن العلاقة العرفية، ويصبح التأويل مشتركا، دون تدخل من فاعل العلامة.

٨٢- السابق. ص، ٤٨.

83- Saussure,Ferdinand de: Course in general linguistics,p.74.

٨٤- أنيس، إبراهيم: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٠م، ص، ١٥٤.

٨٥- كان هوسرل يميز بين نوعين من العلامات: التأشيرية والتعبيرية، والأخيرة هي التي تمنح المعنى، حيث تمثل غرض الاتصال، أو العمد اللغوي الحي، بينما التأشيرية تخلو من الرغبة التعبيرية، وتعمل كعلامة، دون حياة في نظام المعنى الكيفي. (نورس، كريستوفر: التفكيكية، النظرية والتطبيق، ترجمة: رعد جواد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط، ١، ١٩٩٢م. ص،١٥).

الأولى، فلا تكون دالة في رسالة ثانية"[٨٦].

أما الدلالة الضمنية، كما يراها بارت[٨٧]، فهي "نظام دلالي على المستوى الثاني مبني على الدلالة الصريحة"، أي أن الرسالة "يمكن أن تصير هي نفسها مستوى تعبيريًا جديدًا لرسالة ثانية، تكون امتدادًا لها، أي بوجيز القول تصير الرسالة الأولى (دالًا) لرسالة الثانية"[٨٨].

ويمكن زيادة توضيح هاتين الدلالتين عند بارت من خلال التالي:

الدلالة الصريحة: وهي جوهرية ومحددة، ويندر أن يختلف عليها اثنان، وهي تتحرك تحركا أفقيا مسطحا، منتقلة من المرسل إلى المستقبل، وممثلةً رسالة ذات مرجع، هو سياقها.

الدلالة الضمنية: وهي تتحرك على مستويين:

أ- عمودي، ويأتي من حيث الاختيار، فمعرفتنا لسره تتحدد بمعرفتنا لسلم الخيارات الممكنة كبدائل، وإدراك هذه العملية يحتاج إلى إحضار عناصر غائبة عن النص.

ب -أفقي، ويفترض فيه أن يكون جديدًا، والهدف هنا جمالي، فالغرض ليس الإخبار، وإنما إيجاد أثر بعيد الغور في النفس، ونتيجة ذلك التجربة الجمالية، وكما يقول رولان بارت: "الحركة اللّامتناهية لكل مستوى من مستويات المعنى ضد لحظة إدراكه".

الدال الصريح	المدلول الصريح
الدال الضمني	المدلول الضمني

الخاتمة:

حاولت هذه الورقات توضيح مفهوم العلامة في اللسانيات الحديثة والسميولوجيا، منطلقة من أبرز مفاهيم دارسي العلامة، أحدهما رائد اللسانيات الحديثة فردينان دي سوسير، والثاني أستاذ السميولوجيا المنطقية شارلز. س. بورس.

وعلى الرغم من السهولة الظاهرة لتناول العلامة، إلا أنها تبدو في الدراسات الحديثة والقديمة قضية معقدة وشائكة، وكلما تقدم فيها الدارس وجدها تزداد تعقيدا واتساعا. ولعل مرد ذلك إلى طبيعة العلامة وتغلغلها في مجالات الحياة كلها؛ مما فرضها على العلوم المختلفة من لسانية، وسميولوجية، وفلسفية، واجتماعية، ونفسية، وغيرها.

وتبين من خلال هذا الجهد المتواضع، أن كل سعي لتحديد مصطلحاتها ومفاهيمها يقود إلى اللّانهائية، مثلما تقود العلامة في تأويلها اللّانهائي. وهذا الاتساع للعلامة هو الذي دفع المحدثين للإيمان بأن كل ما في الكون علامة، وراحوا يفسرون هذه العلامات من منطلقات مختلفة.

بيد أن هذه الرؤية ليست جديدة، فقبل عدة قرون، كان المسلمون الأوائل ينظرون إلى العالم بوصفه علامة على وجود الخالق عز وجل، ومن منطلق توجيهات قرآنية مكثفة؛ فسعوا إلى التعامل مع العلامة على أنها حسية حاضرة تحيل إلى مجرد في الغياب.

ومع كل هذا الدرس الحديث والقديم فإن العلامة مادة لا تنفَد، ومعين لا ينضب للدرس في كثير من الحقول العلمية، ولعل هذا من مزاياها التي تضمن استمراريتها وبقاءها ما دام الإنسان موجودًا.

٨٦- السابق الصفحة نفسها

٨٧- الغذامي، عبدالله: الخطيئة والتكفير، ط٢، ١٩٩١م. ص،١٢٨.

٨٨- بارت، رولان: الأدب بلاغة، ضمن اللغة والخطاب الأدبي، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط، ١٩٩٣م. ص،٥٥.

المراجع

أولا- المراجع العربية:

إبراهيم، زكريا: مشكلة البنية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٥م.

أبو زيد، نصر حامد: إشكالية القراءة وآليات التأويل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩١م.

أنيس، إبراهيم: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٠م.

الجاحظ، عمرو: البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ١٩٦٨م.

الجاحظ، عمرو: الحيوان، ت عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٨٣م.

الجرجاني، عبدالقاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط، ١، ١٩٨٨م.

حنون. مبارك: دروس في السيميائيات، دار توبقال، الدرا البيضاء، ط١، ١٩٨٧م.

الرويلي. ميجان: قضايا نقدية ما بعد بنيوية، النادي الأدبي، الرياض، ١٩٩٦م.

ابن سينا، الحسين: الشفاء (العبارة)، تحقيق: محمود الخضيري، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٧٠م.

عياشي، منذر: اللسانيات والدلالة، مركز إنماء، ط١، ١٩٩٦م.

الغذامي، عبدالله: الخطيئة والتكفير، ط٢، ١٩٩١م.الغزالي، أبو حامد: معيار العلم، ت سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

فاخوري، عادل: تيارات في السيمياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

فضل، صلاح: نظرية البنائية في انقد الأدبي، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢م.

فيدوح، عبدالقادر: دلائلية النص الأدبي، جامعة وهران، ط١، ١٩٩٣م.

الكدية، الجلالي، بين التأويل والتلقي، ضمن الترجمة والتأويل، كلية الآداب، الرباط، ط١، ١٩٩٥م.

مفتاح، محمد: مجهول البيان ، دار توبقال ، ط،١، ١٩٩٠م

ناظم، حسن: مفاهيم الشعرية، المركز الثقافي العربي،بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

ثانيا- المراجع المترجمة:

إيفانكوس، خوسيه ماريا: نظرية اللغة الأدبية، ترجمة: حامد أبو أحمد، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩١م.

بارت، رولان: الأدب بلاغة، ضمن اللغة والخطاب الأدبي، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

جيرو، بيير: علم الدلالة، ترجمة: منذر عياشي، طلاس،دمشق، ١٩٩٢م.

جيرو، بيير: علم الدلالة، ترجمة مازن الوعر، دون بيانات.

ديكرو، أوزوالد وآخرون: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة: منذر عياشي، جامعة البحرين، ٢٠٠٣م.

دولودال، جيرار: السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة: عبدالرحمن بو علي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط١ ٢٠٠٤م.

راي، وليم: المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز،دار المامون للترجمة والنشر، بغداد، ط١، ١٩٨٧م.

كريستيفا، جوليا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٧م.

مارسيلو، داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة:حميد لحمداني وآخرين، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٨٧م.

نورس، كريستوفر: التفكيكية، النظرية والتطبيق، ترجمة: رعد جواد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط، ١، ١٩٩٢م.

ثالثا-المراجع الأجنبية:

Barthes, Roland: Elements of Semiology, translated by Annette Lavers & Colin Smith, Hill & Wang, New York, 1977.

Ducrot, Oswald & Tzvetan Todorov: Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language,translated by,Catherine Porter,The johns Hopkins University Press, Baltimore & London,1979.

Eco, Umberto: A Theory of Semiotics. Bloomington, Indiana Universtiy press, London, Macmillan, 1976.

Ogden, C. K. & Richards I. A: The meaning of Meaning. London, 1945.

Peirce, Charles Sanders: CollectedPapers (8 Vols.). (Ed. Charles Hartshorne, Paul Weiss & Arthur W Burks). Cambridge, MA: Harvard University Press, 1931-58.

Peirce, Charles: Letters to Lady welby, New Haven, Whitlock, 1953.

Plato: The dialogues of Plato, translated by Benjamin Jowett, Oxford.1968.

Saussure, Ferdinand de: Course in generallinguistics,Translated, with an introduction and notes by Wade Baskin, McGraw-Hill, edition,1, 1966

Sebeok, Thomas: Contributions to the doctrine of signs, Indiana University Press, 1976.

Semat

الموضوع السيميائي
ولعبة المعنى

نصر الدين بن غنيسة
الجزائر

benghenissan@gmail.com

Received: 15 Nov. 2013,
Revised: 15 Dec. 2013, Accepted: 30 Jan. 2014
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

الموضوع السيميائي
ولعبة المعنى

نصرالدين بن غنيسة
الجزائر

الملخّص

يعد هذا المقال ترجمة للدراسة التي تتناول بإيجاز الإشارة واللغة بشكل عام. وهو يسلط الضوء على مفهوم إشكالية الكائن السيميائي. حيث يبدأ وينتهي هذا الكائن بوصفه نهجا، إما من الخارج عن طريق دمج محور نموذجي ومحور syntagmatic، أو من الداخل بعدّه لعبة تركيبية ودلالية متشكلة من المكونات الصغرى، والتي تحيل إلى مكونات لموضوعات سيميائية أخرى.

ومن وجهة النظر هذه، كل المعارف، وكل الثقافات، وكل الأحداث، وكل الحياة، فردية كانت أم اجتماعية، مرتبطة بالبحث عن المعنى الذي يبدو أن الإنسان قد جُبِل عليه. كما نرى جيدا أن كل العلوم (إنسانية أو غير إنسانية)، كل المعارف هي علوم تسعى إلى البحث عن الدلالة، وعن المعنى، وعن "طريقة سير" ذواتنا وسير العالم الخارجي: وهو ما يميز علوم اللسان والسيميائية، على الخصوص، عن حقول البحث الأخرى.

الكلمات المفتاحية: الإشارة ، اللغة، السيميائية، دلالة، علوم اللسانيات، محور نموذجي.

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

Semiotic object and game sense

French translation of part of chapter “what is a semiotic object” of the book “ Semiotics of language”, Joseph Courtés, Armand Colin, 2005, Paris, p.08-22

Benghenissa Nacer eddine
University of Biskra – Algeria

Abstract

This article is a translation of a study that addresses briefly the sign and language in general. It highlights the problematic notion of the semiotic object. Where it begins and ends as a semiotic object. As an approach, the article propose two perceptions: either outside by integrating the paradigmatic axis and the syntagmatic axis, or from inside by returning its components to other semiotic objects.

Furthermore, no semiotic analysis is possible only if it involves an essential opposition discrete vs. continuous. Here are two possible approaches: either we share the discreet and we are moving towards a form of order continuous, or it is placed at the outset that first there was continuous, and that any semiotic analysis must articulate it, break it down into discrete units between which we will recognize a number of relationships.

Keywords: signs, language, semiotics, significance, Science Linguistics, syntagmatic.

الموضوع السيميائي
ولعبة المعنى

نصرالدين بن غنيسة

الجزائر

ما "الموضوع السيميائي"؟:

من الأهداف المعلنة للسيميائيات–وهي اختصاص جديد سنحدد نطاقه تدريجيا- عرض لعبة المعنى أو الدلالة في مواجهة الموضوع السيميائي المقترح عليها: قد يتجلى هذا "الموضوع" – على مستوى الإدراك الحسي- بشكل لساني (شفوي أو مكتوب) أو غير لساني (في حالة المرئي، على سبيل المثال، ولكن أيضا اللمسي، وحتى الشمي أو الذوقي)، ويمكن لهذا الموضوع أن يتأتى من البنيات الذهنية.

إن الدرس السوسيري القائل (أن لا وجود في اللغة إلا للاختلافات) يجعلنا نعتقد، من غير شك، أن إدراك المعنى في حالة مواجهة "موضوع سيميائي" ما، لا يتأتى إلا بالقدر الذي نميز فيه بين الوحدات الدالة الثابتة التي يمكن أن نتعرف عليها في ذاتها وبين متغيراتها وفق سياقات معينة، بالطبع لا يتأتى ذلك إلا إذا حافظنا على المستوى نفسه من التحليل: كما هو الشأن، على سبيل المثال، في تصريف الأفعال في الفرنسية.

إن هذا الأمر يثير، من البدء، تساؤلا ساذجا بالكلية، **ما الموضوع السيميائي؟** كيف لنا أن ندركه؟ كيف لنا أن نحدده؟ للوهلة الأولى، يبدو الموضوع السيميائي متعلقا بتصور دلالي كلي ينحو باتجاه عالم المدلول (= ما يتم فهمه من طرف القارئ، المتفرج، الخ.، أي المرسل إليه أو المتلفظ له)

فالصعوبة الأولى التي تبرز حين نود القيام بتحليل ما، هي ألا نقع في نوع من الذاتية غير المضبوطة فيما يخص التحديد الملموس للموضوع السيميائي. فإذا أخذنا حالة "المحادثة"، مثلا، فالأكيد أن لهذه الأخيرة، على الأقل بداية ونهاية، إلا إذا واصلناها لاحقا، ولكن في كل الحالات، نتفق على أن محادثة ما هي نسبيا مجموع مغلق. وكذلك، كل صورة بصرية، مثال الصورة أو اللوحة الزيتية، فإن لكل منهما إطارا واضحا يصلح لأن يسيج "الموضوع السيميائي".

لنأخذ الآن حالة مختلفة تماما من مجال آخر، إنها حالة القصص القصيرة لغي دو موباسان، مثل انتقام التي درسناها في كتابنا "تحليل سيميائي للخطاب، من الملفوظ إلى التلفظ" (دار هاشيت، ١٩٩١، ١٩٩٧، ٢٠٠١): هل لنا أن نعدّ كل واحدة من هذه القصص موضوعا سيميائيا مستقلا، أم على العكس، علينا أن نضعها ضمن هذا الكل الأكثر رحابة، والمتمثل في الحكايات والقصص القصيرة لهذا الكاتب والتي ستكون فقط أحد عناصرها المكونة؟

إذن من أين يبدأ وأين ينتهي "موضوع سيميائي" ما؟ هنا تطرح بشكل موسع مسألة **التناص** (والحق يقال، يمكن نؤول هذا المصطلح بكلمة **تلفظ**). هل تشكل حكايات وقصص موباسان كلا منغلقا على نفسه، أم أن فهمها يتطلب وضعها ضمن كل أعمال هذا المؤلف (والتي تصبح بدورها موضوعا سيميائيا أكثر اتساعا)؟ ثم، أليس من (الأجدر) بنا أن نوسع، أيضا، من هذا الإطار لنضم وندمج أعمال موباسان ضمن الكتابات الأدبية، من نفس الجنس الأدبي، لمؤلفين آخرين ينتمون لنفس الفترة، الخ. في الحد

الأقصى، فإن كل الأدب، على سبيل المثال، يمكنه أن يتشكل كموضوع سيميائي. من حقنا أن نتساءل، والحال هذه، أين علينا أن نتوقف، إذن؟

في الواقع، حين نتحدث عن موضوع سيميائي، فإننا نماثله، افتراضا، بكلٍّ معطى، وبدقة أكثر، بكل مجموع دال، بداهة، و محدد (بشكل) جيد (على الأقل اعتباطا)، آخذين بعين الحسبان ليس فقط المدلول (أو **مستوى المضمون**، بمصطلح لويس يلمسلف)، ولكن أيضا الدال (ونعني به الحامل السمعي، البصري، اللمسي، الشمي أو الذوقي المتعلق بالموضوع) الموافق لمستوى التعبير عند لويس يلمسلف. من وجهة النظر هذه، يمكننا أن نتحرك وفق رؤية أكثر «موضوعية».

والأمر ذاته ينطبق على المجال البصري. فحين نأخذ الثابت (على سبيل المثال، تمثيلا كاريكاتوريا لـ«الوجه» الإنساني في الخطاطة التي أدناه)، يكفي أن نغير وضعية و/أو شكل الخطوط الممثلة للـ "عينين" و "الفم" لكي، وبشكل متلازم، تتغير الدلالة (المعطاة، أسفل الصور، في شكل ألفاظ لسانية).

في هذه الحالة، فإن الثابت لا يعني، على مستوى الدال، الصورة البسيطة، ولكن مجموع المشَكّلات البصرية المتمفصلة: (أي) نوع من التصويرية، في مستوى التعبير، المتعلقة بـ "الرأس" و "العنق"؛ (بينما) تتعلق المتغيرات بوضعية وشكل القسمات البصرية الأخرى. نرى، على سبيل المثال، أن الدال برودة الانفعال يتضمن المشَكّلات (أي تلك الخطوط المنفصلة والموزعة على مستويات مختلفة للتعبير عن "العينين" أو الفم) المرتبطة بـ/الأفقية/، بينما في حالة البشاشة أو الحزن، فإن الفم، مثلا، يكون في شكل منحن، ويتحدد ذلك وفق وجهة (أعلى/أسفل) ونقيضتها (ونفس الأمر بالنسبة للعينين حيث إن تموضع القسمات البصرية، في خطوط مائلة، في حال "البشاشة" يناقض تموضعها في حال "الحزن")

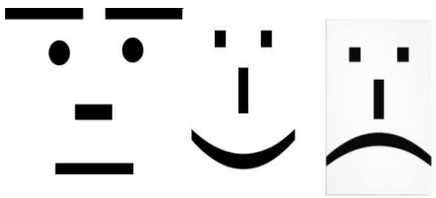

حزين بشوش لا مبالٍ

إذا عددنا رسمنا الصغير ككل دال، فالموضوع العام قد يكون **الحالات النفسية**. في موضع آخر، على سبيل المثال المحادثة، فإن الموضوع العام "هو" ما نتحدث عنه، في المجال السياسي- الاقتصادي، قد يكون الموضوع العام، من بين عدة مواضيع ممكنة، هو "الإقصاء الاجتماعي" (مع كل مظاهره الواقعية المختلفة و التي يمكن أن تدركها حواسنا)، الخ. باختصار، يحسن بنا، أثناء التحليل السيميائي، أن نختار موضوعا محددا بشكل جيد: في الحالة العكسية، نوشك أن نسقط في مقاربات عامة إلى درجة أن أية نتيجة صارمة (نخلص إليها) لا يمكنها أن تجلب اعتراف العائلة العلمية دونما أن تلقى اعتراضا.

بيد أنه في مستوى التأويل، لا يتوقف الموضوع السيميائي عند نقطة ما، فهو دائما يحيل على شيء آخر (مثلما هو حال القاموس حيث الحركة الدائرية للكلمات تفرض نفسها بشكل ضروري: فكل كلمة يتم وصفها بكلمات أخرى، هي الأخرى بدورها تكون موضوع تعريفات، وهكذا دواليك)؛ وهذا ما ندعوه بـ "**السيرورة السيميائية غير المحدودة**". بعبارة أخرى، فالموضوع السيميائي ليس، على الإطلاق، منغلقا على نفسه بشكل كلي، مثلما سنراه حين عرض ملاحظاتنا عن التلفظ، حتى وإن كان لنا الحق، من ناحية منهجية، أن نتناوله كمعطى مستقل، محصور بشكل جيد.

في هذا المقام، تتبدى لنا وجهتا نظر ممكنتان؛ إذ بإمكاننا أن ندرك الموضوع السيميائي إما:

أ)- من الخارج: وفي هذه الحالة، تتم معالجته إما

-ككيان معطى إزاء كيانات أخرى محتملة (نتبنّى هنا وجهة نظر **استبدالية**: إنه محور

الانتقاء حسب إميل بنفنيست): في رسمنا، يمكننا أن نقابل بين برودة المشاعر والبشاشة والحزن؛ وإما

-أن نتناول الموضوع في علاقاته التركيبية مع كيانات أخرى قابلة للمقارنة (إنه محور "الترتيب")؛ يمكن أن يناسب ذلك، مثلا، في النحو التقليدي، المقابلة بين **الصرف** (مورفولوجيا) (دراسة الكلمات وتشكلها) و**النحو** (تحليل الصلات بين الكلمات، وأيضا بين المركبات الاسمية والفعلية في الجملة). في رسمنا، الأمر يتعلق بتحول موجه: إنه الانتقال من برودة المشاعر إلى البشاشة ثم إلى الحزن (وفق قراءة الرسم انطلاقا من الشمال إلى اليمين).

ب)- من الداخل بعدّه لعبة تركيبية ودلالية متشكلة من المكونات الصغرى (والتي تحيل على مكونات لموضوعات سيميائية أخرى: في رسمنا، لعبة الخطوط المستقيمة والمنحنية، وتوزيعها الأفقي أو المائل، الخ.

فضلا عن ذلك، لا يمكن لأي تحليل سيميائي أن يقوم إلا على التقابل الجوهري:[1] متصل مقابل منفصل، والتي سنعود إليها بالتفصيل لاحقا. وينطبق هذا الأمر على العلوم كلها، سواء أكانت دقيقة أم تقريبية.

هنا، مقاربتان ممكنتان: إما أن ننطلق من المنفصل (بعدّه افتراضات ابتدائية) ونتوجه نحو شكل من انتظام المتصل (وهي أطروحة تجد لها رواجا اليوم إلا أنها تفتقر إلى منهجية مناسبة لوضعها موضع التنفيذ)، وإما أن نفترض ابتداء المتصل حيث يتولى التحليل السيميائي مفصلته وتفكيكه إلى وحدات منفصلة أين نتعرف من خلالها على العلاقات التي تربط بينها، وهو ما قمنا به بمعية غريماس استنادا إلى فرضية كلود ليفي ستروس في الحقل المنهجي: وقبله دوسوسير و يلمسلف اللذين يتموضع جهدهما في هذا الإطار؛ إذ ينطلق من سلسلة لفظية متصلة (من وجهة نظر صوتية) لتحليلها إلى عناصر منفصلة، وموزعة على مستويات مختلفة (مثال التمفصل المزدوج للساني الفرنسي أندريه مارتينه).

إن خيارنا المنهجي هذا ليس مرتبطا بدراسات كبار اللسانيين والأنتربولوجيين فقط، وإنما أيضا بأعمال جان بياجيه الذي يوضح، في مجال علم النفس، كيف أن الطفل الصغير ينفصل تدريجيا أولا عن كل ما ليس هو، ثم كيف يمضي قدما في مفصلة العالم الخارجي بعدّه وحدات منفصلة.

٢- مقاربة "سيميولوجية" و/أو "سيميائية" للغة:

١.٢. اتصال ودلالة:

علينا ألا نحوّل مصطلح السيميائية إلى أقنوم، بله علينا ألا نرى فيه إشارة إلى»علم» حقيقي: إذ من الجليّ أن الأمر ليس كذلك، مثلما سنشير إليه مرات عدة أثناء تقدمنا في الطرح: كما هو معلوم في علوم اللسان، ليس بالإمكان مطلقا أن نعمل في الواقع إلا في إطار من "التجريب"، أو من "العمل الارتجالي- الاقتطاف" الذي رُدّ إليه الاعتبار، منذ سنوات عديدة، في العلوم الإنسانية، من طرف كلود ليفي ستروس[2].

١- يجد هذا التقابل أصولا ضمن المعارف الرياضية، قديما عرفت الرياضيات بأنها « علم المقدار المتصل والمنفصل "أو هو علم "الكم "وعلى تلك كان ينظر إلى الحساب والجبر على أنهما يتناولان دراسة الأعداد والعمليات عليها، وإلى الهندسة على أنها مختصة بدارسة النقط والخطوط والأسطح والأحجام والعلاقات بينها. هذا يدل على أنها جميعا تتعلق بالمقدار المتصل والمنفصل؛ فالكم المنفصل كما في الأعداد وهي موضع اهتمام الحساب أو كما في حروف اللغة التي تستخدم الرموز في التعبير عن كم غير محدود وهو موضع اهتمام علم الجبر، أما الكم المتصل فهو ما يتعلق بالمكان والزمان أو تتعلق بمعنى الحركة بأشكالها المختلفة وهو الأقلية ونظرية المجموعات المجردة وجبر المنطق. (المترجم)

٢- يعيد الأنثروبولوجي كلود ليفي ستروس، الاعتبار للعمل الوحشي، أو الاقتطاف الذي يعرفه القاموس بأنه الأشغال اليدوية والإصلاحات المنزلية التي يقوم بها الإنسان في بيته، في كتابه «الفكر الوحشي» ، من خلال الموازنة بين الفكر العلمي الحديث وما يسميه الفكر الأسطوري الذي كان سائدا في ما يسمى الشعوب البدائية. يرى أن الفكر الوحشي يصطنع حقائقه وفقا لما يتوافر بين يديه من إمكانيات وفرص، طبعا مثل هذه الحقائق تظل محدودة، إلا أن هذا هو أفضل ما لديه. أما الفكر العلمي فيذهب إلى أبعد من ذلك بكثير ، معتمدا على تعدد الوسائل والإمكانيات. لكن ستروس لا يتردد في تفنيد فكرة أن هذين الفكرين يعبران عن مرحلتين أو مراحل من تطور المعرفة، بل هما منهجان يظلان قابلين للمقاربة، وهما على قدم المساواة في إنتاج المعرفة. (المترجم)

فمن جهة، لا يستطيع، بالفعل، الملاحظ (أو المحلل) أن ينفصل، كلية، عن الملاحَظ (موضوع الدراسة)، إذ ليس هناك انفصال بين هاتين الهيئتين، بل ترابط بينهما. هذه الملاحظة لا تنسحب فقط على اللسانيات أو السيميائية وبل أيضا على مجموع العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعة؛ ومن جهة أخرى، نلاحظ بيسر أن اللغة اليومية تصلح لأن نستعملها **كميتالغة**، على الأقل في جزء منها، حتى وإن لجأنا إلى مفاهيم تميل إلى أن تكون أكثر صرامة، بحيث تتقلص معانيها حتى تصبح وحيدة المعنى إن أمكن ذلك، وهو شأن التحليلات التي سنقترحها لاحقا.

منذ عشريتين أو ثلاث، لا أحد يجهل أن السيميائية الفرنسية تركز على العلاقات بين العلامات و على المعنى الناتج عنها، بينما تشدد "السيميولوجيا" (أو السيميائية الأنكلوسكسونية) على المماثلة والتصنيف ونمذجة العلامات، مولية عناية أكثر لأشكال الاتصال وللقنوات التي يعتمدها. طبعا، فالمنظوران لا يتناقضان، بل العكس، فإنهما، وفق مقاربتنا، لا يمكنهما إلا أن يتكاملا، مثلما سنراه فيما بعد.

لنوضّح، بالمناسبة، أهمية التمييز الذي نود أن نضعه بين **الاتصال والدلالة**: في الحالة الأولى، نفترض، على الأقل، (وجود) مرسل، رسالة ومتلق؛ بينما ليس الأمر كذلك حينما يتعلق بالدلالة. لنقدم هنا مثالا متداولا.

لتكن اللافتة "صيدلية": بإمكاننا أن نرى فيها رسالة مبتعثة من طرف مالك الصيدلية (المرسل: الصيدلي) نحو مرسلين متوقعين (المتلقون: الزبائن). الآن إذا عاينت حالة السكة الحديدية في إيطاليا وأدركت أن العربات المتوجهة نحو المناطق الجنوبية هي في الغالب في حالة خربة عكس العربات التي تسير في شمال البلاد، هل ما زال يمكنني الحديث عن اتصال؟ هل تنطوي هذه الحالة الأخيرة على رسالة مبتعثة من المجتمع X "يود (من خلالها) أن يقول إجمالا للمسافرين: للمناطق الفقيرة عربات قديمة، وللمناطق الغنية عربات في حالة جيدة"؟.

يبدو جليا أن ليس هناك أية نية اتصال من طرف X؛ في مقابل ذلك يمكنني أن أؤكد أن توزيع العربات، للأسف، ليس مجردا من الدلالة، بل على العكس من ذلك. لنكتف الآن بالقول إن إشكالية المعنى أوسع بكثير وإن أدرجنا الاتصال (كجزء من الإشكالية) كما سنرى (خاصة فيما يتعلق بالتلفظ والتداولية): إنها (تشمل) عموما مجال ما ندعوه بالدلالة.

٢.٢. العلامة:

لنتناول الآن الإشكالية العامة للعلامة (باللاتينية σημειου) إن لمصطلح العلامة– أو بالأحرى تأويله– تاريخا طويلا يعود إلى العهود القديمة. وليس من مهمتنا أن نتناول هنا عموم هذه الإشكالية ذات البعد الفلسفي ابتداء[٣] (يمكننا العثور على ذلك بسهولة في كتب ومقالات متخصصة) ولا حتى أن نلخّص مراحلها الرئيسة خلال قرون، ولكن فقط، سنحاول– في هذا المقام– أن نعرض وبأبسط الأشكال الممكنة اشتغال العلامات في علاقاتها البين– ذاتية، وبشكل أوسع، داخل الحياة الاجتماعية، كما يتقبلها واقعيا عالمنا الغربي المعاصر (سواء أتعلق الأمر باللغة اللسانية أم غير اللسانية).

هدفنا إذن سيكون النظر فيما هي العلامات، معتمدين في ذلك على معارفنا الحالية، الأمر الذي يتيح لنا أن نتعرف عليها كوحدات مستقلة، وأن نعاين مختلف الأشكال التي يمكن أن تتلبسها والعلاقات التي (تتعهدها) فيما بينها. فالعلامات هي التي توضح إدراكنا لأنفسنا وللعالم– في مستوى معين من الوصف فقط (بالطبع لن يكون ذلك من طبيعة أنطولوجية[٤]، وإنما علائقية).

فالمعنى والاتصال سيكونان بالنسبة إلينا الرهانين الأساسين للمقاربة السيميائية، حتى وإن

٣- بإمكاننا أن نعود إلى المقالة المعنونة بـ "المعنى" في الموسوعة الفلسفية العالمية، المفاهيم الفلسفية، القاموس، الجزء ٢، باريس، PUF، ١٩٩٠.

٤- لا يهتم الكاتب بما تكونه العلامة من جوهر ذي خصائص ذاتية، وإنما بما هي في علاقتها ببقية العلامات. (المترجم)

شكلا، فضلا عن ذلك، (ومن منظور مختلف)، جزءا من الأهداف التي تتوخاها علوم إنسانية أخرى.

في الواقع، إن القارئ يعتقد أن إلغاء كل العلامات – من كل المجالات مهما كانت- يعادل زوالا ليس فقط لكل اتصال بين- ذاتي، ولكن أيضا لكل فكر، وفي النهاية، للإنسان ذاته.

لنذكّر بالمناسبة أنه إذا لم تكن هناك علامات كونية (مشتركة بين كل الثقافات في العالم)، فهناك على الأقل نزعة كونية فيما يتعلق بلجوء الإنسان إلى العلامات. وهو اعتراف (إقرار) بأن لا شيء مما هو إنساني يمكنه الإفلات من عالم العلامات، حتى وإن وجدت طرائق أخرى – غير سيميائية- لإدراكها: وهي النقطة التي سنعود إليها فيما بعد.

لكن كيف لنا أن نقارب دلالة العلامة؟، نعلم أن أي مصطلح فرنسي يمكن أن تتنوع معانيه وفق السياق الذي يتموضع فيه، مثلما هو حال الصوت (أو الفونيم) /I/، فهو ليس ذاته تماما إذا ما كان في بداية الكلمة، أو وسطها، أو نهايتها؛ ونفس الأمر نجده في المثال التالي: إن شكلا ما في مشهد من شريط مرسوم، لا يمكنه أن يفيض معنى إلا بالنسبة لبقية الأشكال التي تحفّ به: إذا ظل متفردا بمعزل عن بقية الأشكال،، سيظل تأويله عسيرا، أي لا يمكن تحديده أو البت فيه.

نعتقد بالفعل أنه عن طريق التعرف على العلامات، ابتداءً، ثم على مواقعها وتفاعلاتها، و**تحريكها وتأويلها** نستطيع أن نصل إلى المعنى، إلى الدلالة، إلى فهم كل الأشياء (واقعية أو متخيلة)، وكل الممارسات (سواء أكانت تداولية، أو ذهنية أو هووية)، باختصار، كل ما يشكل ثقافة ما. في الواقع، إن مختلف الأوجه – التي ألمحنا إليها آنفا- تقع على المستوى نفسه: فالإجراءات التي تسمح بالإمساك بالدلالة لا يمكن أن نضعها موضع التنفيذ بشكل ملموس إلا بالمجاورة.

وعليه، فالتعرف على علامة يفترض مسبقا ليس فقط مقارنتها على الأقل ضمنيا بعلامات أخرى – إن على مستوى **الدال** أو **التعبير**، وفق اصطلاحات علوم اللسان، (= الحامل المحسوس، من طبيعة سمعية أو بصرية، مثلا، والتي تظل قابلة للتأويل) أو على مستوى **المدلول** أو **المحتوى** (= ما هو مفهوم بشكل تلازمي في سياق معطى)- ولكن أيضا وضعها في وضعية تلفظية (وضعية فعلية لتلفظ فردي و/أو جماعي).

على سبيل المثال، يتوجب على الشخصين اللذين يتبادلان الحديث حول موضوع ما، أن يتقاسما عالما لسانيا مشتركا، صوتيا (عبر الأصوات والنبرات الخاصة بلغة طبيعية معينة) وتركيبيا (بوضع العلاقات المتعارف عليها من قبل المتخاطبين موضع استقصاء) و دلاليا (إذ ذات المعنى يعطيه المتخاطبان، على الأقل بشكل تقريبي، للكلمات المستعملة في المحادثة ولصياغاتها المعتمدة). كل هذا يفترض مسبقا أيضا أن يمتلك هذان الشخصان، من جهة أخرى، مكتسبات مشتركة تتجاوز الخطاب الكلامي المتحقق فعليا إلى معرفة السياق (القائم على الافتراضات والمضمرات والإيحاءات الاجتماعية، وحتى استعمالات شخص ما للغة حسب أسلوب خاص به، الخ). في الحالة العكسية، طبعا لن يستطيع الشخصان أن يتفاهما، لأنهما ليسا «على نفس الموجة»: فإذا تجاوزنا الجمل المستعملة إلى الخطاب، فإن على الأخير أن يمتلك، في مجموعه، معنى شاملا، متناسقا يطرح الموضوع نفسه ويتجنب الحديث المتهافت – إلا إذا تعلق الأمر بلعبة متفق عليها-. من الطبيعي أن تبرز محادثة كهاته عناصر لا تقل أهمية عن المعطيات اللسانية الصرفة، على سبيل المثال، كل ما يتعلق بالإيماء، والحركات والمسافة الفاصلة بين المتخاطبين (أثناء الحديث قد نقترب من الآخر أو نبتعد عنه، حسب رغبتنا في أن نسمعه الكلام أم لا)، الخ.

إن أحاسيسنا (المنبثقة من الاستبطان، من وجهة نظر «داخلية»: على سبيل المثال، حين نشعر

بحالة من الارتياح أو الضيق في لحظة ما) أو إدراكاتنا (المتعلقة باستكناه العالم «الخارجي» المحيط، مهما تعددت أنساقها: السمعية، البصرية، اللمسية، الذوقية، الشمية) هي في البدء تأويلات نعطيها لكل ما يحدث لنا (ماديا أو نفسيا)، لكل ما نكابده داخليا أو نعانيه جسديا. فمن البديهي أن تكون هذه النقطة أيضا منطلقا لينفتح (أمامنا) طريق الاتصال بين- ذاتي والاتصال الاجتماعي الذي يراهن، هو بدوره، على **السلوكات** (من قبيل/الفعل/) و**الأهواء** (أو الحالات النفسية من قبيل /الكينونة/).

من المسلم به ومن دون صعوبة تذكر، أن جهل الفرنسي الذي يقيم ببلاد أجنبية، للغة تلك البلاد وأعرافها وسلوكاتها الخاصة، سيجعله يشعر، فجأة، و كأنه مهمش؛ حتى الأشياء المادية البحتة التي تتعلق بالحس والإدراك، فإنه لا يستطيع تأويلها من ذاته إلا عبر الأسنان الدلالية الفرنسية الوحيدة التي يمتلكها. وبما أن تحري المعنى هو من مقومات الإنسان، فإن هذا الفرنسي لن يستطيع أن يتجنب دخول لعبة الترجمات، إلا إذا اختار أن يقصي نفسه إراديا من كل هذا العالم الاجتماعي والثقافي الجديد الذي يحيط به.

على سبيل الطريفة، لنذكر، مثلا، وصفا مقتطفا من يوميات في أرض البرازيل (١٥٥٧)[٥] حيث قدّم جون دو ليري[٦]، أول "أنتروبولوجي" مثلما يشهد بذلك نظراؤه اللاحقون، لقرائه باللغة الفرنسية حيوانا يجهلون وجوده إلى ذلك الحين. من أجل هذا الغرض، فهو مضطر أن يردّ المجهول إلى المعلوم، الجديد إلى القديم، أن "يترجم" إلى لغتنا الطبيعية ("نصف بقرة ونصف حمار") اسم الحيوان ("Tapiroussou") الذي لا ذكر له طبعا في المصطلحية الحيوانية الفرنسية.

لوصف الحيوانات المتوحشة في بلدهم الذي يدعونه ب .Soo، أبدأ بالتي هي صالحة للأكل. فأول حيوان وأكثرها شيوعا هو ما يدعونه بـ ("Tapiroussou"): فهو ذو شعر محمرّ طويل، فهو تقريبا بحجم وبدانة وشكل البقرة: إلا أنه لا يمتلك قرنين، فرقبته أقصر، وأذناه متدليتان و أكثر طولا، وساقاه ضامرتان ونحيلتان، وقدم لا شقوق بها إلا أن لها ذات شكل قدم الحمار. يمكننا إذن القول إن هذا الحيوان هو نصف بقرة ونصف حمار، بما أخذه من هذا وذاك. (ص.٢٣٩).

٣- مقدمات للولوج إلى المعنى:

من الواضح، على سبيل المثال، أنه في مجال «المدرَك»، في مجال ما هو تصوري بحت (كحقل الفلسفة، والرياضيات والمنطق..)، لا نستطيع أن «نفكر» عمليا من دون علامات، من دون كلمات، من دون خطاطات، وحتى من دون صور: أن نفكر، ولو «تفكيرا ذهنيا» صرفا إذا ما جاز لنا هذا الإطناب، فإننا سنستعمل مجموع علامات تتفاوت في حسيتها، وسنلجأ إلى مفردات اللغة، وإلى المصطلحات أو إلى التمثلات التي هي، في العموم، تواضعية، والتي من غيرها لن تكون أية معرفة، أو بالأحرى لن يكون أي تحصيل للعلم ممكنا.

طبعا، غالبا ما نقول-خاصة في الأدب والفلسفة- إن ما يعز عن الوصف، تعريفا، لا يمكن أن يُعبّر عنه، إذن هو غير قابل لأن يبلَّغ (على الأقل على المستوى اللغوي): وهذا ما تعنيه حرفيا جملة (يعز عن الوصف). والواقع، إذا ما استشعرنا أمرا غير قابل للوصف، إذا ما افترضنا وجوده المسبق، فلأنه، قبلا، يعتمد على حامل مناسب – من قبيل الإحساس (ذو خصيصة انفعالية) أو الإدراك (من طبيعة حسية) -: على سبيل المثال، في المجال الجمالي حيث إن تأويل لوحة زيتية ما يثير هذه الحالة النفسية أو تلك، ولنفترض حالة الحبور، واللذة، والنشوة، والتي وإن لم تكن بالضرورة قابلة لأن يعبَّر عنها، إلا أنها «واقعية».

في نطاق آخر، الأكيد أن حالة التقوى الصوفية ليست من قبيل المعبّر عنه، إلا أنها، كتجربة، تضع بشكل أو بآخر الإنسان موضع التجلي. في كل هذه الحالات، إن قضية **الأحاسيس** المعتلجة داخل

٥- منشورات باريس، ١٩٥٧.

٦- رحالة فرنسي، ولد عام ١٥٣٦، وتوفي عن عمر يناهز ٧٧ في عام ١٦١٣ (المترجم)

الإنسان (استبطان الذات مقابل استكناه العالم الخارجي) هي التي أضحت مطروحة على بساط البحث، وهو ما سنعرض لها لاحقا في دراستنا الوجيزة لإجراءات التلفظ.

نعلم أيضا، أنه ومنذ الأبد، يعسر علينا جدا أن نحلل بدقة شعورا ما – في شكل لغوي-: فكل المترادفات المعتمدة – كالتي تقترحها القواميس- لا تشبع نهمنا. وهو إقرار بأن هذا الشعور يظل في الغالب "غير معَبَّر عنه" في الواقع. حتى في مثل هذه الحالة، فإن لهذا الشعور علاقة بعنصر مستقى من عالم خارجي، بحيث يشكل هذا الشعور إزاءه رد فعل الذات (فردية أو جماعية): مثلما يحدث حينما يثير لقاء شخص بآخر ما يدعى بـ "الحب من أول وهلة». تعريفا، إن ما يعز عن الوصف لا يمكننا تدوينه بالكلمات، ولكن ذلك لا ينفي، إطلاقا، تعلقه باللغة، وبالتالي بالمقاربة السيميائية. حتى فيما تعلق بالأحاسيس الأكثر جوانية، فإن الإنسان يظل خاضعا لإكراهات اللغة. ومن دون هذه اللغة، فإنه لا وجود للرمزية، وبالتالي لا وجود للإنسان أيضا.

هذا يعني بكل بساطة، أن هناك لغات، وإن لم تفصح عن ذاتها بالكلمات، مع ذلك، فإنها حاملة للمعنى؛ ومن الأمثلة الأكثر ابتذالا، على ذلك، الأشرطة المرسومة[٧] المجردة من الكلمات. الأكيد هنا، أنه يمكننا أن نعثر لهذه الأشرطة على مقابل لساني، إلا أن كتابة ذلك المقابل اللساني، و إن كانت بدقة متناهية، غير أنها تظل فقيرة جدا من وجهة نظر المعنى، وذلك قياسا بالمتعة التي نستشعرها أثناء القراءة البصرية لهذا لشريط من الرسوم أو ذلك، من دون عناصر لسانية. من هذا المنظور، فإن لوحة رسم، على سبيل المثال، "غير قابلة للسرد"، لا نستطيع أن نحكيها لكفيف، لا سيما إذا كانت "غير تصويرية". من جهة أخرى، كل فعل مادي ينتمي إلى المحسوس هو بداهة حامل للمعنى، سواء بالنسبة لمن يأتيه أو بالنسبة لمن يراه أن يكون على علم به. بشكل أوسع، كل معطى قابل للإدراك يحثنا على أن نعثر له على معنى يناسبه: حتى النظر إلى مشهد طبيعي بسيط لا يمكنه أن يمر دون أن يترك فينا انطباعا معينا، دون أن يثيرنا فينا حالة نفسية خاصة؛ ومن باب أولى، فإن بناء بيت أو ترتيب أشياء في غرفة ما له معنى: حتى الفوضى ليست مجردة من المعنى. في الحد الأدنى، كل ما هو موجود أو ما يمكن تخيله في إطار عالم سوسيوثقافي معين، يمتلك معنى، أو على الأقل، هذا ما نفترضه مسبقا، وبعفوية. حتى ما هو من قبيل " العجيب" أو الذي يبدو "شاذا" لا يخلو من الدلالة، وإن كان ذلك عن طريق سؤال المعنى الذي يطرحه: من الواضح، مثلا، أن "المجهول"، "الخارج عن المألوف" أو "غير المعقول" هي ألفاظ معروفة جدا، قابلة للتأويل دلاليا.

من وجهة النظر هذه، كل المعارف، كل الثقافة، كل الأحداث، كل الحياة، فردية كانت أم اجتماعية، مرتبطة بالبحث عن المعنى الذي يبدو أن الإنسان قد جُبل عليه. نرى جيدا أن كل العلوم (إنسانية أو غير إنَسانية)، كل المعارف (علمية أو غير علمية: كعلم الفلك وعلم التنجيم) هي علوم تسعى للبحث عن الدلالة، عن المعنى، عن "طريقة سير" ذواتنا وسير العالم الخارجي: سنرى فيما بعد ما يميز علوم اللسان والسيميائية، على الخصوص، عن حقول البحث الأخرى.

لنحدد قبلا أن ليس للسيميائية موضوع بحث إلا الأشكال التي يتجلى عبرها المعنى. إذا كان كل شيء في العالم علامة، فهو (في الحقيقة) أكثر من ذلك: إن "جرحا" ما، على سبيل المثال، يمكن أن نؤوله كألم يعانيه من أصيب به، لكنه، في ذات الوقت، أكثر بكثير من عَرَض، مثلما تشهد به الرعاية الطبية التي يجب أن نحيط بها هذا الجرح على المستوى الفسيولوجي، حتى نتجنب كل مضاعفة للضرر، وذلك بمعزل عن الألم. ذلك الضرر الذي يمكن أن يكون أكثر خطورة من حيث النتائج من الألم الذي يشعر به المصاب مؤقتا.

٧- يتعلق الأمر بشريط مرسوم خال من الفقاعات الحوارية أو المربعات الوصفية. (المترجم)

إن السيميائية التي تهدف إلى (معاينة) العلامات، لا تبدِ موقفا من حقيقة الأشياء المتعلقة بالإنسان وعالمه ولا من طبيعتها **وجوهرها** وأصلها ومآلها: كل ذلك من شأن علوم المادة والطبيعة والحياة والإنسان أيضا (علم النفس، علم الاجتماع، التاريخ، الاقتصاد.. الخ). وحتى نعود إلى مثالنا السابق، من الواضح أنه إذا كان "الجرح" الظاهر هو بالنسبة للمريض متعلقا بالدال، وإذا كان "الألم" الذي يشعر به هو من قبيل المدلول، فإن السيميائية لا تستطيع أن تحدد وبشكل جوهري ما «الألم». على الأكثر، ستقابله باللذة، من حيث سلبيته وإيجابيتها (وفقا للقيم والتصورات والأفكار المسبقة السائدة)، وبالاعتماد على مفهوم **الانفعال** (الذي يتمفصل وفقا للثنائية انبساط مقابل انقباض)، كما أوردناه سابقا.

وعموما ليس من شأن علوم اللسان أن تبدي رأيها، على سبيل المثال، في مجال علم الوجود (أنطولوجيا) الذي هو من اختصاص الفلسفة، أو علوم الحياة أو الطبيعة..الخ. على الأكثر، يمكنها أن تشير إلى **المرجع**، أي إلى الحقيقة خارج اللسانية أو خارج السيميائية التي يمكن أن يحيل إليها خطاب ما أو على العموم لغة ما، في شكل واقعي (مثل: السيرة الذاتية، الفيلم الوثائقي)، أو متخيل (رواية، رسم، الخ).

سِمات
S e m a t

التداولية قبل أوستين
واقع أم تهيؤ؟

بريجيت نرليش ودافيد د. كلارك
ترجمة: أ. حافظ إسماعيلي علوي
جامعة قطر – قطر

hafid.ismaili@qu.edu.qa

Received: 01 Mar. 2014,
Revised: 01 Apr.. 2013, Accepted: 30 Apr. 2014
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

التداولية قبل أوستين:
واقع أم تهيؤ؟

بريجيت نرليش ودافيد د. كلارك
ترجمة : أ. حافظ إسماعيلي علوي
جامعة قطر – قطر

الملخّص

ظهرت التداولية، باعتبارها فرعا من فروع البحث اللساني، خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، عندما انخرط أوستين في البحث عن تصور جديد للمعنى في سياق الأفعال الإنسانية. ومع ذلك كانت هناك تداولية قبل التداولية؛ إنها تداولية تبحث في المعنى بالإحالة على الوضعية التي ينتج بها هذا المعنى عبر اللغة، وبالإحالة على بناء المعنى في التفاعل اللساني، وبالإحالة على الأفعال الإنسانية عموما، وبشكل خاص بالإحالة على الأهداف التي نود تحقيقها في هذا التفاعل. سوف نقدم حالات ممثلة لنظريات التداولية البدئية من خلال برناردي، وريد، وذيبولت، وأيضا من خلال بعض التداوليين قبل ظهور التداولية كفغينر، وغاردنر، وبولهان.

الكلمات المفتاحية: تاريخ اللسانيات، التداولية، فعل الكلام، السياق، الذاتية، القرن التاسع عشر، برناردي، ريد، وذيبولت، فغينر، وغاردنر، وبولهان.

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

Pragmatics Lefore Austin:
Fact or Fantasy?

Brigitte Nerlich David D. Clarke
Traduction: Prof. Hafid Ismaili Alaoui
Qatar university – Qatar

Abstract

Pragmatics as a field of linguistic inquiry was born in the 1930s when Austin began to think about a new conception of meaning in the context of human action. However, there was a pragmatics before pragmatics, that is, a reflection on meaning with reference to the situation in which meaning is produced via language, with reference to the construction of meaning in the situation of linguistic interaction, with reference to human action in general, and in particular with reference to the goals we want to achieve in this interaction. We shall present a representative sample of such theories as proposed by the protopragmatists Bernhardi, Reid and Thiébault, and by the pragmatists avant la lettre Wegener, Gardiner and Paulhan.

Keywords: History of linguistics, Pragmatics, Speech Act, Context, Subjectivity Europe, 19th century, Bernhardi, A.F, Reid, T, Thébault, D. Wegener, P. Paulhan, F. Gardiner, A. H.

التداولية قبل أوستين:
واقع أم تهيؤ؟

بريجيت نرليش ودافيد د. كلارك
ترجمة : أ. حافظ إسماعيلي علوي
جامعة قطر – قطر

١. مقدمة:

تُعنى التداوليات بدراسة الأفعال اللغوية، واستعمال اللغة في السياق والخطاب. وعموما، تظل التداوليات تخصُّصا معرفيا ناشئا. لكن عندما ننظر إلى التداوليات عن قرب، ندرك أنها تمتح من تقاليد شتَّى، تضرب بجذور عميقة في البلاغة، وعلم النفس، وفلسفة القانون، إلى جانب تخصصات أخرى.

وسنقدم في هذا المقال لمحة عامَّة عن التداوليات في أوربا خلال القرن التاسع عشر، من خلال إعادة رسم مسار ثلاثة تيارات كبرى، شكّلت الفكر التداولي الأوربي، وهي: الفرع الفرنسي الذي يدرس سمات الذاتيّة في الكلام، والفرع الألماني الذي يدرس السمات الحوارية في اللغة، علاوة على وظيفة اللغة التي تحدد التأثير في الآخرين، وأخيرا الفرع الإنجليزي، الذي انشغل، ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر، بتحليل الأفعال اللغوية، بوصفها عمليات اجتماعية. ويمكن أن نضيف إلى هذه التقاليد الثلاث، ذات الجذور الأوربية، تقليدا رابعا، يتعلق الأمر بالنسخة الأمريكية للتداولية المنبثقة عن الذرائعية *(pragmatisme)*، ولكننا لن نتحدث عنها في سياق هذا المقال.

أربعة تقاليد كبرى:

التقاليد الأنكلوساكسونية:

أوستين *(Austin)*، وسورل *(Searle)*، وغرايس *(Greice)*، وسبيربر *(Sperber)* /ويلسون *(Wilson)*...

السياقية والوظيفية البريطانية.

التقليد الجرماني:

هابرماس *(Habermas)*، وآبل *(Apel)*...

التقليد الفرنسي:

بنفنيست *(Benveniste)*، وديكرو (Ducrot)، وريكاناتي *(Recanati)*.

التقليد الأمريكي:

بورس *(Peirce)*، وموريس *(Morris)*...

لقد استعملت هذه التقاليد جميعها بعض الكلمات المفاتيح لتبلور نسخها الخاصة من «التداولية» *Pragmatique*، وهذه الكلمات المفاتيح مجتمعة هي التي تحدّد الحقول المتعددة والمتغيرة، ولكن المترابطة، للبحث في المظاهر التداولية للغة.

الكلمات المفاتيح:

التقليد الأنجلوأمريكي:

(الفعل الكلامي) *act Speech*، (المعنى) *meaning*، (الاستعمال) *use*، (القصد) *intention*، (السياق) *context*، (الوظيفة) *function*، (التداولية) *pragmatic*، (الإنجازية) performatif.

التقليد الجرماني:

(الفاعل الترنسدانتالي) (المتسامي)*Subjekt transzendentales*، (الحوار) *dialog*، (الضمائر) *Prononem*، (الفعل الكلامي) *Sprechakt*، (العمل الكلامي) *Sprechhandlung*.

التقليد الفرنسي:

(الذاتية) *Subjectivité*، (سمات الذاتية) *subjectivité de marqueurs*، (التحيين) *actualisation*، (التأشيرية) *indexicalite*، (القول والفعل) *faire et dire*، (الفعل الكلامي/الفعل اللغوي) *(acte de parole/ langage)*.

التقليد الأمريكي:

(الذرائعية) *pragmatism*، (الدلالة) *meaning*، (الفعل) *action*، (السلوك) *behaviour*، (المؤوّل) *interpreting*، (السيميوزيس) *semiosis*.

تجد هذه التقاليد وكلماتها المفاتيح جذورها في فلسفات اللُّغة المختلفة، كما أنها تأثّرت ببعضها البعض.

الجذور التاريخية وتيارات التأثير:

التقاليد الأنجلوساكسونية:

لنظرية الأفعال اللغوية:

- جذور في مؤلف هوبز *(Hobbes)* وريد *(Reid)*، ولكن لا يتم الإحالة عليها،
- جذور مباشرة في مؤلف فريجه *(Frege)*، وأعمال بريتشار *(Pritchard)*،
- لها جذور في تعارضها مع الوضعية المنطقية،
- لم يكن لها اتصال بما سيأتي.

السياقية والوظيفية البريطانية:

لها جذور في أعمال سمارت *(Smart)*، وويلبي *(Welby)*، ومالينوفسكي (*Malinowwski*)،

تأثرت بالتقليد الأمريكي من خلال المراسلات بين بورس *(Peirce)* وويلبي *(Welby)*،

تأثرت بالتداولية الألمانية من خلال أعمال فيجنر *(Wegener)* وبوهلر *(Bühler)*.

التقليد الجرماني:

التداولية الترنسدانتالية [المتسامية] والكونيّة :

لها جذور معترف بها في مؤلفات التداولية البدئية *protopragmatique* لكانط *(Kant)* وبوهلر *(Bühler)*،

تأثرت بنظرية الأفعال اللغوية منذ *1970*م،

تأثرت بالذرائعية الأمريكية منذ قراءة آبل *(Apel)* لبورس *(Peirce)*.

التقليد الفرنسي:

نظرية فعل القول:

لها جذور معلنة في تراث التداولية البدئية التي تمتد من لوك *(Locke)* وكوندياك *(Condillac)* وصولا إلى بنفنيست *(Benveniste)*، مرورا ببريال *(Breal)* وبالي (*Bally*)،

- تأثرت بنظرية الأفعال اللغوية منذ *1958*م.
- تأثرت بالنفعية الأمريكية منذ قراءة ياكوبسون *(Jakobson)* وبنفنيست *(Benveniste)* لبورس *(Peirce)* وموريس *(Morris)*.

التقليد الأمريكي:

الذرائعية/التداولية باعتبارها جزءا من السيميوطيقا *(Semiotique)*:

لها جذور في نظرية القرون الوسطى للعلامات، وسيميوطيقا لوك *(Locke)*، وفلسفة كانط *(Kant)*.

هذه التقاليد «التداولية» (وأخرى غيرها)، دُرست منذ انبثاق تداولية أوستين الرسمية؛ يعني منذ سنة ١٩٧٠م (انظر برونورث *(Braunroth)* وآخرين ١٩٧٨م؛ شليبن- لانج *(Schlieben- Lange)* ١٩٧٩)، نرليش (*Nerlich 1984. 1986م*)، ولكن لم تأخذ التأملات حول «تاريخ» التداولية مسارها الحقيقي إلا في سنة ١٩٩٠م[1]. إن المفارقات التي يمكن أن تواجهنا عندما نريد كتابة «تاريخ التداولية» قد اكتشفت في الماضي القريب (انظر: نرليش وكلارك ١٩٩٨، أورو ١٩٩٨).

١- انظر ضمن آخرين:
Schuhmann et Smith 1990; Biletzki 1996; Nerlich 1996; Nerlich et Clarke 1994, 1995, 1996; Verschueren et al, 1995; Posner et al., 1998; Seuren 1998; les articles d› Auroux, Larcher, Rosier-Catach et Tollis dans Histoire Épistémologie Langage XX/I, 1998; Noordegraaf et Vonk.

ونقترح هنا نظرة عامة عن بعض التطورات الأساسية للتقاليد الأوربية الثلاث. ولمن يودّ التوسع أكثر، فإننا سنذيل المقال بملحق ببعض الاستشهادات المهمة (وهي، من طبيعة الحال، اختيارات ذاتية بالأساس).

٢. نماذج عن تداوليّة ما قبل التداوليّة؟

إن مصدر الأفكار التداولية في ألمانيا هو الفلسفة الترنسدانتالية والهرمينوطيقا، والجدل بين الذات والموضوع، الذي عوَّضه الجدل بين الذات والمستمع. وفي إنجلترا، شكلت فلسفة الحسّ المشترك *(la philosophie du sens commun)*، ونقد تصورات لوك حول فلسفة اللغة مصادر للأفكار التداولية. فتصور الكلمات باعتبارها ممثلا للأفكار والأشياء، استُعيض عنه بنظرية الأفعال اللغوية باعتبارها عمليات اجتماعية في السياق. أما الأفكار التداولية في فرنسا فقد انبثقت من نقد المذهبيّين من جهة، ومن الموضوعات التي يؤثرها المذهبيّون ومُشايعوهم من جهة أخرى؛ لنذكر على سبيل المثال وصف الوسائل التي من خلالها يتم إدخال العلامات اللغويّة الافتراضية حيّز الإنجاز، ووصف النقاش المتمحور حول رتبة الكلمات في الجملة.

لقد حاولنا في كتابنا «اللغة، الفعل والسياق» (نرليش وكلارك *1996*)، إعادة بناء هذه العناصر حول التفكير التداولي قبل أوستين. وفي هذا المقال سنحلل بعض الحالات التي يمكن أن تكون مقبولة كنظريات تداولية قبل التداولية، وبإمكان القارئ أن يحكم ما إذا كان الأمر يتعلق هنا، فعلا، بحقائق أم بأوهام.

١.٢. برناردي *(Bernhardi)* وفيغنر *(Wegener)*:

يعتبر معظم لسانيي القرن التاسع عشر الألمان اللغة بمثابة جسم *(organisme)* مستقل؛ لذلك لم يهتموا قط بعناصرها التداولية. غير أن أشياع فلسفتي كانط *(Kant)* ولوك *(Locke)*، واصلا ممارسة التأثير في فلسفة اللغة التي كانت تحيا على هامش اللسانيات التاريخية والمقارنة. إن المفهومين الأكثر أهمية اللذين أدمجهما كانط *(Kant)* ولوك *(Locke)* قد كانا، على التوالي، مفهوم العمل الاختياري والتلقائي للذات المفكرة، ومفهوم الفعل الاختياري والسيميائي للذات الدالة. وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، درس جوهان سيفيرين فاتر *(Johann Severin Vater)* النشاط السيميائي بشكل خاص، ودرس أوغست فردينان برناردي *(August Ferdinand Bernhardi.)* النشاط الترنسدانتالي. فكل منهما كتب مؤلفه على هامش فلسفة للغة أغرقتها الأعمال المنجزة التي كتبت في إطار التقليد المهيمن للسانيات التاريخية والمقارنة.

لقد أقام فاتر *(Vater)* تمييزا بين اللغة بوصفها وسيلة للتواصل، والكلام باعتباره فعلا للتواصل وللتمثيل والدلالة (فاتر، ١٨٠١، ١٣٦). ومرَّة أخرى سنجد هذا التصور للكلام باعتباره فعلا دلاليّا قصديا أو *(Bedeutungsverleihung)* عند هومبولت *(Humboldt)* (وبعد ذلك عند هوسرل *(Husserl)* وبوهلر *(Bühler)*؛ فاعتبار الكلام تمثيلا أو تصوّرا *(Darstellung)*، على العكس من ذلك، يعتبر إرثا عن الفلسفة الكانطية، التي أعاد صياغتها روث وبرناردي على نحو جديد *(Roth et Bernhardi)* (انظر نرليش ١٩٩٨).

فقد نشر برناردي مؤلفه «النحو» *(Sprachlehre)* خلال الفترة نفسها التي نشر فيها فاتر *(Vater)* كتابه؛ فاللغة بالنسبة إليه هو أيضا، هي ملكة تمثيل *(darstellen)* تمثلاتنا *(Vorstellungen)* من خلال أصوات منطوقة (برناردي، *1801*، ص*16*). ومع ذلك فإن التمثيل ليس ذاتيا صرفا، إنه نوع من التذاوت، ومن الحوارية، فالفهم هنا على الدرجة نفسها من أهمية التمثيل، والتمثيل لا يكون في الحقيقة تمثيلا تاما إلا من خلال الفهم. وفي تصور برناردي فإن اللغة ليست أيضا مجرد نظام بسيط من العلامات مستعمل لتمثيل الأفكار، بل هي فعل خارجي من خلاله تُربط «دواخل» المتكلم والمستمع، إنه حدث تخاطبي *(interlocutionnel)*. فالرابط بين المتخاطبين يتم من خلال الصوت

المنطوق. يتعلق الأمر هنا، إذن، بنقل اللغة إلى كلام عبر فعل ذاتي للمتكلم، ونقل الكلام باعتباره تخاطبا إلى لغة بوصفها نظام علامات -تلك هي الأفكار التي سنجدها في النظريات التداولية البدئية الفرنسية.

كادت هذه الأفكار حول التداولية البدئية أن تُنسى تماما في ألمانيا، حين احتل التاريخ المقارن للألسن والأصوات طلائع المشهد اللساني. ولكن إرث كانط ولوك سيعاود الظهور خلال نهاية القرن التاسع عشر، في حين كان التفكير الفلسفي حول اللغة يتداخل بتفكير من طبيعة بسيكولوجية، وليس أدلّ على هذا الاتجاه مِن أعمال فيليب فيغنر *(Philipp Wegener)*.

نجد لدى فيغنر نظرية للخطاب مدرجا في المقام والسياق، وكذلك نظرية للفعل اللغوي باعتباره عملاً؛ فالأول شكّل محور كتابه الصادر سنة ١٨٨٥م «أبحاث حول المسائل الأساسيّة في حياة اللغة» *(Untersuchungen tiber die Grundfragen des Sprachlebens)*، والأخير هو موضوع مقال نشر سنة (*1921*م) بعد وفاته، حول الجملة- الكلمة. وقد بنيت هذه النظريات للإجابة عن سؤالين جوهريين هما:

١) ما وظيفة اللغة؟

٢) كيف نفهم اللغة؟

بالنسبة إلى فيغنر فإن وظيفة اللغة ليست هي التعبير عن الأفكار أو تمثيلها، ولكن هي التأثير في الآخر، والحصول على وَقع فيه، ما دامت اللغة تستمد منبع وجودها فلسفيًّا وأنطولوجيًّا من الآثار التي تُحدثها في المتلقي. فالوظيفة اللسانية تصبح شكلا، وهذا موضوع سنلفيه لدى بريال *(Bréal)*. سنجد إذن، المتكلم والمستمع، والهدف من الكلام، كما هو الحال عند فاتر *(Vater)*، لكن فيغنر يركز أكثر على المقام والسياق. بحيث يمكن للمستمع أن يفهم ما يقوله له المتكلم (ويكون ذلك أحيانا بشكل ضمني) فقط ضمن سياق لساني ومعرفي وغير لساني *(extra-linguistique)* مركّب فحسب.

ومرة أخرى يقول فيغنر إنه من هنا تبرز اللغة. إنها ليست نظاما قارًّا من العلامات لتمثيل الواقع، بل هي نظام من العلامات في تطور دائم، يمتح من هذا الواقع، ويشكل جزءا من لغة الاستدلالات *(Inferences)* المرتكزة على التأويل السياقي (انظر فيغنر، ١٨٨٥/١٩٩١، ٦٦-٦٧).

إن تصور فيغنر للغة هو تصور سياقي إذن، لكنه أيضا تصور وظيفي وتداولي. فهو تداولي لأن الوحدة المعتمدة في التحليل هي الفعل اللغوي الذي يعد فعلا قصديا يتوخى هدفا ما. وفي سنة ١٩٢١م تحدث فيغنر أيضا عن الفعل اللغوي القصدي.

وقد حلل فيغنر في كتابه «أبحاث» (*Untersuchungen*) فعل الأمر باعتباره فعل اللغة الأساس، وفعل ترويض لساني. ففعل القول عنده هو أمر أو تعليمات موجَّهة إلى مستمع لاستحضار وضعية ما، وتعد كل كلمة أمرا *(Imperatif)* جديدا. إن طلب فهم جملة معينة، والعمل الاستنتاجي للمستمع الذي يدرك معناها، يصيران من خلال التكرار عملية طقوسية، وبذلك يصبح الفهم عملية آلية (فيغنر ١٨٨٥، ص١٠٠).

ولنمض الآن إلى الأمر باعتباره كذلك، فجملة: «جعة!» *(Une bierre)* على سبيل المثال. (فيغنر *1921,150*). كيف يمكن أن نفهم هذا الملفوظ كأمر بإحضار جعة؟ فمفاتيح الفهم ليست ماثلة في هذه الجملة- الكلمة نفسها (باستثناء التنغيم)، إنها ماثلة خارج الجملة، في المقام النمطي داخل الحانة، حتى في النطق بهذه الكلمة معزولة، وتهييء المستمع (النادل مثلا) لسماع جملة ما في مقام كهذا.

ينظر فيغنر إلى اللغة إذن، باعتبارها ممارسة اجتماعية في سياق، ويتبنى الفعل اللغوي كموضوع أساس في اللسانيات، وهي مقاربة كانت وراء ظهور أعمال أخرى في ألمانيا، كأعمال مارتي *(Marty)* وبوهلر *(Bühler)*، وتبناها في إنجلترا الأنثروبولوجي مالينوفسكي *(Malinowski)*، وعالم الآثار المصرية غاردنر *(Gardiner)*، واللساني فيرث *(Firth)*.

٢. ٢. ريد *(Reid)* وغاردنر *(Gardiner)*:

يمكن أن نجد بدايات للتفكير في البحث السياقي والعاملي *(Actantiel)* في اللغة في مؤلفات الفلاسفة السكوتلانديين حوالي القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر. فنقطة البداية هي فلسفة الحس المشترك عند توماس ريد، الذي كان له أيضا تأثير حاسم في فرنسا بإلهامه فلاسفة الاستعراش *(Restauration)* ككوزان *(Cousin)* وجوفروي *(Jouffroy)*، وإثارة تحليل أولي للأفعال اللغوية عند غارنيي (*Garnier*). وفي إنجلترا، ستفضي هذه الفلسفة إلى تفكير حول اللغة في السياق وفي الاستعمال عند ستيوارت *(Stewart)* وسمارت *(Smart)*. ومن المحتمل جدا أن تكون فلسفة الحس المشترك هذه قد ألهمت أيضا، فلسفة القانون والوعد كفعل لغوي لدى أدولف رايناخ *(Adolf Reinach)*، الذي اشتغل في ألمانيا تحت تأثير كل من مارتي *(Marty)*، وفريجه *(Frege)* وهوسرل *(Husserl)*.

وفي محاولاته حول القوى الفكرية للإنسان (*1785/1872*م)، انتقد ريد التصور الأرسطي، الذي بموجبه يكون نوع الجملة الوحيد القابل لأنْ يحلَّل فلسفيا هو الحكم. فبالنسبة إليه هناك أنواع أخرى من الجمل يمكن أن نعالجها بالكيفية نفسها (ليس فقط في الخطابة) مثل الوعود، والتنبيهات، والاعتذارات، وخلافا «للعمليات المنعزلة» للعقل مثل الحكم، يطلق عليها اسم "العمليات الاجتماعية" أو "الأفعال الاجتماعية" نظرا إلى أنها دائما موجهة نحو الآخر. وهي أبعد ما تكون عن الأفعال الذهنية الثانوية، فهذه الأفعال الاجتماعية تحظى بالأولوية، بينما الأفعال المنعزلة متفرعة عنها. نلاحظ هنا ما يمكن أن نسميه مبدأ الأولوية التداولية. فاللغة، ليست بالأساس تعبيرا عن الفكر، بل هي تعبير عن إرادة موجهة نحو تحقق الفهم عند الآخرين. وجدير بالإشارة أن هناك أفعالا للغة، كالوعد، تتوقف الدلالة، بل ووجودها نفسه، على إدراكها *Uptake* من الآخر.

لقد كانت فلسفة اللغة لريد *(Reid)* معروفة جدا في إنجلترا، وخصوصا في كامبريدج، حيث قرأ عالما النفس ستوت *(Stout)* ووارد *(Ward)* أعمال ريد، مثلما قرآ أعمال راسل *(Russell)* ومور *(Moore)*، وربما فيتجنشتاين *(Wittgenstein)*. كما قرأه أيضا غرايس *(Grice)* في أوكسفورد، ومن المحتمل جدا أن يكون أوستين على معرفة به أيضا. إن نظرية الوعد، التي ناقشها ريد جاءت من هيوم *(Hume)*، وكانت مألوفة أيضا عند أوستين، لكنه تعرف عليه من خلال مؤلف زميله هارلود آرثر بريتشارد *(Harold Arthur Pritchard)* الذي حلل هذه القضايا خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، التي كان على علم بها.

من جهة أخرى، وُجد أيضا تراث «**لساني**» للتفكير التداولي في إنجلترا. في هذا التراث، شأنه شأن التراثين الألماني والفرنسي، فإننا لا نعالج التقابل بين الإخبار والوعد، أكثر مما نعالج التباين الحاصل بين الإخبار والأمر. وفي هذه الحالة فإن تأثير فغينر كان مهما في تقدم الوظيفية والسياقية *[*النهج السياقي*]* الإنجليزية.

لقد أهدى السيد ألان غاردنر *(Alan Henderson Gardiner)*، عالم الآثار المصرية كتابه المشهور حول «**نظرية الكلام واللغة**» *(The Theory of Speech and Language)* *1932*م) إلى فغينر، لكنه كان على اطلاع أيضا على مؤلفات بوهلر *(Bühler)* وسوسير *(Saussure)*. فقد تقاسم مع بوهلر وجهة النظر التي مفادها أن التمييز بين اللغة والكلام الذي قام به سوسير يحتاج إلى أن يترسخ في نظرية تداولية- سيميائية للغة.

ومباشرة بعد نشر المقال المهم لفغينر حول الجملة- الكلمة، نشر غاردنر سنة *1922*م مقالا حول «الكلمة والجملة». ميَّز فيه تمييزا جوهريا بين الكلمة بوصفها وحدة لسانية (التعيين)، والجملة بوصفها وحدة للخطاب (اختيار قصدي *Volition*) *[*انظر دواي *Douay, 1984*، ص٥٠٧*]*، ولكنه تحدث فيه أيضا عن واقعة لسانية أخرى، أراد وصفها، يتعلق الأمر بفعل اللغة. إنه بيت القصيد في كتابه الذي نشر عشر سنوات بعد ذلك.

فبفضل الفعل اللغوي، سواء أكان اجتماعيا أم فرديا، تصبح اللغة كلاما. وفي كتابه الصادر سنة *1932*م، يتجاوز غاردنر سوسير، إذن، ويتقدم في الاتجاه نفسه شأنه في ذلك شأن منظري فعل القول في فرنسا، من بالي، إلى بنفنيست وريكور *(Ricoeur)*.

المثال النمطي عن فعل الخطاب بالنسبة إليه هو القول *«Il pleut»*. فإذا كان اللسان نسقا من الرموز، فإن الكلام هو «نشاط إنساني يتطلب على الأقل وجود شخصين يمتلكان اللسان نفسه، ويوجدان في المقام نفسه» (غاردنر ١٩٣٢/ ١٩٥١، ص٧، الترجمة الفرنسية، ١٩٨٩م، ص١٣). نجد هنا العوامل الأربعة **للنموذج الأداتي** *(Organonmodell)* لبوهلر، الذي يحيل عليه غاردنر بشكل صريح. ولكن هناك أيضا تشابهات بين غاردنر وأب نظرية فعل القول الفرنسي بنفنيست. بالنسبة إلى غاردنر فإن الفعل الكلامي، إذا جاز استعمالنا لمصطلحات بنفنيست، هو فعل فردي ذو بعد اجتماعي. فالمبادرة تكون من المتكلم، وإن كان المستمع معنيا أيضا "فدوره فاعل وإبداعي في مستوى فاعلية المتكلم" *(Douay, préface à Gardiner 1989, VU)*.

"فالخطاب إذن، بحسب غاردنر، هو إنتاج مشترك؛ وسيرورة دينامية ترتكز على تفاعل دائم بين المتكلم والمستمع" (نفسه). ثم أقام غاردنر اختلافا بين المعنى والدلالة أو الشيء المدلول، الذي يقارن اعتمادا على تمييز بنفنيست بين المعنى والدلالة. يطرح أيضا، تمييزا بين الشكل والوظيفة. فالكلمة باعتبارها شكلا لا يمكن أن تعمل، بمعنى تتحمل قوة إنجازية، إلا داخل فعل خطابي يتميز بأن له هدفا معقولا. وتوجد، بحسب غاردنر، أربعة أهداف تناظرها أربعة أنواع من الجمل: تعجب، استفهم، أمر، وأكد. هذه الأنواع الثلاثة من الجمل تقارن بثلاث وظائف في اللغة ميزها بوهلر لمعرفة التمثيل، والتعبير، والمناداة.

إن الفعل الخطابي، إذن، يتمتع بكل السمات المحددة للفعل. وبما أن كل فعل يمكن أن يتحقق بطرائق قِدَدا، فإن فعل اللغة يمكن أن يتحقق بأوجه مختلفة أيضا. يمكن أن نعبر عن نزول المطر بواسطة جمل مختلفة، كأن نقول: "السماء تمطر"، أو "آه! المطر" إلخ. فشكل العبارة يختلف، لكن الوظيفة تبقى هي نفسها. ولكن يمكن أن توجد أيضا أفعال للقول تتنوع فيها القوة التخاطبية، ويبقى المحتوى القضوي هو نفسه: "السماء تمطر"، "هل تمطر؟". لقد اهتدى غاردنر مبكرا إلى الفرق بين المحتوى القضوي والقوة التخاطبية. فهاتان السمتان تميزان كل فعل لغوي لم يُعد أوستين اكتشافه من جديد إلا عبر التفاف ما؛ يتعلق الأمر بتفرع لفعل القول التقريري، وفعل القول الإنجازي.

ومع أن غاردنر قد عرف راسل *(Russell)* وريل *(Ryle)*، فإن تأثيره في فلسفة اللغة العادية، وتأثيرها فيه قد كان تأثيرا ضعيفا. ولم يعرف غاردنر فيتجنشتاين *(Wittgenstein)* معرفة مباشرة، ولا يبدو أنه عرف أوستين. وقد ثمَّن أوستين بدوره تمييز غاردنر بين اللغة والكلام، ومع ذلك ظل لا يرى فيه إلا فيلسوفا عاديا (انظر الملاحظات في مخطوطة كتاب كيف نفكر بالكلمات، بودلاين، أكسفورد، المجلد الثاني، ص١٦). لقد تجاهل، إذن، أن تكون مصادر التداولية قد بدأت مع كتاب **الكلام واللغة**، وقد كان عنوانه الفرعي «**أصول التداوليّة**» في ترجمته الفرنسية).

٢.٣. ذيبولت وبولهام *(Thiébault et Paulhan)*:

حللت بريجيت شليبن لانج *(Brigitte Schlieben-Lange)* في مقالها الصادر سنة *1989*م حول عناصر النظرية التداولية في الأنحاء العامة حوالي *1800*م، –مؤلفات سيكارد *(Sicard)*، وساسي *(Sacy)*، وتيبو *(Thiébault)* ودستوت دي تراسي *(Destutt de Tracy)*، وقارنتها بمؤلفات برناردي *(Bernhardi)* وهومبولت *(Humboldt)*.

إن الجامع بين هومبولت وبرناردي والمذهبيين *(les idéologues)* هو المكانة المركزية التي أسندت إلى الذات، والتي تحظى بحساسية عند المذهبيين، الذات المبدعة والمتعالية عند هومبولت. فتحليل

الذات في اللغة انطلاقا من بريال *(Bréal)* إلى بنفنيست *(Benveniste)*، وبشكل خاص تحليل إشاريات (مؤشّرات) هذه الذات (كالضمائر عند تيبو *(Thiébault)*، مثلا) في اللغة، شكلت مركز الدراسات التداولية في فرنسا (انظر اقتباس تيبو *(Thiébault)* الطويل في الملحق).

تبنى وجهة النظر هذه أيضا، بولهان *(Paulhan)* وليروي *(Leroy)* ودولاكروا *(Delacroix)* في مؤلفاتهم، وقد أسهموا جميعهم في النظرية التداولية للغة، والتي تناساها فيما بعد منظرو فعل القول من أمثال بنفنيست. لقد تجاوز بولهان دراسة الذات في اللغة من خلال تحليل الأفعال التي يمكن أن تنجزها الذات المتكلمة باللغة.

وفي سنة ١٨٨٦ نشر عالم النفس واللساني بولهان، المشتغل في إطار تقليد علم النفس الترابطي، الذي يربطه بتصور النشاط الحر للذات عند كانط، -مقالا حول «اللغة الباطنية». حلل فيه ما يطلق عليه «فعل الكلام». وعلى غرار فغينر وغاردنر فإن التكلم عند بولهان، لا يعني فقط التعبير عن الفكرة. فبولهان يهتم، على وجه الخصوص، بالعلاقة بين معنى فعل الكلام، ورد فعل المستمع؛ أي بتأثيره في المستمع، وبحسب بولهان، فإننا لا نكون واثقين بأن الآخر قد فهمنا إلا عندما نلاحظ فعله (أو ردّ فعله)، أو على الأقل نزوعا أو توجها نحو الفعل (أو ردّ الفعل)، ومثال ذلك أن يكون ردّ فعل متلقي القول :«إنها تُمطر» الذهاب للبحث عن مظلته. إن فعل القول، في سياق محدد، ليس، إذن، فقط ذا وظيفة رمزية، بل هو أيضا ذو وظيفة اجتماعية وعملية، وقد تم وصف الوظيفة المزدوجة للغة؛ أي باعتبارها أداة للتعبير والتفكير، وأداة للفعل بتفصيل في مقال نشر سنة ١٩٢٧م، وهو مقال يعالج «الوظيفة المزدوجة للغة»، وقد حلل فيه بولهان اللغة باعتبارها نظاما من العلامات، وأداة للفعل (moyen d›action1927, 22). وتضاف إلى هاتين الوظيفتين، وظيفة ثالثة هي الوظيفة الإيحائية.

وتطابق وظائف اللغة هذه أدوار مختلفة يمكن للغة أن تؤديها في المجتمع؛ فاللغة-العلامة، تصلح لتوحيد العالم الروحي للجماعة، بينما تصلح اللغة- أداة للفعل *Le langage-moyen d'action* وقائعَ جديدةً، مغيرة بذلك العلاقة بين المتكلم والعالم والمستمع. فالأمر، على سبيل المثال، يُوجِب على المستمع إنجاز فعل، وعلى تغيير العالَم *(Paulhan 1927, 29)*. أما فيما يتعلق باللغة- الإيحاء فإنها تخلق التفكير، إنها الوظيفة "الشعرية" بامتياز، ولا تعتبر فيها العلامات أبدًا بدائل للواقع، وإنما هي «ذريعة (ذرائع) لابتكار أفكار جديدة وصياغتها» (ص٤٢). وإذا كانت الوظيفة الرمزية تسعى إلى أن تخلق الانسجام في المجتمع وتعمل على استقراره، فإن الوظيفة الشعرية تسعى إلى إدخال التنافر فيه ومن ثمة الاختلاف (انظر، ص٧١).

فبدل أن تصبح اللغة مجرد أداة للتعبير عن مزاجنا، تصبح وسيلة تدفع الآخر إلى التفكير، وإلى الإحساس والحركة وفق ما نريد. وبذلك فإن الكلمة لا تكون علامة، بقدر ما هي أداة فعل بينفسية واجتماعية (ص٢٢.ف).

لقد تأثر بولهان بالتحليل النفسي الاجتماعي لغابرييل تارد *(Tarde Gabriel)* (وكان تارد من جهته مطلعا على أعمال بولهان).

ويمكننا أن نسترسل هنا في عرض أفكار حول تحليل الحوار التخاطبي عند غابرييل تارد. ولكن في حدود هذا المقال، فإن مؤلفات روّاد التداولية البدئية الثلاثة، وهم برنهاردي *(Bernhardi)* وريد *(Reid)* وتيبو *(Thiébault)*، وهؤلاء التداوليون قبل ظهور التداولية هوم فيغنر وغاردنر وبولهان، نعتبرها كافية لتقديم مقترح يقضي بأن التداولية قبل التداولية ليست فقط محض توهُّم، لكنها واقعة محتملة. لقد اقتصرنا هنا على بعض القرون، وعلى بعض البلدان، وعلى اللسانيات، وعلى بعض الحقول المتاخمة كعلم النفس. ولكن هناك عناصر أخرى لتاريخ التداولية قبل التداولية يمكن أن تصدر من بلدان أخرى، وفي فترات أخرى، وضمن حقول معرفية أخرى.

ملحق

التداوليّة قبل أوستين (شواهد مختارة)

التهميش الفلسفي للأفكار التداولية:

إنَّ كل جملة دالة *[...]*، ولكن ليس كل جملة تقريرية تعدُّ جملة، فقط تلك التي تحمل الصدق أو الكذب، وليس ثمة صدق أو كذب في الجمل جميعها؛ فالدعاء جملة ولكنه لا يكون صادقا أو كاذبا قط. والبحث الحالي إنما يتعامل مع الجملة الخبرية، ونستطيع أن نغض الطرف عن الجمل الأخرى لأن محل الاهتمام بها يقع في دراسة الخطابة أو فن الشعر.

(Aristotle, De Interpretatione, 17a 1-5)

٢. إضفاء الشرعية الفلسفية على الأفكار التداولية:

التقليد الأنكلوساكسوني:

"إن الاستفهام والطلب والوعد، أعمال تقبل أن يحلل كل منها بوصفه قضية، ولكننا لم نجد أن هناك من حاول هذا، فلسنا نعطي هذه التعبيرات اسماً يختلف كثيراً عن العمليات التي تعبر عنها".

(Reid 1872 [1785], 245)

كتب ريد *(Reid)* أن أرسطو كان على حق عندما قال:

«إلى جانب ذلك النوع من الكلام المسمى «قضية»، التي هي دائماً إما صادقة أو كاذبة، نجد أنواعا أخرى لا تكون صادقة أو كاذبة مثل الدعاء والتمني، والتي يمكن أن نضيف إليها الاستفهام والطلب والوعد والعقد وقضايا أخرى كثيرة».

(Reid 1872 [1774], 692; quoted in Schuhmann & Smith 1990, 53)

"وكل هذا مختلف تماما عن أنّ (معنى الكلمة = الفكرة *BNDC*)، كلماتنا عندما تُخْتَبَر منعزلة، فإنها عادة لا تكون عديمة المعنى كالحروف التي تتكون منها؛ إذ يشتق معناها بصورة أساسية من خلال الربط أو العلاقة التي تربطها بغيرها".

(Stewart 1854-1860, V, 154-155; 1810, 209-210)

التقليد الفرنسي:

ليس بالإمكان وجود لغة دون وجود متكلم بها، أو شخص يفترض فيه أن يتكلمها: فسيكون من العبث أن نتخيل أننا نتكلم دون أن نكلم أحدا: في الأخير من المستحيل أن نتحدث بالفعل، وألا نتحدث عن شيء. إنها طبيعةُ الأشياء نفسها إذن، والضرورةُ ذاتاهما هما اللتان تضفيان على اللغة طابع *[كذا!]* المشهد المسرحي الذي نربط فيه الصلة بين ثلاث فئات من الممثلين. وهكذا فإن لنا في اللغة بالضرورة ثلاثة أدوار علينا القيام بها، ثلاثة أدوار نحس بالحاجة المطلقة إليها بمجرد الرغبة في التحدث، ثلاثة أدوار يكون من الضروري، من ثمة، قبولها والاعتراف بتمييزها في تحليل الخطاب.

(Thiébault 1802, 206-207)

تمييز الإرادة عن الأمر:

يميز ريد أيضا الإرادة عن الأمر، الذي غالبا ما نخلطه بها في اللغة العادية. فالقبطان يأمر جنوده، لكن بعبارة دقيقة فإنه لا إرادة له في هذا الأمر، بالمعنى الذي يتوجب فيه على هؤلاء الجنود تقبُّل تنفيذه. إن إعطاء الأمر يفترض: ١. احتلال الآمر منزلة أعلى من المأمور بتنفيذ الأمر. ٢. الطابع الإلزامي أو الأخلاقي للفعل المأمور به. ٣. إرادة التلفظ بالأمر واتخاذ إجراءات ضمان تنفيذه. إنه العنصر الإرادي الوحيد حقا للأمر. إذا ذكَّر جندي جنديا آخر بواجبه فإنه يكون بالفعل قد أعطاه رأيا لا أمرا، وإذا لم يطلب القبطان من الجندي خدمة عمومية، بل خدمة خاصة فإنه لا يعطيه أمرا، بل يطلب منه شيئا، وللجندي حق الامتناع عن القيام بذلك. الأمر إذن، ظاهرة مركبة جدا لا تشكل فيه الإرادة الحقة إلا جزءا. إن كلمة «أريد» في صياغة الأمر تعني «أعلن عن أن هذا الفعل إلزامي»، ولدي الصفة الكاملة للقيام بهذا التصريح، وأتلفظ بهذا الأمر على نحو إرادي، ولدي إرادة اتخاذ إجراءات إلزامك بالتنفيذ.

(Garnier 1852, I, 323-324)

التقليد الألماني:

«يمكن تعريف هذه المفاهيم *[العلامة مثلا]* من خلال وجهة النظر التالية: (١) الشخص الذي يدلل *[يستخدم العلامة]* و(٢) الذي تستخدم العلامة من أجله *[المدلَّل له]*، و(٣) الغرض من هذه الدلالة، و(٤) نجاح تبادل الغرض و(٥) العلامة، بوصفها أداة، و(٦) الشيء المدلول عليه».

(Vater 1801, 137)

اللغة بقدر ما هي تصوّر *(Darstellung)*، يمكن بالرغم من هذا مقاربتها من خلال وجهتي نظر مختلفتين؛ أولا. بوصفها تمثيلا خالصاً وحرًّا يحقق وينجز ذاته، ومن ثم فإن سمة القابلية للنقل يفترض أنها ليست ضرورية هنا، فالممثل يكتفي بذاته ويحدد تمثيله لنفسه ومن ثم للآخرين، ففي كل الأحوال، فإن الاستخدام الذي يصنعه الآخرون من هذا الأمر ذو أهمية ثانوية، أو أن نتصورها على أنها تمثيل تولده الحاجات وهو موجه إلى الآخرين ومعناها لديهم، وفي هذه الحالة يبدو التواصل سمة أساسية، فالإشارة إلى شخص مستقبل يعبر عنها بصورة أكثر أهمية، وأن يفهمها جمع محدد من المستمعين أمر ضروري.

(Bernhardi 1801, 101)

«من الأهمية بمكان في اللغة أن تلعب الثنائية دوراً أساسيا داخل اللغة قياسا إلى أي شيء آخر، فكل كلام يعتمد على التحاور *[Wechselrede]*، حرفيّا: تبادل الكلام*]* التي يفترض المتكلم من خلالها دائما وجود المخاطب كشخص يقف في مواجهته، وحتى عندما يكون أمام جمع كبير من الناس *[...]* ولعل تقسيم البشر إلى صنفين؛ أصدقاء وأعداء، هو أساس جميع الروابط الاجتماعية البدائية».

(Humboldt 1963 [1827], 137-38)

٣. التداولية قبل تسميتها:

التقليد الأمريكي:

نودُّ أن نقارب اللغة، لا من خلال وجهة النظر الخاصة بالمعاني الداخلية التي سيُعبَّر عنها، بل من خلال سياقها الأعم للتعاون بين الجماعة، تتحقق عبر الإشارات والإيماءات، فالمعاني لا تتكشف بدون هذه السيرورة.

(Mead 1934, 6)

سنسمي تداولية كامل مجال تلك البحوث التي تُدخل في اعتبارها *[...]* الفعل، والحالة، وبيئة الشخص المتكلم أو المستمع، للكلمة الألمانية *"blau"* (أزرق)، مثلا.

(Carnap 1939, 146)

ماز موريس التداولية بوصفها "علم علاقة العلامات بمؤوليها" وأنها "تتعامل مع مظاهر حيوية للسميوزيس، وهي جميع الظواهر السيكولوجية والبيولوجية والاجتماعية التي تصاحب توظيف العلامات" (موريس، *1938, 6*). علاوة على أن البنية اللغوية هي نظام من السلوك باعتبار وجهة النظر التداولية. (ص١١٠).

التقليد الألماني:

"في الكلمة- الجملة «حذائي» فإن الكلمة- الصورة الخالصة لا تعضد تمثيل الحقائق التي مفادها: (١) أن شخصاً يطلب فعلاً ما و(٢) ماذا يكون هذا الفعل؟ و(٣) من الذي يتوجب عليه تنفيذ هذا الفعل؟ كل هذا يمكن استنتاجه فقط من المقام والإشارات/ الإيماءات. فالكلمة- الصورة تستدعي تمثيل شيء محدد هو في ذهن المتكلم باعتباره شيئا".

(Wegener 1921, 9-10)

إن إعلان شخص ما عن حياته النفسية ليس هو الشيء الوحيد أو الأساس في التحدث المتعمد؛ ذلك أن ما هو مقصود بالفعل هو أكبر من مجرد التأثير أو السيطرة على الحياة النفسية الدخيلة للمستمع، فالتحدث المتعمد هو نوع من الفعل غرضه استدعاء ظاهرة نفسيّة معينة لدى الموجودات الأخرى وفي علاقته بهذا القصد يبدو الإبلاغ عن العمليات داخل النفس مجرد أثر

جانبي *(pârergon)*.

(Marty 1908, 284)

وبالنسبة إلى رايناخ *(Reinach)* فإن فعلا من قبيل «أعطى» في «أعطى الأمر»، لا يمكنه أن يوجد بوصفه فعلا، إلا عندما:

لا ينقسم إلى إنجاز ذاتي لفعل أو حالة عارضة، ولكنه يشكل وحدة داخلية للإنجاز والمنطوق المتعمد، إن التجربة هنا مستحيلة في ظل غياب المنطوق، والمنطوق بمكوناته ليس شيئا تتم إضافته كملحق عارض إضافي، فهو بالأحرى يقف لخدمة الفعل الاجتماعي في سبيل أن يحقق وظيفة الإبلاغ *[kundgebende Funktion]*. بالتأكيد ثمة عبارات عارضة تتعلق بالأفعال الاجتماعية مثل: "أعلنت طلبا" غير أن مثل هذه العبارات تتصل حينها بالفعل الاجتماعي الكلي من خلال بعدها الخارجي.

التقليد الفرنسي:

إن محتوى هذه الجمل *[في الكتب المدرسية]* يعنينا بشكل كبير؛ وغالبا ما نخطئ في اعتبارها موضوعية أكثر من اللازم، أو بعبارة أخرى أدق وصفية أكثر من اللازم، ومستقاة أكثر من خارج الحياة الواقعية للطفل. فاللغة لم توضع فقط لقول «الشمس تضيء القرية» «تصب الأنهار في البحر». بل توظف اللغة أيضا، وقبل كل ذلك، للإفصاح عن الرغبات، وصياغة الطلبات، والتعبير عن الإرادات. فمن الأفضل أن نخصص حيزا لهذا الجانب الذاتي إذا نحن أردنا أن نستميل التلميذ لاستعمال الأداة الموضوعة تحت تصرفه *[...]* ولا أحد يتحدث عن تطبيق القواعد النحوية.

(Bréal 1877, 361-362)

كي أعتبر أنّني قد فهمت الكلمتين «السماء تمطر» يكفي أن أحمل مظلتي على نحو واع أو شبه واع، في الوقت الذي أهم فيه بالخروج. إذا تصرفت على هذا النحو، يمكنني أن أقول بالفعل إنني قد فهمت الكلمتين «السماء تمطر»، حتى وإن كنت لم أربطهما أبدا بالصورتين اللتين تمثلانها.

(Paulhan 1886, 47)

بتوالي السؤال والجواب نكون قد باشرنا مقدمات حوار. لكن إذا كان السائل دائما هو نفس الشخص الذي يسأل والآخر هو الذي يجيب، فإن الاستجواب الأحادي الجانب المعني ليس تخاطبا؛ أي ليس استجوابا متبادلا، وتسلسلا وتعالقا للأسئلة والأجوبة والمعلومات والاعتراضات المتبادلة.

(Tarde 1973, 145)

يجب أن يتم بحث اللغة في جميع التنوعات الخاصة بوظائفها، وقبل مناقشة الوظيفة الشعرية لابد أن نحدد موقعها من وظائف اللغة الأخرى، إن بيان تلك الوظائف يتطلب إيضاحا مختصرا لجميع العوامل الفاعلة في أي حدث لغوي وفي فعل التواصل اللفظي.

(Jakobson 1960, 353; 1987, 66 الكلمات بخط مائل منا*)*

الآن "أقسمُ" هي صورة لقيمة مميزة يتموضع فيها واقع القسم على الشخص الناطق (أنا)، إن هذا المنطوق هو أداء [وليس إنجازا] ف "يقسم" تتكون تحديدا من المنطوق "أقسمُ" الذي تتقيد به الأنا، إن المنطوق "أقسم" هو فعل يلزمني تماما وليس وصفا للفعل الذي أشكله، فبقولي: أعد، أضمن. أصنع بالفعل وعدا وضمانا [...] فيتحدد المنطوق بالحقيقة عينها، ولكن هذا الشرط ليس مستفادا من معنى الفعل، إن موضوعية الخطاب هي ما تجعله ممكناً.

(Benveniste 1966 [1958], 265; Engl. transi.1971, 229)

التقليد الإنجليزي:

سأغامر بصورة لافتة كي أبين أن اهتمامي ليس منصبا على ما يسمى «معنى» كل ما «يثبت إدراكه وفهمه» ولكن على تحليل الفكرة التي نطلق عليها بالإنجليزية، للأسف، المصطلح «معنى»، إنه في الحقيقة قصد وغرض وهدف وموضوع، وربما يكون دافعا، لذا حينما أستخدم رمزا ما أقصد

أن تفهم ما يشير إليه، أقصد إلى إيصال بعض التصورات أو المفاهيم أو معرفة خاصة ببعض الحقائق، فالعلامات والرموز لا «تعني» إنها ترمز وتشير، فقط من يستخدمها يستطيع أن يعني بها شيئا آخر.

(Welby, February 4, 1904; voir Noordegraaf 1991, 288)

التكلم، بالنسبة إلى مالينوفسكي هو «شكل من أشكال الفعل» والتعاون. فللغة في الجوهر طابع تداولي (ص٣١٦).

تستعمل الكلمة حين تكون قادرة على إنتاج فعل وليس على وصفه، وبصفة أقل على ترجمة الفكر.

(Malinowski 1923, 322)

إن الكلمة تعني إلى المتحدث الأصلي الاستخدام الشائع للشيء الذي تشير إليه. (ص*321*).

إن اللغة كما أطمح أن تراها تدرس عاملا اجتماعيا لا ينفصل عن البيئة التي تعطي دافعه، ولا ينفصل عن المستمع الذي يبرهن بفعل أو باستجابة لفظية على توظيفه العملي، إنها آليّة لتوصيل الفكر فهي ليست نظيره أو روحه.

(Gardiner ,1919 ,5)

ثمة محاولة فجة لوصف فعل كلامي وحيدٍ وتحليله قدمت في ورقة خاصة بي لم تلق قبولاً عندما عرضت للنشر، وبمناشدة د.راسل *Russell* الذي كان متعاونا ليعبر عن رأي مفاده أن محتوياتها يمكن أن تكون نواة مناسبة لكتاب.

(Gardiner 1951, [1932])

٤. الفلسفة تعيد اكتشاف التداولية:

بينما يمكن للوعد أن يكون إما عن يقين جيد أو غير جيدٍ، فإنه لا يسمح الجميع بأن يكون الوعد إما صادقا أو كاذبا، علاوة على أنهم يصرون على أن الوعد يشبه طرح سؤال أو طلب حيث يصر على تقديم تصريح، بل فعل شيء معين بالمعنى الذي يجعلنا نضع الفعل في مقابل مجرد التكلم.

(Prichard 1949, 171)

هناك في جمل لغتنا الطبيعية ما وظيفته الأساس ليس وصف الأشياء أو الأحداث أو الأشخاص أو أي شيء آخر، ولا حتى التعبير عن المشاعر الطيبة والأحاسيس، ولكن لفعل أشياء مثل المطالبة بالحق (هذا لي)، أو إعطاء الحقوق حين تتم المطالبة بها (هذا لي) أو نسبة الحقوق وعزوها سواء أتمت المطالبة بها أم لا (هذا له) ونقل الحقوق (هذا لك الآن) وكذلك الاعتراف أو النسبة أو صناعة اتهامات بالمسؤولية (أنا فعلت هذا/ هو فعل هذا/ أنت فعلت هذا) فربما يكون الغرض الأساس من هذا المقال هو اقتراح أن التحليل الفلسفي لمفهوم الفعل الإنساني غير مناسب ومُربك على الأقل في جزء منه، لأن جملا من قبيل (هو فعل هذا) تم النظر إليها بصورة تقليدية على أنها وصفية بالأساس، في حين أن وظيفتها الجوهرية أجازف بتسميتها (عزوية) بمعناها الأكثر حرفية وهو عزو المسؤولية عن الأحداث، ومثلها الوظيفة الأساسية لجمل من الصورة (هذا له) فهي تعزو حقوق الملكية.

(Hart 1951 [1948], 145)

بالنسبة إلى فئة كبيرة من الحالات -وليس جلها- التي نوظف فيها الكلمة "معنى" يمكن تعريفها على النحو الآتي: معنى كلمة ما هو استخدامها داخل اللغة.

(Wittgenstein 1958, § 43)

إن صدق عبارة ما أو كذبها لا يعتمد فقط على معاني الكلمات ولكن على الفعل الذي تشكله في ظروف معينة.

(Austin 1962, 145)

٥. فلسفة اللغة تنسى تاريخ التداولية:

إن أحد الأسباب التي تجعل موضوع أفعال الكلام موضوعا ممتعا جدا، هو أنك لا تقلق بشأن ما يقوله كل أعلام الماضي العظماء، لأن معظم الفلاسفة الكبار لم تكن لديهم نظرية حول أفعال الكلام، فلن تجد، بحسب علمي، رؤية كانط حول الاعتذار أو التهنئة.

(Searle 1984, 25)

المراجع

المراجع المذكورة في الملحق:

Austin, J. L. (1962). How to Do Things with Words. The William James Lectures delivered at Harvard University in 1955, éd. Par J. O[pie] et M. Sbisà, Oxford, Oxford University Press.

BENVENISTE, E. ([1958] 1966). De la subjectivité dans le langage, «Problèmes de linguistique générale, vol. 1, 276-258, Paris, Gallimard [trad, angl., Benveniste, E. (1977), Problems in General Linguistics, trad, par M. E. Meeks, Coral Gables, Fia., University of Miami Press].

BRÉAL, M. (1877). Mélanges de mythologie et de linguistique, Paris, Hachette.

Brock, J.E. (1981). «An Introduction to Peirce's Theory of Speech Acts», Transactions of the Charles S. Peirce Society 17, 319-326.

BUHLER, K. (1932). «Das Ganze der Sprachtheorie, ihr Aufbau und ihre Teile», Kafka, G. (éd.), Bericht tiber den XII. Kongress der Deutschen Gesellschaft fur Psychologie in Hamburg vom 12.-16. April 1931, 95-122, Jena, Fischer.

Carnap, R. (1939). Foundations of Logic and Mathematics, Chicago and London, University of Chicago Press [=International Encyclopedia of Unified Science, vol. 1, n\ 3].

Gardiner, A. H. (Sir) (1919). «Some Thoughts on the Subject of Language», Man 2, 2-6.

Garnier, A. (1852). Traité des facultés de l'âme, comprenant l'histoire des principales théories psychologiques, 3 vols, Paris, Hachette.

Hart, H. L. A. ([1948] 1951). «The Ascription of Responsibility and Rights», Flew, A. (éd.), Essays on Logic and Language (First Series), 145-166, Oxford, Blackwell.

Humboldt, W. v. (1963). Werke in Fiinf Bdnden, Flitner, A. et K. Giel, K. (éds), Schriften zur Sprachphilosophie, vol. Ill, Darmstadt, Wissenschaftliche Buchgesellschaft.

Humboldt, W. v. (1963 [1827-1829]). «Ûber die Verschiedenheiten des menschlichen Sprachbaues», Humboldt, W. v. (éd.), Werke in Fiinf Bànden, vol. HI, 144-367, Darmstadt, Wissenschaftliche Buchgesellschaft.

Jakobson, R. (1960). «Closing Statement : Linguistics and Poetics», Sebeok, T.A. (éd.), Style in Language, 350-77, Cambridge, Mass., MIT Press.

Malinowksi, B. (1953 [1923]). «The Problem of Meaning in Primitive Languages», Ogden, C. K. et Richards, I. A. (éds), The Meaning of Meaning, 296-336, New York, Harcourt, Brace & Co, Inc.; London, Routledge & Kegan Paul.

Marty, A. (1908). Untersuchungen zur Grundlegung der allgemeinen Grammatik und Sprachphilosophie, vol. I, Halle a.d. S., Niemeyer.

Mead, G. H. (1934). Mind, Self, and Society, Chicago, University of Chicago Press.

Morris, C. (1938). Foundations of the Theory of Signs, Chicago, University of Chicago Press [= «Foundations of the Theory of Signs», International Encyclopedia of
Unified Science, vol. 1, n 2. Chicago, University of Chicago Press].

NoORDEGRAAF, J. (1991). «Van Eeden, Bolland en Lady Welby. Significa in het licht der Rede», Voortgang, Jaarboek voor de Neerlandistiek 12, 281-298.

PEIRCE, C. S. (1931-35). Collected Papers, Vols. 1-6, éd. par C. Hartshorne et P. Weiss, Cambridge, Mass., Harvard University Press.

PRICHARD, H. A. (1949). Moral Obligation; essays and lectures, Oxford, Clarendon.

Reid, T. (1872 [1774]). «A Brief Account of Aristotle's Logic, with Remarks», Works, vol. II.

Reinach, A. (1913). «Die apriorischen Grundlagen des biirgerlichen Rechts», Jahrbuch fier Philosophie und phanomenologische Forschung 1/2, 685-847 [trad. angl : «The Apriori Foundations of the Civil Law», par John F. Crosby, Aletheia 3, 1983, 1-142].

Searle, J. R. (1984). «Interview [with G. Heyer and D. Munch]: Von der
Sprechakttheorie zur Intentionalitàt», Information Philosophie, Janv. 1984, 24-30.

Stewart, D. (1810). Philosophical Essays, Edinburgh, Creech.

Tarde, G. (1973). Ecrits de psychologie sociale; choisis et présentés par A.M. Rocheblave-Spenlé et J. Milet («Radamanthe»), Toulouse, Edouard Privât.

Thiebault, D. (1802). Grammaire philosophique, ou la métaphysique, la logique, et la grammaire, réunies en un seul corps de doctrine, 2 vols, Paris, Courcier.

Wittgenstein, (1958). Philosophical Investigations [2e éd. revue et corrigée, 1958, Oxford, Blackwell (lre éd. 1953)].

بيبليوغرافيا (النصوص المذكورة في المقال):

AUROUX, S. (1998). «Présentation: où naît la pragmatique?», Histoire Épistémologie Langage XX/I, 93-100.

BERNHARDI, A.F. (1801). Sprachlehre. Erster Theil. Reine Sprachlehre, Berlin, Frôlich [réimpr. Hildesheim-New York,Olms, 1973].

Biletzki, A. (1991). «Richard Johnson: A Case of 18th-Century Pragmatics»,
Historiographia Linguistica 18/2-3, 281-300.

Biletzki, A. (1996). «Is there a history of pragmatics?», Journal of Pragmatics 25, 455-470.

BRAUNROTH, M. et al. (1978 [1975]). Ansdtze und Aufgaben der linguistischen Pragmatik, Frankfurt a.M., Athenaum.

DOUAY, C. (1984). «Pour une histoire des théories de renonciation: The Theory of Speech and Language de A. H. Gardiner (1932)», Auroux, S. et al., Matériaux pour une histoire des théories linguistiques. Essays toward a History of Linguistic

Theories. Materialien zu einer Geschichte cler sprachwissenschaftlichen Theorien, 505-513, Villeneuve d'Ascq, Presses Universitaires de Lille.

Gardiner, A.H. (1932/1951). The Theory of Speech and Language, Oxford, Clarendon Press [2e éd. avec additions (p. 328-344), 1951; reimpr., 1963].

Gardiner, A.H. (1989). Langage et Acte de Langage. Aux sources de la pragmatique, [trad. fr. de Douay, C, Villeneuve d'Ascq, Presses Universitaires de Lille].

NERLICH, B. (1984). «Pour une histoire de la pragmatique», Archives et Documents de la Société d'Histoire et d'Épistémologie des Sciences du Langage 4, 45-68.

NERLICH, B. (1986). La Pragmatique: Tradition ou révolution dans l'histoire de la linguistique française?, Frankfurt a.M./Bern/New York, Peter Lang.

NERLICH, B. (1996). «Einfuhrung in die Geschichte der Pragmatik», Zeitschrift fur Semiotik 18/4, 413-421.

Nerlich, B. (1998). «Linguistic Representation as 'Darstellung': From Bernhardi to Biihler», // Cannocchiale. Rivista di studi filosofici 1, 193-223.

Nerlich, B. et Clarke, D.D. (1994). «Language, Action and Context. A history of pragmatics in Europe and America, 1800 to 1950», Journal of Pragmatics 22, 439-463.

NERLICH, B. et Clarke, D. D. (1995). «The 1930s: At the birth of a pragmatic conception of language», Historiographia Linguistica. 334-311, 2211.

Nerlich, B. et Clarke, D. D. (1996). Language, Action, and Context. The early history of pragmatics in Europe and America, 1930-1780, Amsterdam/Philadelphia, John Benjamins.

Nerlich, B. et Clarke, D. D. (1998). «Reconstructing Research Programmes: Semantics and Pragmatics», Schmitter, P.; Van der Wai, M. (éds), Metahistoriography. Theoretical and Methodological Aspects in the Historiography of Linguistics,163-155, Munster, Nodus Publikationen.

NOORDEGRAAF, J. et Vonk, F. (éds) (en préparation). The History of Semantics and Pragmatics in the Low Countries, Amsterdam/Philadelphia, John Benjamins.

Paulhan, F. (1886). «Le Langage intérieur et la pensée», Revue Philosophique 58-26, 21.

Paulhan, F. (1927). «La Double fonction du langage», Revue Philosophique 73-22, 104.

POSNER, R., ROBERING, K. et SEBEOK, T. A. (éds) (1998). Semiotics. A handbook on the sign-theoretic foundations of nature and culture, 3 vols (HSK Band 13), Berlin-New York, Walter de Gruyter.

Reid, T. ([1785] 1872). «Essays on the Intellectual Powers of Man», Works, vol. I.

Reid, T. ([1863] 1872). The Works of Thomas Reid, Now Fully collected, with selections from his unpublished letters. Preface, notes and supplementary dissertations, by Sir

William Hamilton. Prefixed, Stewart's account of the life and writings of Reid, vols I and II. Seventh edition. Edinburgh, Maclachlan and Stewart; London, Longman, Green, Longman, Roberts, and Green [reimpr. Hildesheim, Olrns, 1967 et 1983].

Schlieben-Lange, B. ([1975] 1979). Linguistische Pragmatik, Stuttgart/ Berlin /Koln/ Mainz, Kohlhammer.

Schlieben-Lange, B. (1989). «Elemente einer pragmatischen Sprachtheorie in den Grammaires générales um 1800», Zeitschrift fiir Literaturwissenschaft und Linguistik 76, 93-76.

Schuhman, K. et Smith, B. (1990). «Elements of Speech Act Theory in the Work of Thomas Reid», History of Philosophy Quarterly 7/1, 47-66.

SEUREN, P. A.M. (1998). Western Linguistics. An historical introduction, Oxford, Blackwell.

VATER, J.S. (1801). Versuch einer allgemeinen Sprachlehre. Mit einer Einleitung iiber Begriff und Ursprung der Sprache und einem Anhange iiber die Anwendung der allgemeinen Sprachlehre auf die Grammatik einzelner Sprachen und auf die Pasigraphie, Halle a.d.S., Renger [réimpr. avec une introduction et un commentaire par Herbert E. Brekle. Stuttgart-Bad Canstatt, Friedrich Fromann Verlag, 1970].

VERSCHUEREN, J., ÔSTMAN, J.-O. et Blommaert, J. (éds) (1995). Handbook of Pragmatics: Manual, Amsterdam/Philadelphia, John Benjamins.

WEGENER, P. (1991/1885). Untersuchungen Uber die Grundfragen des Sprachlebens, Halle a.d.S., Niemeyer [Nouvelle éd. par E.F.K. Koerner avec une introduction par Clemens Knobloch, Amsterdam/Philadelphia, John Benjamins, 1991].

WEGENER, P. (1921). Der Wortsatz, «Indogermanische Forschungen». 26-1, 39.

(4) Résumant ce que pourrait être la position officielle des pays hôtes, François Balsan écrit: «Il n'y a plus de Baloutches aujourd'hui, mais rien que des Iraniens et des Pakistani». Voir François Balsan, Étange Baloutchistan, Paris, Société continentale d'éditions modernes illustrées, p. 19.

(5) Notons que les baloutches sont considérés comme citoyens à part entière et détenteur d'une assez large marge de liberté qui leur permet de parler leur langue d'origine, d'afficher leur différence, d'être admis dans le cercle de la famille royale au point même de contracter des alliances importantes.

(6) Cf.Jean-Louis Calvet, La Sociolinguistique, que sais-je? PUF, 1993, P67

(7) Cf. Monica Heller, «L'écologie et la sociologie du langage», in Annette Boudreau, Lise Dubois, Jacques Maurais, Grant McConnell, L'écologie des langues, Paris, L'Harmattan, 2002, p. 176.

(8) Cf. Jacques Maurais, «Assimilation linguistique», in Marie-Louise Moreau, Op. cit. p. 52.

(9) En sociolinguistique, la diglossie désigne l'état dans lequel se trouvent deux variétés linguistiques coexistant sur un territoire donné et ayant, pour des motifs historiques et politiques, des statuts et des fonctions sociales distinctes, l'une étant représentée comme supérieure et l'autre inférieure au sein de la population. Les deux variétés peuvent être des dialectes d'une même langue ou bien appartenir à deux langues différentes.

(10) Cf. Jacques Maurais, «Assimilation linguistique», in Marie-Louise Moreau, Op. cit., p. 52.

(11) Cf. Dominique Lafontaine, «Attitudes linguistiques», in Marie-Louise Moreau, Op. cit. p. 57.

(12) Cf. Michel Beniamino , «Diglossie», in Marie-Louise Moreau, Op. cit., p. 125; cf. aussi Einar Haugen, «Language Ecology and the Case of Faroese».

(13) Michel Francard, «Insécurité linguistique», in Marie-Louise Moreau, Op. cit. p. 171-172

(14) Cf. Dominique Lafontaine, «Attitudes linguistiques», in Marie-Louise Moreau, Op. cit. p. 58.

(15) Michel Francard, «Insécurité linguistique», in Marie-Louise Moreau, Op. cit. p. 173

Bibliographie

VII - BIBLIOGRAPHIE

L'écologie des langues (Annette Boudreau, Lise Dubois, Jacques Maurais, Grant McConnell) Paris édition l'harmattan 2002.

Sociolinguistique (Marie-louise Moreau) Belgique édition par Pierre Mardaga, liège.

Connaissance de l'Asie; Etrange Baloutchistan (François Balsan) Paris éditions modernes illustrées société continentale.

Regard Bahreïn (Michel Barrault) édition Michel Hetier septembre 2001.

Article Langage Ecology and the Case of Faroese (Einar Haugen).

www.imarabe.org/perm/mondearabe/pays/docs/bahrein.html

La Sociolinguistique (Louis-Jean Calvet) Edition Presses Universitaires de France (Que sais-je) France 1993.

J. Le Clerc (Qu'est-ce que la langue?) (Mandeleine) Edition Mondia Éditeur, Laval 1979.

www.bdd.sdnpk.org

NOTES

(1) Cf. Jacques Leclerc; Qu'est ce que la langue? Mondia, Éditeurs; Laval 1979 ; P112

(2) L'origine des baloutches demeures, aujourd'hui, largement inconnue. Certains historiens affirment qu'ils seraient d'origine arabe, qu'ils auraient quitté le sud de la péninsule arabe pour se joindre aux conquérants musulmans en destination vers la perse, et qu'en cours de route ils se seraient installés dans la région du Baloutchistan. D'autres historiens racontent qu'ils seraient venus de la Sibérie en quête du beau temps du sud et qu'ils se seraient mélangés avec les Brahouis pour devenir baloutches par la suite. En tous les cas, qu'ils soient arabes, indo-européens ou autre chose, ils s'appellent baloutches depuis qu'ils se sont installés dans le territoire auquel ils avaient donné le nom de Baloutchistan.

(3) De manière générale, ils faisaient partie des guerriers élites affectés à la garde personnelle des émirs de Bahrein, à cause de leur connaissance des choses de la guerre : fabrication des épées et des balles, élevage des chevaux arabes, traitement médical à base d'herbes, etc.

plus de perspectives et de gratifications sociales.

Ce phénomène nous met en présence d'une mutation positive de l'identité collective des baloutches de Bahrein, et par conséquent d'un cas assez rare de transformation de l'identité collective (généralement particulariste, fermée, réactive) en une identité d'un type nouveau (ouverte, universaliste).

Ce phénomène est lié à la conviction, renforcée à la fois par la religion et les conditions de la promotion sociales, que la substitution de l'arabe au baloutche ménage aux individus la possibilité de passer d'une culture et d'une identité particularistes et fermées à une culture et une identité plus inclusives et plus universalistes dans ses valeurs.

Il s'explique aussi par l'oubli de sa culture d'origine, la peur de parler l'arabe avec l'accent baloutche, le refus d'être identifié avec son origine ainsi que par l'effort pour assimiler la culture de l'autre de sorte à pouvoir se fondre dans le moule, chez les plus jeunes surtout.

Toutefois, il est évident qu'il nous est impossible de donner des réponses plus précises avant qu'une étude psychologique poussée des attitudes, des comportements et des représentations (individuels et collectifs) n'aie été entreprise, afin de voir s'il n'y a pas derrière cette façade des phénomènes significatifs de déstructuration du moi ou des phénomènes liés aux souffrances de l'identité.

plus négative que celle qu'en ont les utilisateurs de la variété dominante»[14]. Or cela décrit très bien l'attitude mentale des baloutches de Bahrein qui affirment que le baloutche est une langue inutile et que, ils ne s'en cachent pas, s'ils ne veulent pas que leurs enfants apprennent le baloutche, c'est uniquement par peur que l'accent baloutche ne vienne 'contaminer' pour ainsi dire l'accent arabe. On peut supposer donc qu'inconsciemment sans doute ils fonctionnent avec une échelle d'appréciation des individus selon leur langue et leur accent: locuteur de l'arabe sans accent (grand prestige), locuteur de l'arabe avec accent (prestige moindre), locuteur du baloutche (aucun prestige).

A cet égard, on peut certainement dire que, outre les exigences de l'insertion et de la promotion sociales, les deux principaux facteurs qui expliquent cette situation sont sans doute la religion et l'école.

Nous avons déjà expliqué comment l'islam assure la promotion de l'arabe en faisant de cette langue le véhicule privilégié de la religiosité; maintenant il s'agit de montrer que l'école aussi travaille dans le même sens. Dans son article «Insécurité linguistique», Michel Francart explique que: *«le sentiment d'insécurité linguistique n'a pas de rapport direct avec la pratique effective de la langue régionale.. mais paraît plutôt aller de pair avec le taux de scolarisation de l'informateur. D'où l'hypothèse, confirmée par des recherches ultérieures... selon laquelle l'institution scolaire, dans le monde francophone, accroîtrait l'insécurité linguistique en développant à la fois la perception des variétés linguistiques régionales et leur dépréciation au profit d'un modèle mythique et inaccessible»*[15]. Or même si cette hypothèse n'a été corroborée que dans le contexte francophone, nous croyons qu'il n'est pas exagéré d'en déduire qu'il en va de même au Bahreïn. Sinon comment expliquer l'attitude d'indifférence que les jeunes (1 à 30) adoptent à l'égard du baloutche?

V - Conclusion

Quel enseignement pouvons-nous tirer de cette analyse? C'est la constatation que pour les baloutches, l'assimilation culturelle n'est pas du tout vécue ou ressentie comme une aliénation culturelle ou une acculturation. Elle est au contraire vécue de façon positive, comme le fait d'accéder à une nouvelle identité culturelle plus positive, plus inclusive, et aussi comme le moyen de se construire une nouvelle identité sociale moins stigmatisée et ouvrant

14- Cf. Dominique Lafontaine, «Attitudes linguistiques», in Marie-Louise Moreau, Op. cit. p. 58.

15- Michel Francard, «Insécurité linguistique», in Marie-Louise Moreau, Op. cit. p. 173

qui explique l'assimilation. Toutefois, on ne saurait non plus sous-estimer l'importance des facteurs sociaux, et notamment des règles qui régissent la langue de communication au sein des familles vivant dans un contexte où une langue domine fortement toutes les autres. En outre si l'on tient compte du fait que la proportion de mariage mixte (baloutche-arabe, baloutche-persan, baloutche-autre) avoisine les 80% à 90% on comprendra pourquoi cette langue est si gravement menacée.

(b) La deuxième série de nos remarques porte sur la situation de diglossie (voir note n 9) qui est caractéristique des baloutches de Bahrein, et plus particulièrement sur les représentations et attitudes linguistiques qui en résultent. Par représentation linguistique nous entendons «la manière dont des sujets évaluent soit des langues, des variétés ou des variables linguistiques soit, plus souvent, des locuteurs s'exprimant dans des langues ou variétés linguistiques particulières»[(11)].

Or, d'après ce que nous savons des réponses des personnes interrogées, nous sommes ici dans une situation de diglossie, puisque pour l'ensemble des personnes interrogées l'arabe apparaît comme la langue de référence (à la fois pour des raisons religieuses, professionnelles, sociales et culturelles) tandis que le baloutche (et aussi le persan et l'ourdou) apparaissent comme des langues communes[(12)]. Cela se traduit d'ailleurs par le fait que la plupart des locuteurs du baloutche n'utilisent (lorsqu'ils l'utilisent) cette langue que dans des contextes restreints (en famille ou lors d'occasions particulières), qu'ils ne l'enseignent pas à leurs enfants, qu'ils la jugent inutile et peu importante, etc. Tout une série d'attitudes qui montrent qu'il y a effectivement ici la «manifestation d'une quête de légitimité linguistique, vécue par un groupe social dominé, qui a une perception aiguisée tout à la fois des formes linguistiques qui attestent sa minorisation et des formes linguistiques à acquérir pour progresser dans la hiérarchie sociale»[(13)]. Et cela, nous le savons, ne va sans une certaine insécurité linguistique. Précisément, concernant l'insécurité linguistique et le phénomène d'autodépréciation auquel il donne généralement lieu, Dominique Lafontaine écrit que «les locuteurs s'exprimant habituellement dans une variété dominée ont de celle-ci une image très négative, souvent

11- Cf. Dominique Lafontaine, «Attitudes linguistiques», in Marie-Louise Moreau, Op. cit. p. 57.

12- Cf. Michel Beniamino, «Diglossie», in Marie-Louise Moreau, Op. cit., p. 125; cf. aussi Einar Haugen, «Language Ecology and the Case of Faroese».

13- Michel Francard, «Insécurité linguistique», in Marie-Louise Moreau, Op. cit. p. 171-172

plus complexe et plus intéressant. A cet égard, il convient de souligner la situation religieuse particulière dans laquelle se trouvent les baloutches. Ceux-ci sont en effet majoritairement des musulmans sunnites, ce qui signifie que, pour eux, l'arabe, langue du coran, est une langue sacrée, universelle, qui est sensée ménager l'accès à l'identité à laquelle tous les croyants doivent aspirer. Ainsi, sans nécessairement renoncer à leur identité ou origine première, ils se trouvent néanmoins dans une situation que l'on peut appeler de dissonance culturelle ou identitaire : ils ne peuvent en effet être eux-mêmes qu'en commençant par survaloriser une langue qui n'est pas la leur. On dirait que pour eux l'appartenance religieuse, ou la participation à la communauté islamique universelle, est la condition primordiale de leur être social, le lieu fondamental de l'identification, celui qui doit venir avant tout autre affiliation. Dans de telles conditions, la substitution de l'arabe au baloutche, ou le primat du premier sur le second, ne semble pas poser de problème pour les intéressés eux-mêmes. Loin d'être perçu comme une aliénation linguistique et culturelle, ce phénomène est vécu comme positif, nécessaire même, dans la mesure où c'est la participation à l'identité religieuse collective qui est la condition sans laquelle aucune autre forme d'identité profane (séculière) ne saurait être réelle ni authentique. Ce qui nous fait voir que la substitution de l'arabe au baloutche ne résulte pas d'une oppression (aux yeux des baloutches).

Il en résulte que nous nous trouvons devant une situation d'assimilation extrêmement efficace, d'autant plus qu'elle a su prendre le visage de la nécessité religieuse ou du choix volontaire (acte de foi individuel). En effet cela conduit à une évolution qui entraîne une véritable mutation identitaire et linguistique. Quant au troisième facteur, l'exogamie, nous avons déjà remarqué qu'il a exercé une influence non négligeable, puisque nous avons vu que presque tous les jeunes baloutches (qui proviennent en général de familles mixtes) ne parlent pas la langue baloutche et ne s'identifient pas non plus à la culture baloutche. Ce qui nous amène à dire que même si les baloutches de Bahreïn sont très bien intégrés à la vie politique, économique et culturelle du royaume, il reste que les conditions de cette intégration sociale et de cette promotion sociale réussie mettent en place une dynamique sociale et culturelle qui conduit à une assimilation intergénérationnelle très efficace[10], qui risque fort d'entraîner la disparition totale du baloutche dans les décennies à venir. Il est vrai que, dans certain cas (couples baloutches), c'est le laisser faire de la part de l'adulte

10- Cf. Jacques Maurais, « Assimilation linguistique», in Marie-Louise Moreau, Op. cit., p. 52.

lignes la plupart des facteurs qui déterminent la disparition des langues:

«On a depuis longtemps déterminé un certain nombre de facteurs qui favorisent l'assimilation linguistique. On note d'abord qu'il n'y a pas de motivation strictement linguistique au changement de langue. Il y a plutôt soit des causes naturelles, soit un faisceau de causes sociologiques et psychologiques (..) Il ne faut surtout pas oublier les causes plus caractéristiques de la situation culturelle et sociopolitique des groupes dominés: absence de pouvoir politique, absence de pouvoir économique, absence d'idéologie nationaliste, absence d'utilisation de la langue dans des domaines à charge symbolique importante (par exemple la religion, la scolarité), exogamie, etc.; à quoi s'ajoute, servant de catalyseur, l'action des «idéologies diglossiques», c'est-à-dire l'ensemble des représentations et des croyances comportant le plus souvent des éléments d'autodénigrement, tendant à conforter les relations inégalitaires existantes entre les langues et faisant, en définitive, la promotion de la langue dominante» [8].

En considérant dans l'ordre les facteurs énumérés, nous ferons ici des remarques sur les facteurs qui jouent au niveau de la situation culturelle et sociopolitique et **(a)** l'action des idéologies diglossiques[9]**(b)**.

(a) Au niveau de la situation culturelle et sociopolitique, il y a trois facteurs qui semblent jouer: premier facteur, l'absence d'idéologie nationaliste, l'absence d'utilisation de la langue dans les domaines à forte charge symbolique et l'exogamie.

Concernant le premier facteur nous avons vu que la plupart affirment ne pas avoir de lien avec le patrimoine ou la tradition baloutche, on peut dire que la situation précaire de l'antique Baloutchistan, de sa création à son démantèlement, la nécessité de l'exil ou de l'émigration comme voie de salut, et surtout les excellentes conditions d'insertion sociale qu'offrent le Bahreïn, que tous ces facteurs ont effectivement rendu caducs les raisons qui auraient pu conduire à l'émergence et au développement d'une idéologie nationaliste baloutche au Bahreïn.

En ce qui concerne le deuxième facteur, nous laissons de côté le problème assez évident de la promotion de l'arabe à l'école pour nous concentrer sur le problème religieux qui semble

8- Cf. Jacques Maurais, «Assimilation linguistique», in Marie-Louise Moreau, Op. cit. p. 52.

9- En sociolinguistique, la diglossie désigne l›état dans lequel se trouvent deux variétés linguistiques coexistant sur un territoire donné et ayant, pour des motifs historiques et politiques, des statuts et des fonctions sociales distinctes, l›une étant représentée comme supérieure et l'autre inférieure au sein de la population. Les deux variétés peuvent être des dialectes d›une même langue ou bien appartenir à deux langues différentes.

langue maternelle, la langue de communication avec les frères et s'urs, et la langue de communication avec les collègues.

- Importance du baloutche : évidemment, pour les personnes de cette catégorie, le baloutche n'a aucune importance, elle est même inutile.

- Difficulté de la langue baloutche : conformément à l'idée que ces personnes se font de l'inutilité du baloutche, elles trouvent que cette langue est difficile. Plus difficile d'ailleurs que l'arabe.

- Parler le baloutche : naturellement la plupart d'entre eux ne parle pas le baloutche.

III- Remarques générales sur la pratique de la langue baloutche

La première chose remarquable à souligner est le fait que malgré leur intégration parfaite à la société de Bahreïn (participation active aux plans culturels économiques et politiques), les baloutches semblent assister de manière indifférente à la disparition de leur langue et de leur culture. A quelles causes faut-il attribuer un tel phénomène?

Précisons avec Meillet[6] que la langue constitue une institution et à ce titre elle est le lieu où se réfracte le processus social historique dans son entier; Cela signifie que les mutations linguistes ne peuvent pas être séparées des conditions culturelles politiques et économiques qui leur ont donné naissance.

Comme Monica Heller, nous pensons que «la survivance ou la disparition d'une langue» peut être comprise non pas en fonction de la vision Whorfienne qui suppose que chaque langue représente une vision unique du monde, mais plutôt en fonction de la reproduction ou la non-reproduction des relations sociales où les pratiques langagières en question ont une signification. En d'autres termes «il vaut mieux analyser les rapports de pouvoir et les changements sociaux en cours en relation avec les idéologies et les pratiques linguistiques que de s'attarder sur la langue en premier lieu»[7]. C'est donc dire que, pour nous aussi, la clé du phénomène de désaffection du baloutche trouve son explication dans des pratiques et des représentations sociales, ainsi que sur le plan des relations sociales qui perpétuent ces représentations.

Pour tenter de répondre à la question que nous avons formulée, partons de ce texte de Jacques Maurais qui a l'avantage de ramasser en quelques

6- Cf. Jean-Louis Calvet, La Sociolinguistique, que sais-je? PUF, 1993, P67

7- Cf. Monica Heller, «L'écologie et la sociologie du langage», in Annette Boudreau, Lise Dubois, Jacques Maurais, Grant McConnell, L'écologie des langues, Paris, L'Harmattan, 2002, p. 176.

(b) Convergence des réponses quel que soit le sexe, la profession et l'éducation

- Première langue apprise: tous (sexe, éducation et profession confondus) répondent que le baloutche est la première langue apprise, à l'exception évidemment des plus jeunes.

- Langue parlée à la maison: on constate ici que même s'il y a de légères différences (femmes, groupe d'âge de 31 à 35 ans), l'arabe reste la langue majoritairement parlée à la maison.

- Langue maternelle: malgré quelques petites différences non significatives (à l'exception évidemment de ceux de la catégorie 1 à 30 ans), le baloutche est majoritairement la langue maternelle, même si tous n'utilisent pas cette langue à la maison.

- Langue de communication avec le conjoint: ici encore, en dépit de quelques petites différences non significatives, l'arabe est la langue dominante.

On constate que si les personnes non scolarisées ou sans profession sont plus portées à utiliser le baloutche, c'est l'inverse qui se produit dans les couches les plus scolarisées et les plus élevées dans la hiérarchie sociale. Mais dans tous les cas, c'est l'arabe qui domine.

- Langue de communication avec les enfants: ici on constate une nette domination de l'arabe quel que soit le sexe, l'âge, la profession, le niveau d'éducation.

- Langue de communication avec les frères et s'urs : ici encore, en dépit de quelques petites différences (professeurs d'université, les hommes d'affaires, les personnes sans profession), l'arabe est la langue dominante, soit qu'elle est employée seule, soit conjointement avec le baloutche.

- Importance de la langue baloutche : de façon paradoxale (si l'on tient compte du fait que la plupart des informateurs estiment que le baloutche est une langue inutile), une bonne majorité des personnes trouve que le baloutche est important; elles soutiennent d'ailleurs qu'il est important de l'enseigner aux enfants.

c) Convergence des réponses de ceux de la catégorie 1 à 30 ans

Cependant, on constate que l'âge constitue un facteur très significatif, dans la mesure où on remarque une grande différence dans les pratiques et les représentations de ceux de la catégorie 1 à 30 ans par rapport aux autres locuteurs.

- Pour les personnes de cette catégorie, l'arabe constitue la langue centrale, elle est la première langue apprise, la langue parlée à la maison, la

vraiment particulier dans la situation actuelle du baloutche; tout semblait indiquer en effet que les réponses aux questions étaient approximativement les mêmes en dépit des différences de sexe, d'éducation ou de profession, à quelques petites différences près tout de même.

Ainsi, à la suite de l'analyse des réponses nous avons constaté de façon générale trois types d'agglomération des données : premièrement une convergence des réponses quel que soit le sexe, la profession, l'éducation et l'âge **(a)**; deuxièmement une convergence des réponses quel que soit le sexe, la profession et l'éducation **(b)**; et enfin une convergence des réponses selon l'âge **(c)**.

a) Convergence des réponses quelque soit le sexe, la profession, l'éducation et l'âge

- Langue de communication avec les collègues: ici l'arabe et l'anglais sont prédominants à tous les niveaux, sauf dans le cas des sans professions et des fonctionnaires (qui emploient l'arabe, l'ourdou et le persan).
- Langue de correspondance écrite: ici on constate une nette domination de l'arabe quel que soit le sexe, l'âge, la profession, le niveau d'éducation.
- Utilisation des mass médias: ici on constate une nette domination de l'arabe, mais il faut cependant reconnaître que l'anglais occupe aussi une place relativement importante.
- Héritage, patrimoine baloutche : de façon assez étonnante on constate qu'aucune des personnes interrogées ne semble avoir de lien particulier avec le patrimoine culturel traditionnel baloutche
- Utilité de la langue arabe, parler, écrire, comprendre et lire l'arabe, importance d'utiliser l'arabe : sur tous ces points les personnes interrogées sont unanimes: il est primordial de comprendre l'arabe.
- Utilité de la langue baloutche: de façon paradoxale, tout le monde soutient que cette langue est inutile.
- Importance d'utiliser l'anglais, circonstances dans lesquelles on utilise l'anglais: tout le monde reconnaît son importance et sa nécessité pour le milieu professionnel.
- Difficulté de la langue arabe : toutes les personnes interrogées affirment qu'elle est facile
- Circonstances dans lesquelles on utilise l'arabe: l'arabe semble être la langue universelle pour toutes les personnes interrogées, puisqu'on l'utilise dans tous les domaines de l'existence.

parfaite assimilation des baloutches[4].

C'est donc dire que si nous avons choisi d'étudier cette population, c'est parce qu'elle semble constituer, selon nous, un contexte plus ou moins idéal pour étudier les facteurs qui semblent peser sur la destinée des langues minoritaires.

Comme nous l'avons dit plus haut, même si leur nombre est restreint, ou peut-être à cause de cela, les baloutches du Bahreïn se trouvent dans une situation privilégiée pour l'étude de la langue.

En effet, non seulement il existe plusieurs langues minoritaires au Bahreïn : le baloutche, le persan, et l'ourdou des indiens-l'arabe et l'anglais étant les langues de travail et de communication entre les divers groupes qui composent le tissus social ; mais en outre on constate que les locuteurs du baloutches sont relativement bien intégrés politiquement, socialement et économiquement[5].

D'où la question: comment se fait-il que malgré des conditions favorables de cette nature, la langue baloutche soit autant menacée de disparition au Bahreïn que dans les pays hôtes plus hostiles?

Quels sont les facteurs véritables qui expliquent la disparition progressive de cette langue?

Étant donné la complexité de la question, nous nous sommes concentrés, après avoir effectué une analyse plus large sur le terrain (cf. «Les baloutches du Bahreïn», étude à caractère sociolinguistique) sur les points suivants au regard des pratiques de la langue de communication à la maison, avec les amis etc ... et plus particulièrement ce qui pouvait influencer l'emploi ou non de la langue baloutche:

1. Y a-t-il une influence du niveau d'éducation ou de formation ?
2. Ya t'il une influence de la situation socioprofessionnelle ?
3. Y a-t-il une influence du genre sur le fait de choisir la langue baloutche ?

II - Analyse de la situation culturelle et linguistique des baloutches

De manière générale, les données recueillies dans l'étude sociolinguistique mentionnée ci-dessus, révèlent que la plupart des facteurs que nous avons identifiés (sexe, éducation et profession) ne jouent pas un rôle explicatif

4- Résumant ce que pourrait être la position officielle des pays hôtes, François Balsan écrit : « Il n'y a plus de Baloutches aujourd'hui, mais rien que des Iraniens et des Pakistani ». Voir François Balsan, Étange Baloutchistan, Paris, Société continentale d'éditions modernes illustrées, p. 19.

5- Notons que les baloutches sont considérés comme citoyens à part entière et détenteur d'une assez large marge de liberté qui leur permet de parler leur langue d'origine, d'afficher leur différence, d'être admis dans le cercle de la famille royale au point même de contracter des alliances importantes.

baloutches vont émigrer de ce pays vers des contrées où ils pourraient trouver de meilleures conditions de vie. Or, étant donné que les barrières entre les pays étaient assez perméables à cette époque, beaucoup de baloutches vont émigrer vers les pays du golf il y a environ 400 ans. Les baloutches du Bahreïn appartiennent précisément à cette catégorie. Leur émigration se serait opérée en deux vagues successives: la première entre le 17ème et le 18ème siècle et la deuxième vague, plus récente, du début du 20ème siècle jusqu'à il y a 20 a 60 ans.

Cette prédilection des baloutches pour le Bahreïn s'explique aisément par le fait que, étant historiquement des guerriers redoutables, ils furent adoptés par la famille régnante Al-Khalifa Aussi se sont-ils installés dans les forts éparpillés dans le royaume de Bahrein tels que le fort d'Abumaher, Arad, et al diwan situés à Muharraq, deuxième île importante du royaume, considérée à l'époque comme la capitale[3].

De nos jours, ces baloutches-là (ou leurs descendants) ainsi que les nouveaux venus sont relativement bien intégrés dans la société de Bahreïn, où ils occupent les fonctions assez prestigieuses: ministres, enseignants, universitaires, diplomates, commissaires de police, magistrats, etc. Sur le plan social, culturel et politique cette intégration se traduit par l'acceptation grandissante des mariages mixtes, ainsi par leur participation aux affaires politiques, puisqu'ils occupent des fonctions relativement importantes pour la gestion des affaires du royaume.

Véritable plaque tournante entre Orient et Occident de part sa situation géographique, Bahreïn est depuis la plus haute antiquité un lieu où se rencontrent les peuples et les cultures les plus diverses dans un climat d'entente mutuelle et de respect réciproque.

Or, même si la population baloutche semble relativement négligeable non seulement par rapport à la population Bahreïnienne du royaume mais aussi par rapport à la population étrangère en générale du royaume il n'en demeure pas moins que la situation de cette population est très importante à étudier dans ce contexte. En effet, les baloutches de Bahrein sont dans une situation privilégiée par rapport aux baloutches en général (de l'Afghanistan, du Pakistan et de l'Iran). Depuis la partition du Baloutchistan et l'incorporation de sa population à celle des trois pays limitrophes, on constate que cette langue est gravement menacée, notamment au Bahreïn du fait d'une

3- De manière générale, ils faisaient partie des guerriers élites affectés à la garde personnelle des émirs de Bahrein, à cause de leur connaissance des choses de la guerre : fabrication des épées et des balles, élevage des chevaux arabes, traitement médical à base d'herbes, etc.

La langue Baloutche au Bahreïn

Benammour Cherifa
Université de Bahreïn

I - Introduction

Cet article s'inscrit dans l'écologie des langues, c'est-à-dire dans le cadre de l'étude des phénomènes qui influent sur le développement, le maintien ou la disparition des langues. Dans ce contexte, nous avons choisi de nous intéresser à la situation de la langue baloutche dans le royaume de Bahreïn. La langue Baloutche appartient à la famille indo-européenne et particulièrement à la branche indo-iranienne[1].

Même si ce choix peut paraître surprenant, la situation du baloutche nous est apparue en effet comme un sujet d'étude digne de retenir notre attention d'une part parce que cette histoire est largement méconnue[2], et d'autre part parce que ce peuple, et par conséquent sa langue elle même, a connu une destinée historique fort intéressante pour des raisons assez complexes.

En effet, depuis le 18eme siècle, la destinée des baloutches s'étant trouvée mêlée à celle de l'Angleterre, la grande puissance colonisatrice de la région, leur évolution sera évidemment liée aux vicissitudes de la politique coloniale britannique.

En outre, à cause de la situation tendue au Baloutchistan, de nombreux

1- Cf. Jacques Leclerc; Qu'est ce que la langue? Mondia, Éditeurs; Laval 1979 ; P112

2- L'origine des baloutches demeure, aujourd'hui, largement inconnue. Certains historiens affirment qu'ils seraient d'origine arabe, qu'ils auraient quitté le sud de la péninsule arabe pour se joindre aux conquérants musulmans en destination vers la perse, et qu'en cours de route ils se seraient installés dans la région du Baloutchistan. D'autres historiens racontent qu'ils seraient venus de la Sibérie en quête du beau temps du sud et qu'ils se seraient mélangés avec les Brahouis pour devenir baloutches par la suite. En tous les cas, qu'ils soient arabes, indo-européens ou autre chose, ils s'appellent baloutches depuis qu'ils se sont installés dans le territoire auquel ils avaient donné le nom de Baloutchistan.

اللغة البلوشية في البحرين

الملخّص

يعني هذا البحث بدراسة اللغة البلوشية وفهم الظروف والتغيرات التي طرأت عليها بعد محاولة اندماجها في اللغة العربية واللهجات البحرينية، نتيجة انصهار ذويها في الثقافة البحرينية، وقد نهجنا الطريقة السوسولغوية في تحليل اللهجة البلوشية عبر وسائل فنية، سواء ما كان متعلقا منها بالتطور، والحفظ، والصيانة، أو من خلال ظاهرة الاضمحلال، شأن كثير من لهجات الأقليات في أي ثقافة.

وعندما استخدمنا الطريقة السوسولغوية على البلوش في البحرين، تبين لنا أن اللغة البلوشية في حالة اضمحلال لغوي في البحرين، ولعل ذلك يرجع إلى أن البلوش استوعبوا اللغة العربية الرسمية؛ بالإضافة إلى كونها لغة الدين الإسلامي وحضارته.

الكلمات المفتاحية: سوسيو لغوي، اضمحلال، الازدواج اللغوي، الاستيعاب، الصيانة اللغوية.

La langue Baloutche au Bahreïn

BENAMMOUR Cherifa
Université de Bahreïn

Abstract

This article illustrates the sociolinguistic method through the use of a questionnaire to analyse the development, maintenance or disappearance of any given language in any given country. When it was applied on the Balooshi language in Bahrain, we have concluded through this sociolinguistic method that the Balooshi language is in diglossia. The Balooshis have however, assimilated the Arabic language and its culture because it is the language of Islam and its culture.

Keywords: sociolinguistic, diglossia, assimilation, maintenance, language insecurity.

سِمات
S e m a t

La Langue Baloutche au Bahreïn

Benammour Cherifa
Université de Bahreïn

Cherifa_99@hotmail.com

Received: 22 April 2013,
Revised: 30 Jul. 2013, Accepted: 30 Sep. 2013
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

Bibliographie

1- Corpus:

Khelladi, Aissa, (2000), Le Paradis des Fausses Espérances, In Anthologie du nouveau théâtre algérien, Paris : Marsa, pp. 260-333.

2- Références théoriques:

ADAM, Jean-Michel, (1992), Les textes: types et prototypes, Paris ; Nathan Université.

ADAM, Jean-Michel, (2005), La linguistique textuelle : Introduction à l'analyse textuelle des discours, Paris: Armand Collin, coll. «Cursus».

ALTHUSSER, Louis, (1976), «Idéologie et appareils idéologiques d'Etat», in Positions, Paris: Sociales.

BANGE, Pierre, (1992), Analyse conversationnelle et théorie de l›action, Paris: CREDIF – Hatier.

BERGSON, Henri, [1900], Le rire : essai sur la signification du comique, Paris : PUF, (1972) (Coll. Bibliothèque de philosophie contemporaine).

DUBOIS, Jean et. al, (2002), Dictionnaire de linguistique, Paris: Larousse-Bordas.

FOUCAULT, Michel, (1905), Archéologie du savoir, Paris: Gallimard.

HAILLET, Pierre Patrick, (2007), Pour une linguistique des représentations discursives, Paris: de boeck, coll. «Champs linguistiques».

KERBRAT-ORRECHIONI, Catherine, (1986), L'implicite, Paris: Armand Collin.

MAINGUEANAU,Dominique, (1990), Eléments de linguistique de linguistique pour le texte littéraire, Paris: Bordas.

MAINGUENEAU,Dominique, (1991), L'analyse du discours, introduction aux lectures de l'archive, Paris: Hachette.

MOESCHLER, J, REBOUL, A, (1994), Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, Paris : Hachette.

NØLKE, Henning ; ADAM, Jean-Michel et.al, (1991), Approches modulaires: de la langue au discours, Lausanne: Delachaux et Nistlé.

SARFATI, Georges-Elia, (2005), Eléments d'analyse du discours, Paris: Armand Collin, coll. «128».

SEARLE, John, (1972), Les actes de langage, Paris: Hermann.

dans l'échange dialogal du «paradis des fausses espérances» permet d'accentuer l'aspect du comique. Au niveau interactionnel, la polyphonie sert de moyen subtil pour se défiler de la charge énonciative en créant une ambigüité sur l'identité de l'instance énonciative.

Mots clés:

modularité/ discours comique/cohésion sémantique/polyphonie.

variable (internes ou externes».[27] Soit par exemple les énoncés suivants:

(1) «*Salama:...Mabrouk est plus âgé que moi, c'est un ami de mes défunts parents. Enfin, si on veut. Un peu âgé mais encore beau, et fortuné grâce aux positions qu'il occupe*». (Khelladi:274).

(2) «*Mabrouk : Je ne vais plus dans ces endroits depuis qu'ils sont mal fréquentés!*». (Khelladi: 297).

Dans ces deux énoncés, l'aspect polyphonique se dégage tout en accentuant l'aspect inférentiel. Pour (1), il s'agit d'un «sous-entendu» englobant: «*toutes les informations qui sont susceptibles d'être véhiculées par un énoncé donné, mais dont l'actualisation reste tributaire de certaines particularités du contexte énonciatif* »[28]. Dans cet énoncé, un calcul interprétatif doit être mobilisé par l'énonciataire afin de trancher sur la valeur sémantique fluctuante de «positions». Ce lexème introduit une double acception axiologique à l'énoncé: la position prestigieuse de Mabrouk est soit la rétribution de l'exercice irréprochable ou paradoxalement malhonnête de son travail de militaire. Alors que pour (2), il s'agit d'un «présupposé»: «*Nous considérons comme présupposées, toutes les informations qui, sans être ouvertement posées, sont cependant automatiquement entraînées par la formulation de l'énoncé, dans lequel elles se trouvent intrinsèquement inscrites, quelle que soit la spécificité du cadre énonciatif*» [29]. Dans (2), le déictique temporel «depuis» véhicule un présupposé lexical, sur le base duquel deux inférences présupposées sont édifiées (les mosquées n'étaient pas mal fréquentées auparavant/ les mosquées sont maintenant fréquentées par de «mauvais» fidèles).

Par conséquent, Le simulacre polyphonique permet un défilement de la charge énonciative: Aissa Khelladi attribue à Salam des points de vue qui ne sont pas les siens sous prétexte de risibilité générale.

Résumé:

L'approche modulaire permet une appréhension de plus en plus approfondie du discours dramatique et donc, une meilleure étude pour le comique comme relevant d'une structure discursive. Le comique pourrait être issu des trois niveaux qui forment la complexité du discours : au niveau linguistique, le comique se produit en relation avec les propriétés linguistiques de base. Au niveau textuel la cohésion sémantique prend le dessus en assurant une isotopie assignée à la logique comique de l'univers du discours dramatique, alors que l'insertion du récit

27- KERBRAT-ORRECHIONI, Catherine, (1986), *L'implicite*, Paris: Armand Collin, P.24.

28- Idem P..39.

29- Idem P.25.

d'altérité énonciative» qui procède à un «*dédoublement du locuteur*»[26]. Salam attribue son propre point de vue à une autre instance indéfinie, pour se défiler de la charge énonciative (ici, l'insulte). Examinons encore un court fragment d'une tirade de Salam en marquant par Sles énoncés produits par Salam, et par X ceux d'une voix indéfinie:

«***S*** *(je sais. Vous pensez à la liste des 130 écrivains qu'on a affiché sur les mosquées. Je vais vous dire),* ***X*** *(c'est un coup de pub),* ***S*** *(croyez moi)!* ***X*** *(Du copinage).* ***S*** *(Moi, c'est plus sérieux…)*» (Khelladi: 268).

Nous remarquons que les énoncés de Salam lui sont attribués sans difficulté, en outre, les énoncés de X sont d'origine inconnue : ces points de vue peuvent être attribués à Salam, à l'auteur Aissa Khelladi, ou même à un autre protagoniste. On parle ici de polyphonie. La théorie de la polyphonie développée par Oswald Ducrot s'est inspirée du dialogisme bakhtinien qui présuppose que les points de vue discursifs peuvent être véhiculés par plusieurs sources, plusieurs voix. Ainsi, un grand mérite revient à Ducrot dans la délimitation des sources de la parole à l'intérieur de l'énoncé du sujet parlant en marquant la différence entre «locuteur» et «énonciateur». Cette distinction est primordiale dans le fonctionnement du discours dramatique de façon générale et du discours dramatique comique de façon spécifique. Prenons pour exemple l'énoncé suivant:

«*Salama: Les militaires n'ont pas la parole facile*» (Khelladi : 275).

Pour cet énoncé, un point de vue est véhiculé par l'usage du présent de l'indicatif ayant la valeur d'une «vérité générale». Ce point de vue peut être attribué soit à son énonciateur (Aissa Khelladi), soit à son locuteur (Salama) puisqu'il ne contient aucune trace explicite sur sa subjectivité attribuée à une instance donnée. De ce fait, dans la communication théâtrale, l'intégration de composantes d'ordre psychologique et culturel est primordiale afin de déterminer la source du «dire». Pour Kerbrat-Orecchioni, le langage est un faisceau de marques subjectives analysable sur le plan énonciatif. Afin de simuler son point de vue, le locuteur a souvent recours à l'implicite. Les énoncés implicites sont généralement attribués à l'énonciateur. Dans la logique conversationnelle unilatérale entre le locuteur (Aissa Khelladi) et l'énonciataire (le public), le premier produit des énoncés inférentiels : «*Nous appellerons 'inférence' toute proposition implicite que l'on peut extraire d'un énoncé, et déduire de son statut littéral en combinant des informations de statut*

26- Idem. P.115.

Est-ce possible? Mais qui ça peut-il être! (on frappe de nouveau à la porte) Qui c'est?

Salama: C'est moi.

Salam (imitant un perroquet): Qui c'est?... "C'est moi" qui?»

L'emploi de la variante déictique «moi» est source de comique étant donné qu'elle met l'accent sur sa variation en fonction de l'instance énonciative. Le discours dramatique est saturé par des éléments déictiques qui sont l'indice de son caractère performatif et expressif. C'est la raison pour laquelle le dialogue dramatique a une fonction communicationnelle qui relève du discours et non de l'histoire. Le temps dominant dans le discours dramatique comique d'Aissa Khelladi est le présent de l'indicatif. En effet l'emploi du présent dans le dialogue théâtral a une fonction actualisante: «*l'emploi du présent a pour conséquence la représentation de l'objet correspondant comme contemporain du maintenant du locuteur*»[25] L'usage peut être analysé dans les deux composantes du discours théâtral: le dialogue et les didascalies. Par exemple dans (1), l'emploi du présent dans «désirez» représente un usage dit «performatif» du présent où les bornes ne sont pas clairement marquées. Alors que dans (2), l'indication scénique marque un usage d'un «présent historique», commutable avec le passé simple de la narration (on frappe/on frappa), puisque les indications scéniques peuvent servir de mise en récit des actions qui ne peuvent pas s'intégrer dans le dialogue. Conséquemment, l'usage du présent et des déictiques permet un ancrage énonciatif complet qui donne au discours dramatique comique une tonalité énonciative ancrée dans le temps présent de la mise en scène/la mise en discours. L'ancrage énonciatif représente une énonciation actuelle dont le repère est: Je-Ici-Maintenant. Cela dit, cette énonciation actuelle est représentée comme une interaction verbale particulière non seulement entre les protagonistes mais entre l'auteur et le public. Ainsi, les instances énonciatives se dédoublent en créant une instabilité sur la source de la parole.

Prenons à titre d'exemple l'énoncé suivant:

«*Salam: Mais je n'ai l'intention de faire aucune tentative contre vous. On dirait que vous êtes paranoïaque. Salama ne vous a-t-elle pas expliquée que c'est moi qui recherchais votre protection?*» (Khelladi: 294).

Dans cet énoncé, l'emploi du conditionnel présent instaure une ambiguïté, une certaine mise à distance puisqu'il se trouve combiné à une instance énonciative indéfinie (le «on» hypocrite). Il s'agit du «conditionnel

25- HAILLET, Pierre Patrick, (2007), Op.cit.P.69.

du «sérieux» qui contrastent avec les séquences discursives représentant le «non-sérieux» ou le comique. Ainsi, l'insertion de la composante narrative peut servir de pause pour mieux accentuer l'effet comique. Pour (3), il s'agit d'un cas particulier d'enchâssement, en relation avec l'instance énonciative. Salam opère une double énonciation: il parle à Mabrouk au téléphone puis, il reporte ce que ce dernier lui dit à un destinataire abstrait (le public). Un double dialogue s'instaure dans cet énoncé qui peut figurer comme suit:

(Les répliques en gras sont ceux de Mabrouk, absentes du dialogue original):

«*Salam: Allo…oui.*

Mabrouk: C'est Mabrouk.

Salam: pourquoi m'appelez-vous?

Mabrouk: je veux parler à Salama.

Salam: On a eu la même idée au même moment. Les grands esprits se rencontrent.

Mabrouk: Je ne comprends pas. Je ne suis habité par aucun esprit, moi.

Salam: C'est bien ce que je croyais! J'ai dit que c'est bien ce que je croyais.

Mabrouk: Je crois que Salama est avec vous… ».

En même temps, ce dialogue est directement rapporté au public («Calmez-vous, calmez-vous. Non, mais! Il se calme. Il ne se calme pas. Ah, ces militaires... J'hésite à lui dire qu'elle est avec moi, rien que pour l'enrager »). Salam a recours au style rapporté à valeur informative : la conversion du dialogue qui s'est produit entre Salam et Mabrouk en récit par l'intermédiaire du discours rapporté présuppose l'existence d'un auditeur qui serait l'objet d'une complicité tacite, étant donné que les malentendus seront racontés de façon à être décelés par le public qui en possède leur secret.

III.3. Les formes d'organisation complexes: le cas de la polyphonie/ simulacre énonciatif

Ces formes d'organisation relèvent du couplage de deux formes d'organisations élémentaires. Ainsi, nous proposons d'analyser la forme polyphonique comme résultante de l'interrelation entre l'axe textuel (la forme énonciative) et l'axe situationnel (la forme séquentielle). Elle permet d'analyser le fonctionnement du discours dramatique comique en passant du dialogue au dialogisme. En effet, le discours théâtral serait constitué d'un ensemble d'actes de langages en interaction. Il en résulte une progression dynamique qui s'inscrit sur l'axe temporel du présent de l'interaction verbale et actancielle. C'est l'exemple des énonces suivants:

(1) *«Salam: Quoi? Mon livre, avez-vous dit? Vous désirez connaître l'histoire que je raconterai dans le livre que j'écrirai?»*

(2) «Salam: Une voix de femme!

subjectivité (embrayeurs).

Dans (2), il s'agit d'un dialogue unilatéral dans lequel Salama est le sujet actant et Salam est le sujet patient. Ce dialogue peut donc s'apparenter à un monologue narratif classique mais avec une seule variante : le destinataire est présent mais il ne participe pas à l'interaction. Sa présence est marquée par l'usage de l'impératif («ne dis rien»), ou par l'interjection impérative («Chut!»). Cette scène peut se schématiser comme suit:

Dialogue unilatéral
(Monologue narratif de Salama)
[Discours + (récit)]

Dans (4) il s'agit du même type d'enchâssement, mais il serait plus consistant puisque deux scènes entières se trouvent enchâssées dans le dialogue de la femme voilée avec Salam. Ces deux scènes remplissent deux fonctions essentielles. D'abord, elle apporte des informations sur les sujets inconnus (le mari) et aussi assure une homogénéité textuelle en mettant en récit les choses qui ne peuvent pas passer en action. L'instance du récit n'est assurée que par une entrée («j'avais un mari…»), comme étant une situation initiale repérée avec l'usage de l'imparfait. Ici l'imparfait sert d'indice pour marquer la mise à distance de l'action par rapport au temps présent de l'énonciation. La valeur de l'imparfait dans cet énoncé serait d'encadrer le récit, de l'envelopper comme étant un « arrière-plan»[(24)] dont les bornes ne sont pas clairement marquées (avoir un mari/aimer les quatre enfants). Dans ce cas, cet arrière plan enveloppe le «premier plan», représenté par le passé composé («mon mari m'a dit…») ou l'introduction d'un élément perturbateur. Le récit enchâssé est présenté sous forme de dialogue qui actualise le récit. Nous pouvons dire que le dialogue entre la femme et le mari remplit la fonction pragmatique émotionnelle. On peut parler ici d'un double enchâssement hiérarchisé comme suit:

Scène I Dialogue S+F
Scène II Récit (dialogue F+M)
Scène III Dialogue S+F
Scène IV Récit (dialogue F+M)
Scène V Dialogue S+F

Il s'agit d'une stratégie qui consiste à mettre en valeur le dialogue qui peut servir de représentation directe de l'action. Une très forte charge émotionnelle peut se dégager des séquences narratives insérées dans le dialogue comme étant des «récits intermédiaires» chargée d'une valeur émotionnelle. Pour (1), (2) et (4), l'enchâssement des séquences narratives n'a aucun effet comique. Par contre, il s'agit de rompre avec l'horizon d'attente du public. De ce fait, les séquences narratives représentent

24- HAILLET, Pierre Patrick, (2007), *Pour une linguistique des représentations discursives*, Paris : de boeck, coll. «Champs linguistiques », P.77.

ses larmes, reprend:) Maintenant que dois-je faire? Il faut que tu saches autre chose, et c'est le plus terrible: je vais t'abandonner. Ne crie pas. Ne proteste pas. Ne dis rien… Adieu! J'ai assez fait de mal comme ça» (Khelladi .pp307-308).

(3) « *Salam : Allô… Oui... Mabrouk? C'est Mabrouk... Pourquoi m'appelle-t-il? Pourquoi m'appelez-vous? II veut parler à Salama. On a eu la même idée au même moment. Les grands esprits se rencontrent... Il ne comprend pas. Quoi? Il dit qu'il n'est habité par aucun esprit, lui. C'est bien ce que je croyais! J'ai dit que c'est bien ce que je croyais! Il est sourd ou quoi? il croit que Salama est avec moi. Vous croyez que Salama est avec moi? Calmez-vous, calmez-vous. Non, mais! Il se calme. Il ne se calme pas. Ah, ces militaires... J'hésite à lui dire qu'elle est avec moi, rien que pour l'enrager. Ecoutez, monsieur Mabrouk, Salama est partie chez sa soeur au bled. Quelle soeur? Mais je n'en sais rien, elle ne m'a rien dit. Que dites-vous? Un nom, un quartier, une initiale, un indice... Voilà que ça le reprend. Faites votre enquête... Quoi? Il pense toujours que Salama est avec moi. Vous croyez que je me moque de vous? Il croit que je me moque de lui. Bon, oui, je vous écoute, je vous écoute... Soit. Au revoir, monsieur. Ou plutôt adieu, une nouvelle fois. (Il raccroche) Il me donne jusqu'à vendredi, une heure, pour lui dire où se trouve Salama. Passé, ce délai, il viendra me tuer. Trois balles dans la tête, a-t-il précisé. Pourquoi trois? Il est fou à lier...* » (Khelladi. pp.309-310).

(4) « *La femme:* **J'avais** *un mari et quatre enfants que j'aimais beaucoup. Mon mari* **m'a dit**, *il faut nous partager... les masques sont tombés*» (Khelladi. pp.324-326)

Jean-Michel Adam propose une étude sur l'enchâssement du monologue narratif dans le discours dramatique. Le récit pourrait donc s'emboîter de façons assez variées dans le dialogue. Par exemple, dans (1), l'instance du récit est enveloppée par celle du discours. La justification serait le temps verbal. Deux occurrences se trouvent combinées:

- Salama a arrangé/ a dit...
- Il est quatre heures et demi…

Ici, le passé composé dont l'aspect est inaccompli ne relève pas intrinsèquement du récit mais plutôt du discours, ou plutôt du récit mis en discours dont il conviendrait d'analyser comme un discours rapporté. Dans ce cas, le dialogue unilatéral de Salam avec le public est un «discours citant» qui s'attache à son instance énonciative, tout en intégrant un «discours cité»[23] qui possède ces propres marques de

23- MAINGUEANAU, Dominique, (1990), *Eléments de linguistique de linguistique pour le texte littéraire*, Paris : Bordas.

Ce mot d'esprit diffère nettement d'un énoncé isotope comme: «On a toujours peur de rencontrer la mort». Dans ce cas, les deux lexèmes «vie» et «mort» apparaissent hétérogènes au contexte isotope de la rencontre d'où l'effet de la figure métaphorique. Cette rupture peut être atténuée par des explications sommaires que/la vie/ et /la mort/ sont les deux extrémités du parcours existentiel des êtres. La rupture sur le niveau phrastique est complétée par la logique du monde sémantique de la pièce. C'est la raison pour laquelle, les juxtapositions de lexèmes contradictoires dans le mot d'esprit créent un effet comique en marquant une rupture au niveau isotopique phrastique, assigné à la logique absurde de l'isotopie textuelle du discours dramatique comique: «La cohésion sémantique est un fait de co-textualité, que la notion d'isotopie permet de théoriser»[21].

III.2.2. La forme d'organisation séquentielle:

Le discours dramatique est un discours hétérogène. Il est certain que sa substance première (le dialogue) serait l'agencement de plusieurs fragments de séquences : le protagoniste tout en dialoguant pourrait raconter un fait, décrire un lieu, ou même défendre une idée. L'organisation séquentielle vise à repérer ces différents types de séquences dans le discours dramatique comique et, par la suite, les mettre en relation avec le comique.

III.2.2.1. La séquence narrative ou la suspension du comique:

Etant donné que discours théâtral a toujours suscité un questionnement initial: le théâtre relève-t-il de la «mimesis» ou de la « diégesis»? Comment ces deux modes se conjoignent-ils? La mise en récit sert d'astuce pour représenter les choses qui ne peuvent pas passer en action. Par contre, le récit s'enchâsse dans la conversation[22].

[Conversation+[récit]+conversation]

Dans, «*Le paradis des fausses espérances*» d'Aissa Khelladi, plusieurs enchâssements du récit dans le dialogue sont instaurés:

(1) «*Salam: Salama a arrangé le rendez-vous avec Mabrouk. Elle m'a dit qu'il se présentera chez moi à quatre heures de l'après-midi...*» (Khelladi:293).

(2) «*Salama: Ne dis rien... Je vais te faire un aveu. Pendant que tu discutais avec Mabrouk, je réfléchissais. Je savais qu'il allait te proposer son aide si tu renonçais à moi. II me l'avait dit. Et j'ai joué avec ça… ô pardonne-moi, pardonne-moi! (Elle pleure, essuie*

21- ADAM, Jean-Michel, (2005), *La linguistique textuelle : Introduction à l'analyse textuelle des discours*, Paris : Armand Collin, coll. « Cursus », P.26.

22- Idem.171.

effet comique, car le locuteur qui en fait usage accentue ses propos en optant pour un registre relâché issu d'un sentiment d'insécurité comme il est le cas pour (1). Pour (2), (3) et (4), ces syntagmes arabes insérés (Inch'allah, Allah Akbar, Ham'dou llah) sont des expressions propres à la langue arabe. Elles ne peuvent avoir de signification forte que lorsqu'elles sont intégrées en tant que telles, sans conversion dans la langue étrangère, car elles relèvent du système axiologique arabo-musulman. Alors que pour (5), Salam s'emporte et utilise l'insulte pour marquer sa colère en langue arabe. Mais le comique serait issu d'une tentative d'euphémisation de ses propos grossiers (Din errab!) en retournant à l'usage normatif de la langue étrangère (Mince! bonté divine!). Ainsi, l'autocorrection de Salam serait une manière atténuée de Salam d'adoucir la trivialité de l'insulte et par conséquent d'initier le public à l'absurdité de sa fausse auto-correction.

III.2. Les formes d'organisations élémentaires:

III.2.1. La forme d'organisation sémantique:

La dimension sémantique globale du discours dramatique comique de Aissa Khelladi est représentée par la macro structure sémantique ou le «topic» global de ce discours. Le thème global de la pièce est la quête de la vie d'un écrivain raté, doublement menacé. Le caractère fictionnel du discours dramatique comique est soumis à une logique particulière, oscillant entre réalité et fiction. L'auteur n'opère pas une mise à distance, par contre, il déploie des moyens énonciatifs (que nous analyserons dans la forme d'organisation polyphonique) en utilisant le pronom personnel «je»; en cherchant à rendre son discours vraisemblable. De ce fait, l'emploie métaphorique du titre «Le paradis des fausses espérances», peut servir de suspension des conditions de vérité qui déterminent l'univers de référence. Dans ce cas, nous analyserons l'isotopie qui sert de lieu de médiation entre la logique particulière du discours dramatique, et la logique référentielle du monde. Définie comme étant une itération linguistique, l'isotopie sémantique serait: «l*a récurrence syntagmatique du même sème ou groupement de sèmes* »[20].Les ambiguïtés isotopiques se trouvent largement manifestés dans le texte littéraire en écart : elles régissent la cohésion sémantique de l'énoncé. Deux niveaux d'isotopie sémantiques peuvent être analysés : (i) phrastique : cohésion phrastique, (ii) textuel : cohérence et cohésion sémantique des mondes. Prenons à titre d'exemple l'énoncé suivant:

«S*alam (en aparté, philosophe): On a toujours peur de rencontrer la vie, c'est normal!*» (Khelladi, p.267).

20- Idem. P. 259.

le connaissez tous celui-là. É-ra-di-quer. Et terroriser?» (Khelladi: 268).

Le procédé employé par Salam consiste ici à agencer un nombre assez consistant de racines verbales qui peuvent se ranger sous forme d'un champ lexical. Les 52 racines verbales sont rangées par un lien synonymique justifié par Salam. Cette chaîne de synonymes pourrait être conçue comme le premier trait comique attribué à Salam. Il obéit au principe du «*diable à ressort*»[18] développé par Bergson (1900). L'attitude machinale de Salam et son obstination à créer des mots pour prouver sa compétence d'écrivain se trouvent à l'origine de la création d'un effet comique.

b. L'emprunt lexical de l'arabe: Il est certain que le recours de l'auteur aux mots de sa langue natale (l'arabe dialectal) est d'un effet assez significatif sur le discours. Prenons par exemple les énoncés suivants:

(*1) «Salam: Que Dieu me protège! Allah yastour!» (Khelladi : 282).*

(2) «Salam: Oui. Nous sommes musulmans, nous disons Inch'AlIah quand nous projetons de faire quelque chose. A demain, inch'Allah. Je vais dormir, inch'Allah. J'essaierai d'être là, inch'Allah. Le Front m'exécutera,, et non pas m'exécute, le vendredi, à l'heure de la prière, inch 'Allah! Poussière tu es, poussière tu seras. » (Khelladi: 283).

(3) «(On entend l'appel du muezzin: Allah Akbar...)». (Khelladi: 315)

(4) «Mabrouk : (Il éructe): Ham'dou llah». (Khelladi: 295)

(5) «Un seul être vous manque et tout se dépeuple... Qu'est-ce que je dis là? Din errab! (Au public:) c'est l'équivalent de "Merde!" Excusez-moi. Ça veut dire plutôt: "Mince" ou bien "Bon Dieu".» (Khelladi: 281).

L'insertion des mots arabes dans le discours dramatique est un cas sociolinguistique de langue en contact appelé «l'emprunt»: «*Il y a un emprunt linguistique quand un parler A utilise et finit par intégrer une unité ou un trait linguistique qui existait précédemment dans un parler B (dit langue source) et que A ne possédait pas*» [19]. Le recours à l'emprunt pourrait être la source d'un

18- L'idée de la risibilité des scènes comiques vient de la tension créée entre les personnages et une autre opposée. Cette fausse tension, réduite à l'absurde est le résultat d'une récidivité acharnée. Bergson compare le processus par lequel se joue la comédie à un diable à ressort. Ceci dit, « la répétition » serait un procédés, classique certes, mais toujours primordial dans la création de l'effet risible. Si nous reviendrons au domaine du théâtre, nous pouvons constater qu'un mot qui se répète est susceptible d'avoir un effet comique : *« dans une répétition comique de mots, il y a généralement deux termes en présence, un sentiment comprimé qui se détend comme un ressort, et une idée qui s'amuse à comprimer de nouveau le sentiment* (Bergson, 1900 : 56)

19- Dubois, Jean, et.al. (2000), Op.cit. P. 199.

déterminé»[17]. Linguistiquement, les propositions maximales de Omar sont définies comme inacceptables grammaticalement et constituent donc un clivage par rapport aux normes linguistiques d'acceptabilité. La performance linguistique d'Omar devient un objet de risibilité pour Salam qui procède à l'imitation dans (3) et (4) pour accentuer la moquerie. La récursivité d'Omar en engendrant des phrases incorrectes devient un motif comique qui laisse entendre l'infériorité de l'objet du comique (la performance langagière d'Omar) en étalant ses défaillances.

III.1.3. La dimension lexicale:

Ce module s'intéresse aux propriétés lexicales et aux relations susceptibles de s'établir avec le comique. Ainsi, le module lexical serait constitué de mots mis en action. Nous postulons d'abord que les lexèmes pris dans leur sens littéral dénotatif, ne peuvent pas engendrer un effet comique. Le comique serait par contre un jugement esthétique porté par un énonciataire (le public), sur l'énoncé (le discours dramatique). On parle de «vocabulaire» plutôt que de «lexique» : le premier est en rapport avec la parole, alors que le deuxième est en relation avec la langue. Dans «Le paradis des fausses espérances» de Aissa Khelladi nous relavons deux manifestions lexicales plus ou moins responsables à la création d'un effet comique:

a. La récurrence lexicale exagérée: Il s'agit d'utiliser successivement un nombre de mots qui relèvent du même champ lexical. Prenons par exemple l'énoncé suivant:

> *Salam: «Je me casse la tête à trouver des mots pour vous inventer la vie pendant que vous passe la vôtre à vous l'ôter! "A-vous-l'ôter".., ça sonne bizarre... Oter. Synonyme d'enlever. (Il se précipite sur sa machine.) C'est mon métier, les mots... Enlever, massacrer, tuer, égorger, assassiner, poignarder, sabrer, occire, défigurer, amocher, abîmer... saccager, saboter, estropier, altérer, enlaidir... dénaturer, gâter, déformer... vous en connaissez d'autres, des mots comme ça? Écraser, très bien! Et quoi encore? Oui, broyer, hacher, piétiner etc. Abîmer? Non, on l'a déjà dit. Anéantir, très bien. Abattre, démolir, ruiner, renverser, saper, raser, défaire abolir annihiler, supprimer, démanteler, éteindre, étouffer, neutraliser, rompre, abroger, casser, exterminer, c'est bien ça, exterminer! Bon, ça va comme ça. Quoi? Humilier, on l'a déjà dit. Non, eh bien: humilier, écrabouiller, déchiqueter, radier, délabrer, vaincre, défaire, éradiquer... Ah, je vois que vous*

17- Dubois, Jean, et.al. (2000), ibid. P. 399.

des propos de Mabrouk.

Notons également que l'incompréhension instaurée entre Mabrouk et Salam est issue de l'usage de deux répertoires lexicaux différents: pour Mabrouk, «fils de zarkis» équivaut à «terroriste», alors que Salam ignore la dimension péjorative de l'expression, d'où la création du quiproquo ou du malentendu théâtral auquel le spectateur est initié alors que les protagonistes en sont les feints victimes.

III.1.2. La dimension syntaxique:

Plusieurs remarques peuvent être faites sur l'organisation du module syntaxique. Notons d'abord qu'il s'agit de définir les catégories syntaxiques permettant d'engendrer des structures de toutes les «propositions maximales» de la langue(14). Eddy Roulet propose cette notion au lieu de celle de «phrase» qui peut contenir plusieurs propositions maximales et donc, correspondre à une structure textuelle plutôt qu'aux structures syntaxiques. C'est le cas par exemple des phrases qui contiennent des appositions: «*un emploi détaché du nom et s'oppose à l'adjectif apposé*»(15). Ainsi, la proposition maximale doit se définir sous l'angle de l'acceptabilité grammaticale. Le discours dramatique comique d'Aissa Khelladi semble être conforme aux règles d'acceptabilité sémantique et syntaxique sauf pour le cas particulier des énoncés produits par Omar. Prenons à titre d'exemple les énoncés suivants:

(*1) «Salam: Bonjour.*

*Omar: *[16]Jour bon.*

Salam: Pourquoi tu parles comme ça?

*Omar: *Parle comment je?» (Khelladi, p.268)*

*(2) «Le barbu: *Là, je suis.*

*Salam: *Je croyais que raccroché tu avais..,» (Khelladi, p.283)*

(3) «*Le barbu: *Infaillible est le jugement des moudjahidin. *Sans appel, le Front t'a condamné. *Vendredi à l'heure de la grande Prière, Tu es exécuté.*» (Khelladi, p.283)

(4) «Omar (soupirant): *Réfléchir laisse moi...

Salam: *Ton temps, prends surtout.

Omar: *Pourquoi comme-moi tu parles? Le piège, je sens.» (Khelladi : 314).

Dans les énoncés produits par Omar, la syntaxe n'est pas respectée. En effet, cela est causé par la rection exagérée: «*On appelle rection la propriété qu'a un verbe d'être accompagné d'un complément dont le mode d'introduction est*

14- In. NØLKE, Henning ; ADAM, Jean-Michel et.al, Op.cit.P.195.

15- DUBOIS, Jean et. al, (2002), *Dictionnaire de linguistique*, Paris : Larousse-Bordas, P.46.

16- Ces énoncés sont précédés d'un astérisque pour signaler leur agrammaticalité.

Salam: je n'ai rien dit de telle… quels fils de zarkis ? Ils m'ont rien fait ces gens là?

Mabrouk : pourquoi ? Vous êtes avec eux?...» (Khelladi, p.295).

Dans (1), nous remarquons d'emblée l'effet du tutoiement qui sert d'indice sur le statut égal des protagonistes. En plus, les tours de parole de Salama sont définis par la modalité syntaxique obligatoire de l'interrogation. En effet, ces questions sont du type fermé étant donné que les répliques de Salam sont confinées à un seul mot «Non». Ces questions ne sont pas de «vraies» questions. Il s'agit plutôt de questions rhétoriques ou orientées. Le sens du comique peut s'apercevoir ici dans la mesure où ces questions se trouvent comme faussement orientées. D'abord, l'énoncé ironique de Salama: «Ah bon ! Ce ne sont pas des hommes comme les autres?» est interprété comme véhiculant un point de vue intrinsèquement interrogatif, alors que l'intonation interrogative est propre au caractère ironique qui se dégage de l'énoncé. Les propositions de Salama sont donc la source de propositions interrogatives d'une feinte innocence, alors que les réponses énergétiques de Salam en marquent la fausseté. Ce qui déclenche un effet comique.

Pour (2), il s'agit plutôt d'un vouvoiement qui marque la distance que prend Salam et Mabrouk l'un par rapport à l'autre. Mais précisons le type de cette mise à distance : relèverait-elle vraiment d'une convenance sociale, d'une obligation de respect?

Etant donné que Salam et Mabrouk, agents actifs de l'interaction adoptent une ligne de conduite à laquelle correspondraient inévitablement leurs images sociales, nous pouvons en déduire que Mabrouk, adopterait une ligne de conduite dominante, supérieure et même menaçante en adressant la parole à Salam. Vu son statut social supérieur de militaire et son caractère paranoïaque, l'attitude conversationnelle de Mabrouk se trouve en collision avec celle de Salam qui, vu son statut s'écrivain raté, menacé, cherchant la protection d'une force supérieure, (celle de Mabrouk), se trouve face aux propos provocants de Mabrouk.

Ce déséquilibre apparent repose sur la différence des registres adoptés par Salam et Mabrouk. Ce dernier adopte des stratégies propres au dialogue dit «*éristique*»[13] dont le principe repose principalement sur l'accusation de l'autre quoi que soit sa défense. Cette stratégie consiste à enfermer Salam dans un présupposé (tu es un terroriste), alors que Salam opte pour le dialogue dit «*dialectique*» et met en place sa stratégie défensive basée sur la raison qui démontre habillement l'absurdité

13- ADAM, Jean-Michel, (1992), *Les textes : types et prototypes*, Paris ; Nathan Université. P.165.

Il est remarquable que l'interpellation énonciative indirecte du public domine le long du discours dramatique comique d'Aissa Khelladi. En outre, l'interpellation directe ne figure que dans ces trois énoncés. L'implication directe du public dans l'échange dialogual est significativement placée au début et à la fin de la pièce en mettant ainsi en valeur l'emboîtement. L'échange dialogual est considéré en tant qu'interaction qui se définit par rapport à la pluralité des canaux de conversation. Il se manifeste essentiellement dans le canal auditif verbo-vocal, et le canal visuel mimo-posturo-gestuel.

Pour le canal verbal, considérons l'ensemble des paires adjacentes[12] suivantes :

(1) «Salama: je ne sais pas…Il ne me dit pas «je t'aime» comme tu sais le faire toi.

S*alam: (hurlant) Il ne te dit pas: je t'aime!*

Salama: Non…pourquoi tu hurles?

Salam: mais que dit il alors, ce salaud?

Salama: les militaires n'ont pas la parole facile.

Salam: C'est un militaire!

Salama: Et toi, tu penses que les militaires ne savent pas dire: « je t'aime»!

Salam (s'écriant): Bien sur que nooon!

Salama : Ah bon! Ce ne sont pas des hommes comme les autres ?

Salam: Nooon!

Salama: meilleurs?

Salam: Noooooooon!

Salama: différents?

Salam: Nooon!» (Khelladi: 275)

(2) «S*alam : vous ne vous sentez donc pas bien protégé?*

Mabrouk: c'est moi qui pose les… ne craignez rien, je suis toujours armé. Si vous faites la moindre tentative sur moi; je vous abattrai comme un chien !

Salam: Mais je n'ai l'intention de faire aucune tentative contre vous. On dirait que vous êtes paranoïaque. Salama ne vous a-t- elle pas expliqué que c'est moi qui recherchais votre protection?

…

Salam: écoutez, on arrête là. On se sert la main et…

Mabrouk: Pas de gestes brusques ou je vous écrase comme un cafard !

Salam: Oh, la !

Mabrouk: j'espère que vous êtes convaincu maintenant que je maîtrise la situation. Commençons par le commencement… donc vous prétendez que les fils de zarkis vont vous massacrer ?

12- Une paire adjacente est définie comme étant : *«constituée de deux tours de parole en position de succession immédiate, prononcés par deux locuteurs différents »* (Bange, 1992 : 40).

c- Formes d'organisation complexes:

(i) topicale

(ii) polyphonique

(iii) compositionnelle

(iv) stratégique.

Ainsi, chaque module est défini comme structure complexe d'interrelation entre des formes d'organisations élémentaires et complexes. Or, il nous semble utile de signaler que la présente étude n'as pas pour objectif d'appliquer l'intégralité du modèle modulaire sur la pièce «*Le paradis des fausses espérances*» d'Aissa Khelladi. Nous nous contenterons seulement d'analyser les composantes responsables de la création d'un effet comique dans le discours dramatique à l'instar des modules lexical, syntaxique et interactionnel. En plus des deux formes d'organisation élémentaires : sémantique et séquentielle, aussi bien que les formes d'organisation (complexe de la polyphonique).

III.1. Les dimensions modulaires:

III.1.1. La dimension interactionnelle:

Le module interactionnel est d'une importance manifeste dans «*Le paradis des fausses espérances*» d'Aissa Khelladi. L'échange dialogal constitue la substance du discours dramatique. Il est relativement plus important que l'ensemble des indications scéniques car elles ne constituent qu'un éclaircissement métalinguistique sur le dialogue. L'échange dialogual définit les propriétés de la dimension matérielle de l'interaction verbale dans le discours dramatique comique. Nous relevons d'emblée le phénomène d'emboîtement qui régit tout échange dialogual dans un discours dramatique : le cadre interactionnel des protagonistes est emboîté dans une interaction supérieure entre l'auteur et le public comme une interaction unilatérale où l'auteur se trouve en situation de sujet «actant» de la parole, et le public en situation de sujet «patient». Aussi, la structure dialoguale enchâssée est marquée explicitement, alors que la structure dialoguale enchâssante est implicite sauf dans les énoncés suivants:

(1) «*Salam:…humilier, on l'a déjà dit ? non, eh bien : humilier, écrabouiller, déchiqueter, radier délabrer, vaincre, défaire, éradiquer… ah je vois que vous le connaissez tous celui là. E-ra-di-quer. Et terroriser ? vous le connaissez tous aussi bien sur* » (Khelladi : 264).

(2) «*Mabrouk:…j'ai abattu Omar Zantag ! j'ai abattu Omar Zantag! (il regarde à nouveau :) vous, n'applaudissez pas ? (il attend), je suis sur que vous êtes des crypto-terroristes, des réconciliateurs.*» (Khelladi. p.316).

(3) «*Salam:…jene vous dirai pas où nous vivons. Pour des raisons que vous devinerez*» (Khelladi: 333).

effet, il existe des règles de formation qui contrôlent les éléments du langage, tournant principalement autours de la notion d'«*énoncé*» ayant trois propriétés : «*La rareté (un énoncé est un évènement unique quoique répétable en occurrences différentes), l'extériorité (ce qui compte dans l'analyse, c'est de saisir l'énoncé dans sa manifestation, non dans une quelconque «intériorité» subjective), le cumul (la production et la diffusion d'un énoncé prennent corps sur fond d'autres formulations qui le rappellent)*. (Elia-Sarfati, 2005: 102).

III. Modularité et formes d'organisation:

En postulant le discours comme construction transphrastique, relevant de la langue «en acte», c'est-à-dire de la parole ; la pièce théâtrale, présent objet d'analyse ne relève pas d'un discours idéal dont les mots et les énoncés obéissent exclusivement aux conditions imposées par la langue. En effet, plusieurs courants de sciences sociales insistent sur la modularité de l'esprit et, corrélativement, sur celle du discours. Par conséquent, en quoi consiste cette approche modulaire? «*Une approche modulaire est banalement une approche qui a recours à un modèle théorique contenant un certain nombre de sous-systèmes autonomes appelés modules, où chaque module est chargé du traitement d'une problématique restreinte*»[10]. Les différents modules ne se sont pas traités séparément mais ils peuvent se relier avec un système de règles globales.

A cet insu, nous adopterons le dispositif modulaire d'Eddy Roulet qui rend compte de la complexité de l'organisation du discours dramatique comique. L'architecture du modèle de Roulet est «hétérarchique», puisqu'elle permet le couplage d'organisations. Ainsi, nous remarquons sommairement que la complexité du discours dramatique comique peut être traitée à partir de plusieurs angles: l'énonciation, le thème, le lexique, la syntaxe, l'intonation, l'argumentation…etc. ces composantes sont classées selon trois niveaux[11]:

a- Modules:

linguistiques (lexical/syntaxique),

textuels (hiérarchique),

situationnels (référentiels/ interactionnels).

b- Formes d'organisation élémentaires:

linguistiques (phono prosodique ou graphique/sémantique /relationnelle/ périodiques)textuels (informationnelle/ énonciative) situationnels (séquentielle/ inférentielle /opérationnelle).

10- NØLKE, Henning ; ADAM, Jean-Michel et.al, (1991), *Approches modulaires : de la langue au discours*, Lausanne : Delachaux et Nistlé, P.18.
11- Idem..P.196.

courants et défini des méthodes distinctes»[6]. Une telle approche transcendantale de la langue postule l'importance du lien entre la langue et son contexte, et décrit donc la manière d'appréhender les sciences sociales et humaines de manière quantitative et qualitative. Elle présuppose également une approche socio-sémantique, puisqu'elle prend en considération les caractéristiques sémantiques de l'énoncé, ainsi que les caractéristiques des locuteurs, en décrivant le processus du fonctionnement linguistique des discours. Deux principaux courants structuralistes sont retenus:

a- Courant althussérien: Louis Althusser élabore la théorie de l'idéologie, en commençant sa réflexion en distinguant «*la théorie de l'idéologie en générale*» et «*une théorie des idéologies particulières, qui expriment toujours, quelle que soit leur forme (religieuse, morale, juridique, politique) des positions de classe*»[7]. L'apport d'Althusser est fondamental dans la mesure où il postule l'interpellation des individus en sujets par l'appareil idéologique. Il s'agit d'une interpellation qui retrace, en relation avec les phénomènes langagiers, le caractère analogique entre l'idéologie et le langage: «*L'efficacité de l'idéologie, et notamment celle des idéologies particulières, repose sur un simulacre de transparence (qui rappelle, dans l'expérience de communication, l'impression de transparence du langage*»[8] . De ce fait, l'idéologie serait un appareil répressif qui agit sur le langage qui, à son tour se trouve enfermé sur des schèmes idéologiques. Si on postule l'existence d'une science de l'idéologie, elle serait directement concernée par l'analyse du discours, car elle a pour objet de déconstruire le dimension discursive des idéologies: «*Le rôle révolu à l'analyse du discours est celui d'une pratique qui permet d'avoir prise sur les mécanismes de l'idéologie, pratique qui autorise l'expression rigoureuse d'un regard critique, capable par le biais de la théorie générale, de produire une distance, une extériorité, la possibilité d'un travail de démythification*»[9]

b- Courant foucaldien: Michel Foucault qui partage avec Althusser le même intérêt épistémologique, s'intéresse distinctement au locuteur, comme «*instance de l'évènement énonciatif*» (1969: 41). Il considère que l'analyse du discours conçoit le discours comme étant un univers où s'expriment des oppositions et des contraintes. En

6- CHARAUDEAU, Patrick ; MAINGUENEAU, Dominique, (2000), *Dictionnaire d'analyse du discours*, Paris : Seuil, P.45.

7- ALTHUSSER, Louis, (1976), *«Idéologie et appareils idéologiques d'Etat» ,* In *Positions*, Paris : Sociales, P.98.

8- SARFATI, Georges-Elia, (2005). Op.cit. P.98.

9- SARFATI, Georges-Elia, (2005). Op.cit. P.99.

espérances»[3] d'Aissa Khelladi est une pièce comique qui obéit à certains critères génériques. C'est aussi une organisation transphrastique, une unité de sens complète, soumise à des règles d'organisation générales à l'instar du plan et de la longueur illustrées par le découpage de la pièce en actes, subdivisés à leur tour en scènes. Ensuite, la pièce est «*orientée*» en fonction de la visée de son locuteur, supposant ainsi qu'elle va quelque part en fonction des destinateurs précis (le public). Également, la pièce constitue un acte de langage)[4], résultant d'une énonciation qui vise à changer une situation. Ce dernier peut se concevoir également sous l'angle de «*l'interactivité*», puisque «*Le paradis des fausses espérances*» manifeste un emploi authentique de la conversation via l'aparté, ou même le sous-entendu, car le public serait une instance d'énonciation à laquelle le locuteur s'adresse. D'un autre côté, la pièce comme genre particulier du discours, est prise en charge par son auteur Aissa Khelladi étant donné que les indices péritextuels illustrent explicitement l'identité de son auteur, et ainsi, toute la charge énonciative. Ceci dit, les formes de subjectivité de l'auteur peuvent être repérées ainsi que son degré d'adhésion à son discours. Subséquemment, «*Le paradis des fausses espérances*» n'a vraiment de sens que lorsqu'elle est placée au cœur d'un contexte social et idéologique précis : c'est la situation sociopolitique de l'Algérie pendant les années de braise.

II. Fondements épistémologiques de l'analyse du discours:

Si le discours serait le matériel d'une étude pragmatique, le langage n'existerait que s'il détient une référence admise dans la réalité, étant donné que le discours n'est autre que la représentation individuelle du réel. Dans ce sens, l'analyse du discours qui s'est développée en France, en Grande-Bretagne et aux Etats-Unis à partir des années 1960, serait le résultat des influences multiples sur l'étude du langage mis en action: «*La motivation de l'analyse du discours est double : les phrases contiennent des éléments qui ne peuvent s'interpréter au niveau de la phrase elle-même et l'interprétation d'un discours donné ne se réduit pas à la somme des interprétations des phrases qui le composent*»[5]. L'analyse du discours s'applique à des objets variés, elle aurait «d*éveloppé un appareil conceptuel spécifique, fait dialoguer de plus en plus ses multiples*

3- Khelladi, Aissa, (2000), *Le Paradis des Fausses Espérances*, In *Anthologie du nouveau théâtre algérien*, Paris : Marsa, pp. 260-333.

4- SEARLE, John, (1972), *Les actes de langage*, Paris : Hermann.

5- MOESCHLER, J, REBOUL, A, (1994), *Dictionnaire encyclopédique de pragmatique*, Paris : Hachette, P.13.

Modularité et analyse du discours dramatique comique
«Le paradis des fausses espérances»

Aissa Khelladi
Mascara university – Algeria

I. Le discours: notion fluctuante:

Contrairement à sa feinte spontanéité, le comique est une forme complexe, produite en vue d'être reçue et jugée par le spectateur, qui mesure et «détecte» sa risibilité. Il s'agit également d'un discours inscrit dans un contexte précis. Subséquemment, en quoi consiste la notion problématique du discours, et quelles sont ses différentes dimensions? Dans ce sens, le discours s'oppose à:

a. La phrase : En effet, le discours va au-delà de la phrase, il la transcende. Ainsi, deux modalités d'approches transphrastiques sont retenues: l'une de tendance syntaxique et l'autre d'orientation sémantique. La première est représentée par l'école de Z. Harris, qui conçoit le discours comme «*un tout spécifique consistant en une séquence de formes linguistiques disposées en phrases successive*»[(1)]. La deuxième est illustrée par la pensée de l'école de Greimas qui définit le discours comme une organisation de signification, analysable sous l'angle de règles logico-sémantiques, hors phrase (isotopie du discours).

b. La langue: Elle s'oppose au discours puisqu'elle constitue un système de valeurs virtuelles, alors que le discours serait la mise en action de la langue dans un contexte précis. Ceci dit, le discours pourrait s'apparenter à l'énonciation comme le montre Benveniste: *«La langue en tant qu'assumée par l'homme qui parle, et dans la condition d'intersubjectivité qui seule rend possible la communication linguistique»*[(2)]. Le discours serait à cet effet l'usage restreint et exclusivement individuel de la langue.

«*Le paradis des fausses*

1- Z. Harris, cité dans SARFATI, Georges-Elia, (2005), *Eléments d'analyse du discours*, Paris : Armand Collin, coll. « 128 », P.12.

2- GREIMAS, Algirdas-Julien, (1966)*, Sémantique Structurale, 3*ème édition, (2002), Paris : PUF, coll. « Formes sémiotiques », P.266.

المقياسية ودراسة الخطاب الكوميدي في «جنة الأحلام الزائفة»

عيسى خلادي

جامعة معسكر – الجزائر

الملخّص

إن المقاربة المقياسية تسمح بإدراك أعمق للخطاب المسرحي فهي بذلك توفر دراسة أفضل للكوميديا كبنية خطابية. إن الكوميديا هي نتيجة لثلاثة مستويات ينتج عنها تعقيد الخطاب: على الصعيد اللغوي، تكون الكوميديا ذات علاقة وطيدة بالسمات اللغوية الأساسية.

فعلى الصعيد النصي، يأخذ التماسك المدلولي الأهمية القصوى لأنه يخلق تماسكا منطقيا خاصا بعالم الخطاب الكوميدي من جهة. ومن جهة أخرى، فإن إدماج السرد داخل الحوار في مسرحية "جنة الآمال الزائفة" تسمح بتخفيف وتيرة سرعة عنصر الهزل، وبالتالي تشديده لاحقا. أما على الصعيد التفاعلي، فإن تعدد الأصوات يكون وسيلة خفية للتهرب من المسؤولية الإخبارية وذلك بخلق جو من الإبهام والغموض حول الهوية الحقيقية للعنصر الإخباري.

الكلمات المفتاحية: المقاربة المقياسية، الخطاب الكوميدي، التماسك المدلولي، تعدد الأصوات.

Modularité et analyse du discours dramatique comique
«Le paradis des fausses espérances»

Aissa Khelladi
Mascara university – Algeria

Abstract

modular approach allows a deepen apprehension of dramatic discourse, and a better study comic as a discursive structure. Comic is a complex result of three levels of discourse: at the linguistic level, comic is created by linguistic basic properties. On the textual level, the semantic cohesiveness has a major function: (i) It guaranties the existence of isotopic universe, having its own comic logic. (ii) The insertion of story inside the dramatic dialogue in "The paradise of false hopes" allows slowing down the comical aspect in order to accentuate it next. Finally, on the interactional level, polyphony is the most subtle way for not taking charge of tells, by creating ambiguity about the identity of who is really talking.

Keywords: modular approach, comic, discourse, isotopic, polyphony.

سِمات
S e m a t

Modularité et analyse du discours dramatique comique

«Le paradis des fausses espérances»

Aissa Khelladi
Mascara university - Algeria
soumiacr@yahoo.fr

Received: 22 May. 2013,
Revised: 01 Jul. 2013, Accepted: 30 Sep. 2013
Published online: 1 May 2014

© 2014 UOB, SPC, University of Bahrain

Semat. Vol. 2 No. 2, (May 2014)

Studies in Foreign Languages

Contents

Studies in French

Modularité et analyse du discours dramatique comique
Aissa Khelladi 179

La Langue Baloutche au Bahreïn
Benammour Cherifa 166

Studies in Arabic

Utopia: Prospects and scope
Bendouba Charif Eddine 13

Chora: The Concept and Extensions
Fatema A. Al-Wohaibi 35

Science and sémiotique
Gouaich Djamel Eddine 49

Argument and Nonverbal Communication: Visual Argument as a Case Study
Said Bentajar 63

The Semiotic Dilemma
Kada Agag 79

Roots and Canonical Patterns: by Jan Cantino
Translated by Dr. Mubaralc Hanoun 113

Sign: Between Linguistic and Semiology
Abdulrahman Ibrahim Almahws 121

Semiotic object and game sense
Benghenissa Nacer eddine 141

Pragmatics Lefore Austin: Fact or Fantasy?
Brigitte Nerlich David D. Clarke 153

سِمات

S e m a t

Scientific Journal Published By "Scientific Publishing Center"
in University of Bahrain, 3 times a year

Editor-in-Chief

Abdelkader Fidouh, College of Arts, university of Qatar

Assistant Editor

Muhammad Abdulrazzaq Abdulghaffar,
University of Bahrain, Bahrain

Dheya Abdulla Al-Kaabi,
University of Bahrain, Bahrain

Editorial Board

Muhammed Husain iqbal	Hayder abad University, India
Munjid Mustafa Bahjat	Islamic University, Malaysia
Abdelmalek Mortad	Oran University, Algeria
Abdellah Laachi	Batinah University, Algeria
Habib Alkush	University Eljadida, Morocco
Cherif Eddine Bendouba	Saida University, Algeria
Muhammad Miftah	Rabat University, Morocco
Mohamed Dahi	Mohamed V University, Morocco
Said Bengrad	Mohamed V University, Morocco
Pierre Marillaud	Toulouse University, France
Mohamed Khabou	Safaquas University, Tunisia
Mohamed Najib Laamami	EL Qasim University, Tunisia
Sharif Aljayyar	Bani Swif University, Egypt
Boumedini Belkacem	Mascara University, Algeria
Stephanie Michineau	Université du Mans, France
Jacques Fontanille	Université de Limoges, France
Boumediene Djellali	Saida University, Algeria
Mohamed Chaouki Zine	Aix-Marseille Université, France
Abdelkader Charchar	Oran University, Algeria

Volume 2 - Number 2
May 2014

سِمات

Semat

Valueme 2 - Issue 2
May 2014

All correspondence should be addressed to:
Scientific Publishing Center
P.O.Box: 32038
Tel: (+973) 17 435113
E-mail: afidouh@hotmail.com

Logo of Semat سِمَاتْ **by:** Ahmed Ali Almanai (Bahrain)
Cover tableau: Artist Mahmood Al Mulla (Bahrain)
Cover Design: Naser Mahdi

University of Bahrain

سِمَات
Semat

Volume 2 Number 2
May 2014

مركز النشر العلمي
SCIENTIFIC PUBLISHING CENTER